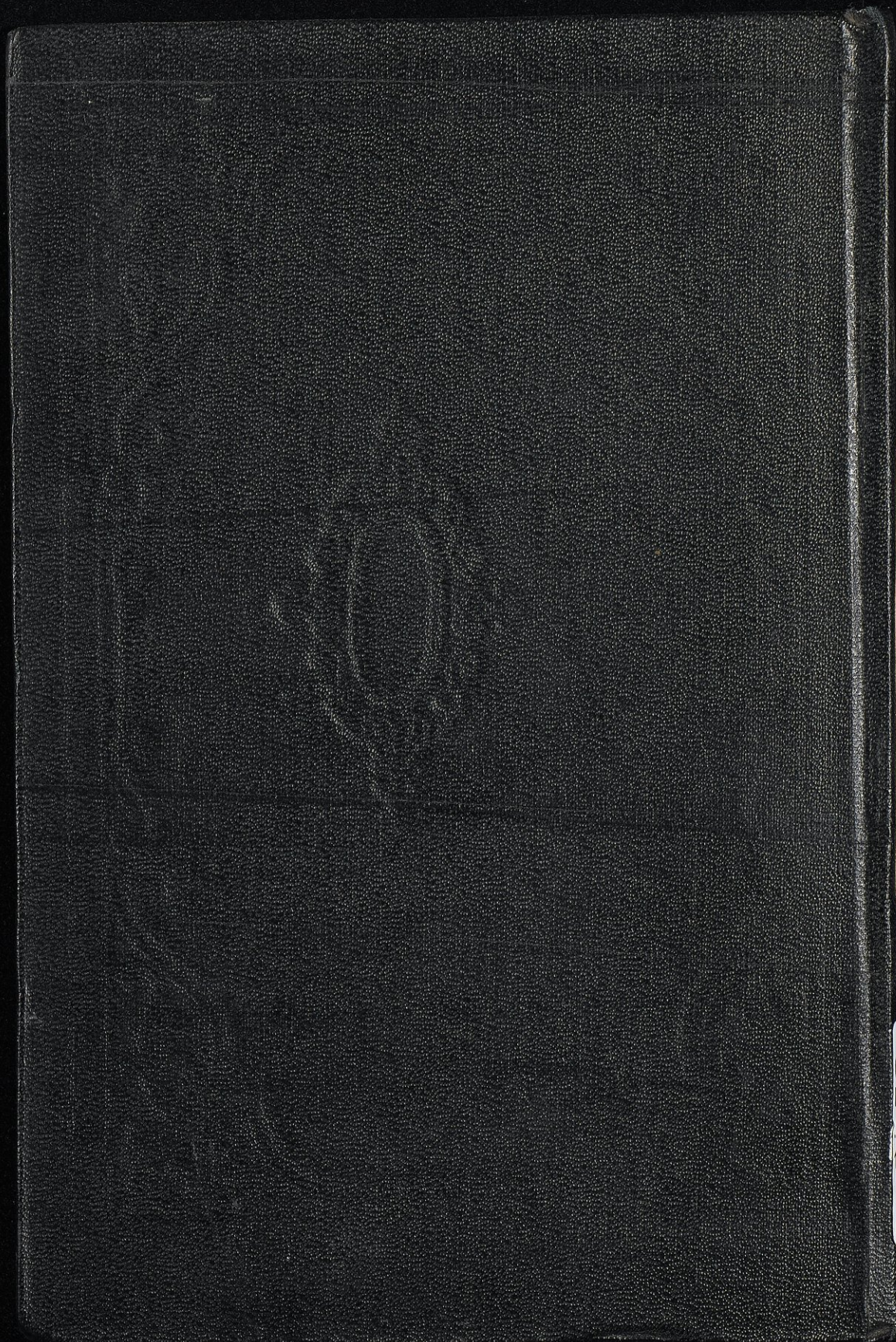




2258
- 67179

Nakhlah

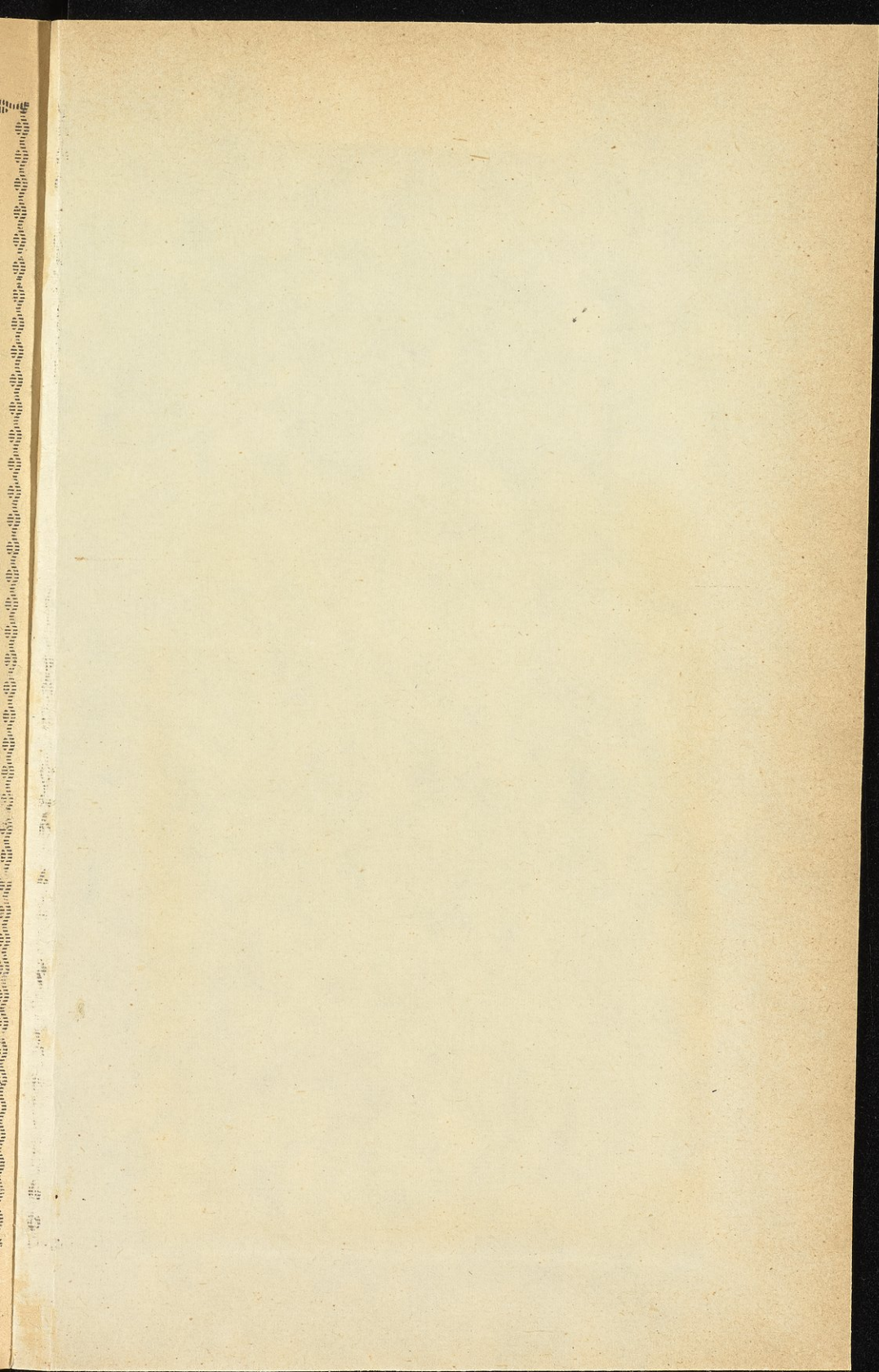
Maqalat naqdiyah...

[illegible]

Princeton University Library



32101 073825299



٢٠٧٥
Nakhlah, Rifa'īl

Maqālat naqdiyyah

مقالات نقدية على أدبنا العربي

بقلم الاب رفاييل نخلة اليسوعي

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مطبعة الاحسان في حلب

سنة ١٩٥٢

2258

67179

الرسم الذي على غلاف هذا الكتاب هو للرسم
الفريد بنخاش

المقدمة

قد نشرنا حول سنة ١٩٣٩ ، في الصفحة الادبية الاسبوعية من جريدة « البشير » البيروتية ، عدة مقالات انتقدنا فيها بعض اشهر ادبائنا المعاصرين من اهل لبنان ، العراق ، مصر وتونس ، فبذلنا الجهد لنميز بالسداد والنزاهة اللائقين بالناقد ، الغث والسمين في المواضيع التي عالجوها وفي كيفية تعبيرهم عنها . ثم اضفنا الى تلك المباحث نظرات عامة في اجود انواع النثر والشعر العصريين ، وفي اسباب انحطاط النقد الادبي بين ابناء جيلنا الناطقين بالضاد . قد تحاشينا في كل ذلك عن ابداء آرائنا على وجه مجرد ، جاف ، ينفر منه اكثر القراء ، ويُجيز لجميعهم الشك في صحتها . بل دعمناها دائماً بامثال عديدة متنوعة ، تلذ لخيالة المطالع وتثير عواطفه ، فتشوقه الى مواصلة قراءة هذا الكتاب ، وتمكّنه من نقد نقدنا ، اذا كان واقفاً على اصول الادب الحقيقي ، التي اتفق عليها وعمل بها نوابغ الادباء في كل عصر ومصر .

عبّر لنا كثير من قراء مقالاتنا المنشورة في « البشير » عن استحسانهم اياها وشدة التذاهم بها ، فاقدمنا على طبعها حين سنوح فرصة موافقة ، لتعميم فائدتها ولادامة تأثيرها . وقد اقتضى المنطق ان نجعل المقالات النقدية في صدر الكتاب ونلحق بها المباحث العامة في ادبنا العصري ، لان هذه مؤسسة على الاولى وخلاصة ما فيها من التحليل الدقيق .

لا يخفى عن ذوي الثقافة العالية ان اقطار الشرق العربي في جيشان آراء واحزاب متعاكسة ومتحاربة منذ فجر هذا القرن ، وعلى الاخص بعد ختام الحرب العالمية الاولى ، وان ميدان الادب من المعارك التي حمي فيها وطيس القتال الى الدرجة القصوى بين المحافظين المصريين على تقليد الاسلاف

في المعاني والمباني ، والمجددين المتجاسرين على كسر عدة قيود قديمة ،
لجعل ادبنا صورة حية لحياتنا الحاضرة ، ولرفعه الى مستوى آداب ارقى
الشعوب ؛ اما نحن فمن المجاهدين في صفوفهم لا يقاوتنا ان التطور الدائم
ضربة لازب لكل حي ، وان الادب في مقدمة مظاهر حياة الافراد
والشعوب ، فجموده في مجرد التشبه بنوايح كتاب العصور الغابرة هو في
الحقيقة موته وتلاشيته .

من ثم لا يخامرنا ادنى شك في كون المحافظين الذين لا يرون في
الادب سوى نسخ المواضيع والتعابير القديمة ، مع اجراء تغييرات سطحية
لا تمس جوهرها ، يعدّون عشرات من آرائنا النقدية مضادة لاصول الادب
العربي ، ولو كانت مطابقة لسنن الآداب الغربية . تلك النظرية فائلة كل
الفيولة . كما ان قواعد النحت الفني لا تختلف باختلاف المواد المنحوتة او
الاقطار والاعصار ، كذلك لا تتغير اصول الادب الصحيح بتنوع اللغات
التي هي مادته ، ولا بتغير الزمان والمكان .

قد بنينا نقدنا على تلك الاصول الراسخة الثابتة ، غير مكترئين لاستياء
المقلدين العاجزين عن ابتداع ادب عصري حي ، ولا لحق المدعين التجديد
والابتكار مع سوء فهمهم كنههما ، ولا لامتعاض بعض ذوي الشهرة الواسعة
والمعجبين بهم ، لكوننا قد تجرأنا على كشف عيوب انشائهم . لم يكن
رائدنا في تأليف هذا الكتاب سوى الحقيقة والانصاف والشجاعة ، لاجل
المدافعة عن مبادئ الادب الجدير باسمه الشريف . واملنا وطيد ، بعون الله
تعالى ، ان يكون تصنيفنا هذا حجراً في بناء صرح الادب العربي المستقبل .

حلب ، في ٦ آب ١٩٥٢

رأي الأديب الشهير ادوار مرقص

من أعضاء المجمع العلمي الدمشقي ، في مؤلف هذا الكتاب

وقد ابداه في مقالة نشرتها جريدة « البشير » البيروتية في ٣٠ تموز ١٩٣٩

اقول اني اول المستنكرين ، كما استنكر الاب رفايل نخله والسيد ميخائيل نعيمة ، ان يكون ادبنا العصري ادباً لفظياً محضاً ، لا اكثر ولا اقل ، اي ان يكون قشراً يليه قشر ثم قشر ، وليس بها شيء من اللبالب ... والآب ابواب الامل لا تزال مفتوحة امام عيوننا ، اذا اردنا دخولها ، ولا تكون الا على طريق الخاصة المنتقاة من ادبائنا باستخدام الجرأة والصراحة في اعطاء كل ذي حق حقه بالنقد والتقريض ، غير مندفعين مع التيار بمراعاة شهرة مصطنعة ؛ فاذا فعلوا ، فما الفرق بينهم وبين العامة ؟ اذا كان العامي يُنزل الخاصي الى دركته ، عوض ان يدفعه الخاصي الى درجته ، فهناك البلاء الاعظم والطامة الكبرى . ونما يطيب النفس ويعزيها ان قليلين بين رجال القلم عندنا - ومنهم الاب رفايل نخله والسيد ميخائيل نعيمة - اخذوا منذ سنوات يقومون بما عليهم من هذا الواجب الادبي والقومي معاً . فاذا زادوا على اشواطهم اشواطاً في هذا السبيل ، اقتدى بهم في الجرأة والامانة رجال آخرون قد يقلون عنهم علماً وفهماً وان قصروا عزيمة وهمة ؛ وحينئذ تصبح ومضاتنا نوراً وهاجساً ، فينتصر الحق ويزهق الباطل ولو رويداً رويداً .

تنبيه خطير للقراء

- ١ - قد ذكرنا نصوص الادباء على علاقتها ، كما وجدناها في مؤلفاتهم المطبوعة -
- ٢ - جعلنا عنوان كل مقالة او قصيدة بين مزدوجين وعددناه مؤثراً -
- ٣ - وصلنا شطري بعض الابيات الطويلة لتجنب التنازع كلاتها -
- ٤ - اذا كانت حركة الروي الكسرة ، فيجب تقديرها في القراءة ، وان لم تُطبع -
- ٥ - النقط الثلاث تدل على اهمال قسم من النص المذكور .

القسم الاول
نقد بعض الادباء المعاصرين

حافظ ابراهيم

ان شهرة شاعر النيل الواسعة تقني عن تعريفه ، وقد اقيمت له في شتى انحاء العالم العربي عدة حفلات تأبينية بعد موته الواقع سنة ١٩٣٢ . كان - رحمه الله - قد دخل المدرسة الحربية في القاهرة سنة ١٨٩٠ وترقى الى منصب ضابط ، ثم اكب على مطالعة دواوين مشاهير الشعراء ، فمال عن دولة السيف والمدفع المضطربة الى ميدان القريض الهادي ؛ وقد ترك خدمة الجيش المصري سنة ١٩٠١ .

نشرت كبرى الصحف قصائده ، ولا سيما السياسية والوطنية ، ثم جُمعت في مجلدات ديوانه الثلاثة المطبوعة سنة ١٩٢٢ ، وقد ظهر بعد وفاته « ديوان حافظ » حاوياً طائفة جديدة من منظوماته .

من تصفح ذينك الديوانين فلا بد ان يشاهد تطوراً بطيئاً متواصلاً ، تحرر به شعر حافظ تحرراً تدريجياً من قيود انتحال الاقدمين في مواضيعهم وتعبيرهم . كان في اول عهده بالنظم غائصاً في لجج المدح والثناء مثلهم . نجد في المجلد الاول من ديوانه القديم نحو خمسين صفحة في تعظيم الخديوي عباس حلمي ، اكثرها تزلف وتمليق بل خطل وثرثرة ، وقد خص ايضاً بحصة وافرة من بخوره الكثيف الخافق ، السلطان الاحمر عبد الحميد ، وهو في اوج مجده وبطشه ؛ فلما دارت عليه الدوائر وثلت عرشه ، انحنى عليه حافظ بالطعن الشديد في « فتنة الاستانة » .

اما المراثي فانها تشغل زهاء اثنتين وثلاثين صفحة من ذلك الديوان ، وهي لا تخلو من التصنع والمبالغة ؛ وقد وقف على شكوى صروف الدهر ومعاقبة الاخوان نحو خمسين صفحة ، وعشرين على القصائد الحمزية ، اقتداءً بمجون ابي نواس .

كل تلك المواضيع التافهة في معانيها احقر من ان تلفت نظر الناقد ، ولا سيما انها نظم شخص حديث العهد بالشعر ، عاجز عن الابتكار ، فلا يحصى له عن لوك اقوال السلف من دون هضمها واستخلاص جوهرها المغذي لتحويله الى دم جديد ، يوجد حياة جديدة ، بعد اطراح العناصر النخرة ، الميتة والمميتة . بطول معالجة القريض ومخالطة ائتمته المجدين في مصر ، من امثال خليل مطران ، احمد شوقي ، عباس العقاد ، محمد تيمور ، زاد حافظ فهماً لكنه الشعر ، القائم على ركني الحيوية والابتكار ، فجعل يُعرض عن المواضيع القديمة ، البالية ، مقتبساً الهامه على الاخص من محيطه المصري ، وهو اشبه ببسحر هدار ، تتلاطم فيه امواج التقلبات السريعة ، السياسية والاجتماعية .

وقف شاعر النيل مدة اعوام وقفة الراصد المضطرب بلبيب الوطنية ، بين غماره الهائجة ، فوصف لنا مظاهر ثورانها وفترات ركودها ادق الوصف في قصائد كثيرة ، صادقة اللمجة ، حادتها ، بعيدة الاصداء في اقطار العروبة ، فافتحت كأنها فصل حي منظوم من تاريخ بلاده في الثلث الاول من القرن العشرين ، رافعةً صاحبها الى مرتبة سامية بين مجددي شعرنا العصري . هذا هو حافظ الحقيقي ، وتلك شخصيته الناتئة ، الجديرة بالاعتبار والتحليل النقدي ، بعدما خلع اسمال شخصيته السكاذبة ، المستعارة من الاقدمين .

نزل في ميدان الوصف ، فبرز فيه تبرز مصور المشاهد الواقعة تحت النظر ، لكنه مع مهارته في ذلك الفن الطريف العسير ، لم يتوفق في اتقان التعبير توفقه في مواضيع الوصف ومعانيها .

لا نكاد نرى حادثاً سياسياً ذا شأن ولا حالة اجتماعية خطيرة لم يمثلها لنا في شعره ، وكثيراً ما يُفرغ وصفه لها في قالب التوبيخ اللطيف او الهجو اللاذع ، فانه يرى بنظره اثاقب عيوب مواطنيه . وجد اكثرهم ، حتى الادباء ، غير متضلعين من لغة الضاد ، التي شُغف بحبها وفُتِن بمحاسنها منذ صباه ، فغيرهم بذلك في « لسان حال اللغة العربية » ، حيث تصيح بهم هي ذاتها :

ارى كل يوم في الجرائد مزلقاً من القبر يُدني بغير اناة...
 ايجرنني قوم - عفا الله عنهم - الى لغة لم تتصل برؤاة ؟
 سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فترات ،
 فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الالوان مختلفات !
 في « الزوجية » يرثي لتفاقم انتشار الخلاعة بين شبان القاهرة ، الغادين
 والرائحين في حي الازبكية المشهور بكثرة مواخيرهم :

افي الازبكية مثنوى البنين ، وبين المساجد مثنوى الاب ؟
 يعيب المصريين بتوانيتهم في الاشغال وبانقسامهم في السياسة ، فينذرهم
 في « آلامنا وآمالنا » اندار الحزم والرشد :

هلاك الفرد منشأ توات ، وموت الشعب منشأ انقسام ؛
 وإنّا قد ونيّا وانقسمنا ، فلا سعي هناك ولا وئام ،
 فساء مقامنا في ارض مصر وطاب لغيرنا فيها المقام !
 في « الامتيازات » يستهزى بفرط هيامهم في ظواهر العظمة مع قعود
 اكثرهم عن السعي وراء المآثر المؤدية اليها ، وقد بالغ في تعبيره مبالغة واضحة :

وهل في مصر مفخرة سوى الالقاب والرتب ؟ ...
 اروني نصف مخترع ، اروني رُبع محتسب ...
 وماذا في مدارسكم من التعليم والكتب ؟
 وماذا في مساجدكم من التبيان والخطب ؟
 وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكذب ؟

في مقدمة العاهات المصرية التي وصف لها العلاج الشافي ، حرمان
 البنات نعمة التعليم والتهذيب ؛ ولله دره من قائل :
 الام مدرسة اذا اعدتّها ، اعددت شعباً طيّب الاعراق .

(١) النقط الثلاث تدل في كل هذا الكتاب على ضربنا صفحاً عن بعض ما يلي ، لكونه
 اقل دلالة على ما نريد اثباته .

لم يكتف بتجريض الاغنياء على بذل اموالهم عند حدوث التكبكات الكبرى ، كما فعل في « حريق ميت غمر » ، بل قد رأى في الفقر المدقع الضارب اطنابه بين طبقات الشعب السفلى ، وباءً يهدد كيانه ، فاهاب بارباب السلطة في « غلاء الاسعار » :

ايها المصلحون ، اصلحتم الارض وبشتم عن النفوس نياماً ؛
اصلحوا انفساً اضر بها الفقر واحيا بموتها الآثاماً !
من جهة اخرى لاحظ غرق ثروات فاحشة في مضاربات المصفق فقال :
مضاربات هي المنايا ، ورسلها احرف البروق ! ...
قد اتلفت انفس البرايا باسمهم الغدر والعقوق .
تلك نموذجات من اهم مواقف شاعر النيل بازاء شرور بلاده الناجمة عن
قائص ابنائها . على ان نظره لم ينحصر في حدود اصلاح المصريين ،
بل تعداها الى ابعد الآفاق ، مهيماً لقريحته الخصبية مادة شعرية جديدة ،
يستخرج منها عبراً بليغة لمواطنيه . يجدر بنا ان ننوه ، في هذا الميدان ،
بشجاعته في انتقاد سياسة الانكليز الاستثمارية لوطنه . في « وداع اللورد
كرومر » - وهو السفير البريطاني الذي بقيت مصر سنين عديدة رهن
اشارته الآمرة النهائية - رماه هو وابناء امته بهذا الوم العنيف ، لعينهم
بمصلح المصريين الحيوية :

وانك اخصبت البلاد تعمداً	واجدبت في مصر العقول تعمداً !
قضيت على ام اللغات ؛ وانه	قضاء علينا او سبيل الى الردى !
ووافيت والقبطران في ظل راية ،	فما زلت بالسودان حتى تمردا ،
فطاح كما طاحت مصووع ^{٢*} بعده	وضاعت مساعينا باطماعكم سدى ...
وحاولت اعطاء الغريب مكانةً	تجر علينا الويل والذل سرمداً !

(١) اسم مدينة صغيرة في الدلتا ، نفي القسم الشمالي من القطر المصري .

(٢) ميناء صغير تابع لاريترية (Érythrée) في جزيرة من جزائر البحر الاحمر .

في هذه القصيدة ذاتها لم يخش ان يرشق ذلك الجبار بسهم
السخرية هاتفاً :

فليم لا نرى الاهرام ، يا نيل ، مُيِّدًا وفرعون عن واديك مرتحلاً غدا ؟
قد وقف حصّة من شعره على توثيق علائق حسن البوار التي تربط
مواطنيه من عهد عهيد باهل لبنان وسورية . في « الامتان تتصاحفان » يصف
تلك الآصرة المتينة العرى ويقدم للعصري الداريّة ، القليل الجسارة
والمخاطرة ، مثال المهمة والاقدام في شخص المهاجر اللبناني :

يمضي ولا حيلة الا عزيمته ، وينثني وحملاه والمجد والذهب !
كذلك يصف اجمل مآثر الوطنية في « غادة اليابان » ؛ لامها لائم على
قصدها خوض المعارك ، وهي تجهل فن اللقاء القذائف ، فاجابته مفحمةً :
انا ان لم احسن الرمي ولم تستطع كفّاسي تقليب الظبّي ،
اخدم الجرحى واقضي حقهم واواسي في الوغى من ثكبا .
هكذا الميكادُ قد علّمنا ان نرى الاوطان امّا وابا ؛
ملك يكفيك منه انه انهض الشرق فبرز المغرباً !

« في فتنة الاستانة » من ابداع قصائده ؛ يشمت فيها بانهيار صرح عز
الطاغية عبد الحميد ، مقارناً اياه بافول نجم سعد نابوليون الاول ، فيخاطب
ذلك السلطان قائلاً :

مُشبع الحوت من لحوم البرايا ومُجيع الجنود تحت البنود ،
كنت ابكي بالامس منك ، فما لي بت ابكي عليك ، عبد الحميد ؟
فرح المسامون قبل النصارى فيك ، قبل الدروز ، قبل اليهود !
الحق يقال ؛ قد اجاد حافظ في وصف الاحوال النفسية ، على انه دون
ذلك الاتقان بمراحل في وصف الحوادث ، الذي كثر ما يشينه التصنع
والمبالغة ، مثلاً في « زلازل ايطالية » ، « المارتينيك » وقصيدته على الحرب
الروسية اليابانية . نعرف مع ذلك بان قصيدته « الكساء » و « دولة السيف »

ودولة المدفع » لا بأس بهما .

قد فرغنا من الكلام على اهم المواضع التي عالجها حافظ ، وهي وحدها كافية لاحصائه بين نوابغ شعرائنا العصريين ، الذين مهدوا سبلاً جديدة رجة لقريضنا الناهض . اما تعبير شاعر النيل فهو كامل العروبة المحضة والوضوح ، لا تجد فيه ادنى اثر للعجمة واللكنة ولا للغموض والتعقيد . مع ذلك لا مندوحة لنا عن التصريح بان فيه عدة مغامز صادرة من فرط تقيده بأساليب مشاهير اسلافه الشعراء ، من دون التمييز الكافي بين غثها وسمينها . اخذ عن طائفة منهم التصنع في الوصف ، فقال في قصيدته على عودة الشيخ محمد عبده من سفر ، ان البحر

يتجلى كأنه صُحف الابرار منشورةً بيوم المآب ،
وضياء الامام يوضح للرُّبَّان سبيل النجاة فوق العباب .

يقول عن الليل البهيم :

كأن دياجيه صحيفة ملحد ، تُخط بها اعماله ومثالبه !
يسمي الحجرة « زوجة ابن المزن » ويقول لها « عسروك من خدي
سهيل خلصة » ، ويعلم المطلعون ان سهيلاً نجم ساطع .
فضلاً عن ذلك التصنع نصطدم احياناً كثيرة بالمبالغة الفاحشة ، كقوله
في شخص شديد الاسى :

..... اذا تنفس عادت خمة الليل جمة من ضرام ،
واذا أن كاد ينصدع الافق وتعتل دورة الاجرام .
قال عن اذيال ثياب السلطان عبد الحميد : « لها فوق اجرام السموات
مسحب » . يقضي العجب من تقدم العلوم والاختراعات في عصرنا فيقول عنه :
وان شاء زعزع شُم الجبال ، فخرت لاقدامه سُبُجُدا .
مراثي حافظ على الاخص مشحونة بامثال تلك المبالغات المضحكة :
ينبئنا في رثاء عثمان بك السيد اباطله ان الشمس ودت

... لو انها من افقها هبطت وآثرت معه سكنى الفقير والبيد .
يُفقد الوله رشدَه في ندبه للشيخ محمد عبده ، فيصيح يائساً :
سلام على الاسلام بعد محمد ، سلام على ايامه النضرات ،
على الدين والدنيا ، على العلم والحجى ، على البر والتقوى ، على الحسنات !
بجانب التصنع والمبالغة - وكلاهما غلو ، الاول في الكيفية والثاني في
الكمية - نرى في شاعر النيل عيب الافراط في الخيالات المبتذلة ، وهي اشبه
بزهور كانت نضيرة عند قطفها ، فاذبلها تداول الايدي المتواصل . حافظ
ضعيف الابتكار في هذا الميدان ، وما شذ من شعره عن ذلك الحكم قليل لا
يُعتد به . من اجل تلك الفلتات القلمية قوله عن جرائد بلاده :
كانت صماماً للنفوس اذا غلت فيها الهموم ، فوشكت ان ترهقا .
وفي شأن التصنيق على النساء المسلمات بحبسهن بين جدران مساكنهن :
ليست نساؤكم حُلَى وجواهرأ خوف الضياع تصان في الاحقاق !
وفي وصف الهممة القمساء التي امتاز بها اهل الولايات المتحدة :
ووثبتتم الى الحياة وثوبأ ، ونفضتم عنكم تراب القبور .
نواخذ ايضاً شاعر النيل على تعلقه المفرط بمئات من الالفاظ المماتة ،
وان لم يحرص عليها حرص بعض معاصريه كاحمد شوقي ومعروف الرصافي .
قال خليل مطران عن حافظ ، بعدما عاشره دهرأ وتقصى مكنونات
شاعريته : « له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ؛ وفي اقصى ضميره يؤثر
« البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ؛ فاذا فاته الابتكار حيناً في التصور ، لم يفته
في التصوير . » نشاطر شاعر القطرين رأيه هذا اذا كان قد عنى باجادة اللفظ
كالمعروبة والوضوح ، وباجادة المعنى الابتكار في اساليب التعبير ، ولا سيما
في الخيالات . اما اذا قصد باللفظ كل صفات التعبير ، وبالمعنى مجموع المواد
الشعرية التي عاجلها حافظ ، فاننا نخالف رأيه كل المخالفة ، مصرحين بان
شاعرية عشيره اسمى بمعانيها منها بلباني ، وان لم تكن هذه عارية عن

بعض المزايا الفريدة ، ولا سيما العروبة والانسجام والوضوح باسمى درجاتها .
على كل حال نرى ان اعظم مفاخر شاعر النيل انه ، بين شعراء جيلنا ، من
امهر الذين صوروا بالنظم احوال محيطهم السياسية والاخلاقية ، مسخرين
تلك الموهبة النادرة لخدمة وطنهم ، فجمعوا في شعرهم جمال فن هو امير الفنون
وجلال فضيلة من اسمى الفضائل .

احمد زكي ابو شادي

في « اطياف الربيع »

ابو شادي شاعر مصري شهير مولود سنة ١٨٩٢ . شغف بجمال
القريض منذ حداثته ، ولم يحلّ درسه الطب وتعمقه في البكتريولوجية دون
الاكباب المتواصل على النظم ، فنشر عدة دواوين اذاعت صيته في العالم
العربي ، فلقب بشاعر الشباب . سنة ١٩٣٢ انشأ مجلة « ابولو » الشهرية ،
المختصة بنشر انواع الشعر العصري والمباحث النثرية المتعلقة به ، وهي اول
مجلة على ذلك المنوال في الشرق العربي . قد اهدى لنا نسخة من ديوانه
« اطياف الربيع » المطبوع سنة ١٩٣٣ ، فرأينا ان نبدي ما انطوى عليه من
الحاسن والمساوى .

يتضح فوراً عند تصفح ذلك الديوان ان تسعة اعشاره نسيب . في عدة
قصائد يستمد الناظم موضوعه الغزلي من « الميثولوجية » ، كما في « زيوس
ويوروبا » ، « افروديت وادونيس » ، « بلوتو وبرسفون » . في قصائد اخرى
يتوخى وصف محاسن الطبيعة ، فلا تلبث ان تملي عليه ابيات النسيب ، كما
نرى في « رسالة الربيع » ، حيث يخاطب محبوبته مشيراً الى ذلك الفصل

الجميل وقائلاً عنه :

ولحنه متهللاً ، متوثباً ، فرأيتُه عرف الجمال لديك .
نلاحظ مثل ذلك الاستطراد في « زهر الليمون » وغيرها . مما يطول
تعداده . وإيم الحق لم نر لاحد شعرائنا العصريين ديواناً غائصاً في الغزل الى
هذا الحد الغريب ، ولا سيما في ذلك النوع من الغزل الشائن كل الشين
لسمعة صاحبه ، بل لمقام الشعر والفن ، فقد تجاوز حدود الدين والآداب .
ذلك ما نرعي الى اثباته باوضح البراهين ، منتهزين هذه الفرصة السانحة لبيان
الشطط الفاحش الذي يقع فيه الانسان ، ولو اديباً وشاعراً نابغة ، اذا ارخى
العنان لشهواته الجامحة .

ان غزل ابي شادي خلاعي في عدة قصائد ، ومن جملتها غير واحدة
يصف فيها حمام النساء في خليج ستانلي (Stanley) المجاور للاسكندرية ،
ولا سيما « شاطيء الاحلام » . نربأ بقلمنا ان يذكر شيئاً من تلك الابيات
القبیحة التي يندى لها خجلاً كل ابي لم يذل ماء وجهه . ولم يقف الناظم عند
ذلك الحد من التهتك والاستخاف بقرائه ، بل تعداه بادراجة في ديوانه عدة
صور لنساء عاريات ، مما لا تجيز الحكومات الاسلامية نشره في الصحف ؛
فبئس الشعر وبئست صورته ! لا يأنف ابو شادي من التصريح عشرات المرات
بان حب النساء ليس ديدنه فقط ، بل دينه وعبادته ؛ ولولا احترامنا القراء
لائيناهم من شعره بعدة امثلة على ذلك . يقول في مطلع « ساعة الاحياء » :
« الآن ارفع للجمال صلاتي . » يصيح بمعشوقته في « التصوف » :
« واليك انت تعبدي وسجودي . » بالمعنى الكفري عينه يهتف كالسكران
الفاقد رشده « خمر الحب ايماني » ؛ وكان الاخرى به الا يدنس اسم الحب
- وهو من اشرف الاسماء - باطلاقة على الهوى الحيواني المحض . كثيراً ما
يدنس ايضاً كلمة « معبد » باستعمالها للدلالة على مراتع عمارته ؛ كفت شاهداً
على ذلك « ليلة في المعبد » الحاوية وصفاً بذئساً يفهم اللبيب موضوعه . اما

الدرجة القصوى التي تمتد اليها خلاعته الوقحة فهي تشبيهه المحبوبة بخالقه ؛
عن وجل عن تلك المقارنة الكفرية . اليكم بيتاً من « الفنان » :

واستوحى معانيها كأنني ناظرٌ ربي .

خلاصة القول ان ابا شادي يعد المرأة خيره الاسمى والهبة الحقيقي ، فلا
يخجل من المجاهرة المكررة الى درجة اخبجار القاريء بتلك الزندقة . هاكم
ما صرح به في « امرأة الابد » :

المرأة الدنيا بحال واحد ، في صورة الاحسان والحرمان ؛

اخذت عن الابد القصي الوهة وتعيش مفصحة عن الديان .

بل يقول في « عودة طائر » ، حيث يصف ليلة رقص ، انه قد اخذ
من جمال بنت حواء تأله ؛ ينادي تلك الليلة هذا النداء الغريب بل الجنوني :

طولي الى الابد القصي ، في روعة لا تنتهي ؛

قد اسلس الحسن العصي ، فاخذت منه تألهي .

لا بدع بعد تلك المجاهرات باعلانه ان المرأة هي منبع الفن ، بل ان ما
حرمه الله من الفواحش على عامة الناس هو محلل لخاصتهم من ارباب الفن ؛
قد فاه بذلك المهتر الهاتر في قصيدته « الى افروديت » :

كل الحرام حلال للفنون ؛ فما غير الفنون له في الدهر سلطان .

ثم يرخص لبني آدم قاطبة في ارواء عطشهم الى المذات ، فينشد
في « العناق » :

لو انهم عرفوا الحياة وسرها ، عبثوا ، فما في الحب غير طهور .

مع تلك الآراء الاباحية المزدولة لا يملك ابو شادي ذاته عن الاقرار
احياناً بجنون خلاعته ؛ « ليلة في معبد » تحتوي ذلك الاعتراف الذليل :

فلمّا ضمنا الحب - وكلم للحب إعجاز ! -

طرحنا العقل حين القلب وثاب ونهّاز .

بل ييوح لنا مئة مرة بان شهوة الجسد قد افضت به الى اوخم العواقب ؛

وفي ذلك عبرة لمن يعتبر . في « الدموع » يصور لنا فؤاده الرازح تحت
اعباء الكتابة :

قلب يلوح كأنه في انسه ، وهو المحجَّب مأتَم في عرسه !
في « الغروب الثائر » يصيح لدى مشهد الشمس الدامية على الافق :
هذي دمائي استنزفت وعلى السماء حدادي . . .
ثم يقول في القصيدة ذاتها :

من ظن اني مُسعد
وفي « نشيد الالم » :

عصارة روعي اغاني العذاب
بشعري ، وكم في البكاء ابتسم .
وفي « نسيم الصباح » :

عانيت في عمري الشجا اضعاف ما غشيت في غزلي وملاء مراحي .
اني الاسير وان عُدت محرراً في عالم خالفت دون فلاح ؛
هذي حياتي كلها تعب على تعب واتراح على اتراح !
يكرر تلك النجوى في « معابد الحب » :

معابد الحب ، ما لي كلما ظفرت روعي بحظ ارى صبحي من الظلم؟
« بين المروج » صيخة من اعلى صيحات يأسه المبيد :

والحب يعلم انني في غمرة وعواصف من قسوة الايام ،
احيا باشجان تُميد رواسيا وثميت كل رجائي البسام !
نجد مثل ذلك الحزن الشديد والقنوط العقيم في « حزن الفجر »
و « الفرائس الهائم » وغيرها ، مما يحول ضيق المقام دون تفصيله . في « نور
ولهب » يُسر الينا بان انواع ملاذ الارض عاجزة كل العجز عن اشباع نفسه ،
وفي « راهب الدير » يغبط الانسان الذي قاده ذلك الجوع الاليم الى التجرد
عن حطام الدنيا واستقاء السعادة الحقيقية من منهلها الوحيد ، وهو حب
الله والاكباب على خدمته . لعل تلك القصيدة درة ديوانه اليتيمة ، لا ند لها

فيه ، فلا يسعنا الاحجام عن ذكر عدة ابيات منها :

لمحته رانياً شطر السماء ، كما	لمحته بشعور اليأس يرمقي ؛
لمحته وانا في الاسر اغبطه ؛	فهل ترى هو بين الاسر يغبطني ؟
نعمى التجرد من لي ان الود بها ،	فكم بها من امان لامرئ فطن !
سئمت كل غرور استعز به ،	واشتقت ما يشتهي الصوفي من زمني !
ياراهب الدير ، هذي وفتني حزناً	ارنو الى ملكوت الله حيرانا ،
وانت ترقب مثلي عالماً عجيباً ؛	شتان بين مدى اللحظين ، شتان !
اني لاحمل اعباءً منوعةً ،	واحمل الهم كفراناً وايماناً ؛
فهل تحملت مثلي للشجبا المأ ،	وهل تعذبت من اتراح دنيانا ؟
ياراهب الدير ، حولي للحياة مئى	وكم حيمالي من اللذات الوانا !
زهديتها ، وانا القاسي على املي ،	وكم يُميت ويحيي الخطَ فتان !
وصار كل رجائي في الحياة غنى	عن الحياة ومن عزوا ومن هانوا !

ان الايمان العملي بوجود الله تعالى وبروحانية النفس البشرية يكبح جماح الشهوات ، فان الامرين على طرفي تقيض . فمن رذل الشريعة الالهية واطلق العنان للغرائز العمياء ، يشعر شعوراً بديهاً بضرورة المطابقة بين امياله ونظريته في شأن الحياة وغايتها ، فلا بدع بان يتدهور في هاوية المادية المطلقة ؛ ذلك ما نلاحظه بكل الجلاء في ديوان ابي شادي . بيد ان العجب العجيب في شخص مسلم مثله ، يدعي الثقافة العالية ، انه لا يأنف من المجاهرة بتلك المادية ، مع ان محور الدين الاسلامي القول بوحدانية الله وبخلود النفس . قصيدته « امنا الارض » تشهد بمجرد عنوانها انه ينتمي بكل كيانه الى التراب . بل انه لا يستحي من الاقرار بانه يعبد الارض التي الهها بجنونه الفاحش ، فيصيح بها :

القفاك في كنف السكوت عبادةً واقبل التراب الذي يحييني !

يصرح في « ماتم الدنيا » بان الموت غايتنا الاخيرة :

اتيناها ضيوفاً ثم جادت لنا بالموت من دون السؤال ؛
فدعني منصفاً ، دعني اناجي مفاتها إذن قبل ارتحال .

ييوح بتلك الدهرية ذاتها في « اليد البخيلة » :

لا اكذب الله ، اني لن اعيش سدى حتى ارى في الجنان الحجر والخورا ؛
بل اوثر العيش في دنياي محتملاً اذى لها ، ان غنمت الحب موفورا .
لا يخشى زوال الثرى حول قبره ، زاعماً ان مرقدہ الاخير ينتقل الى
غمار البحر ، وقد اماط لنا الستار عن ذلك السر الغامض ، الذي اهتدى هو
وحده اليه ، في « الحياة الكونية » :

نمضي الى حضن المحيط اذا غدا عيش الثرى بدداً او اندثر الثرى .
من المضحكات المبكيات انه ، بعد لفظه تلك الخزعبلات بلهجة
الفيلسوف المتعمق في كنه الحياة ، يدعي هذا الادعاء المتعجرف :
ومن يحيا حياة العشب لم يظفر باغوارى .

فرغنا الآن من تحليل غزل ابي شادي المادي الخلاعي ، المستغرق نحو
تسعة اعشار ديوانه ، وقد صبغه بصبغته الشائنة . اما سائر انواع الشعر فلم
يعالجها الا ندرۃ . الوصف عنده دون الجيد ، فانه اغنى بالعواطف منه
بالخيالات ، وغير مبني على المشاهدة ، مع كونها اساسه الوحيد . نجد ذلك
الغيب الكبير في قصيدته على بور سعيد والمنصورة ، ثم في « ميلاد الربيع »
و « المعبد المعتزل » . مع ذلك قد اجاد الوصف مراراً قليلة تكاد تُعد على
الاصابع . في « الحُرّاس » - وهي كناية عن سور من الاشجار المحيطة
بروضة - يقول لها في الدور الاخير :

وبقيت انت اسيرةً للارض ، تحمين النبات
من كل عصف للرياح وكل سهم للضياء ،
وتُعرضين جمالك المأمول في وجه الممات ،
يا للضحية ! هكذا الدنيا تهاويل الفناء !

نجد ايضاً بعض الابيات الوصفية الجميلة في « الشمس الغريقة » :
وقفنا على اليم عند الغروب ، وكم في الغروب انسى للقلوب !
فاسمعنا الماء صوت الشجي ، ورف على النور روح الكئيب ،
وقد عثرت في خطوط الضياء فتاة السماء بموج عجيب ،
فاشعلت البحر من سحرها ؛ وما سحرها غير روح الاديب .
في هذا الشطر الاخير تصنع واضح يزيل تلاحم المعنى . يرى القراء
في المثليين المذكورين تأييداً لصحة رأينا ان العاطفة غالبية على التصوير
المحض في وصف ابي شادي ؛ ولا بأس بذلك على شرط الاجادة .
وصف النفس غير الغزلي في حكم الممدوم لفرط ندوره . خير نموذج له
« ايليا وصموئيل » التي ختمها ابو شادي بهذه الابيات الحسنة ، الشافة عن
شعور نبيل قلما نجده في « اطياف الربيع » :
رب طفل رعته ام حنون واب في كفاح عيش شقي ،
وتولاه هادياً من تولى وحباه بعطفه الابوي ،
واثاروا فيه الرجولة والنبيل وصدق التجمل الروحي ،
صيرته الاقدار من قادة الفكر نبياً او في مقام النبي .
بجانب النزر اليسير من الشعر الوصفي نعثر على بعض القصائد الوطنية
الحارة ، التي نراها حلية في ديوان قد تعطل بسبب استهتار صاحبه وماديته
الوخة . من اجودها « منازل النيل » ؛ دونكم مطلعها الشائق وما يليه :
منازل النيل ، من اعطى الغريب مدي هذي العهود ، فاحياه وافناني ؟
انا ابن مصر ، انا الباكي للوعتها ، انا المخلد نجواها بالحاني ؛
انا الذي اتناسى ما اتوء به لكي اعبر عنها ملء احزاني ،
فان افراحها ليست سوى فرحي وان اشجانها همي واشجانني !
في « اليأس الساحر » يرثي لعدم اتحاد مواطنيه فيقول :
تخذوا التنابد ديدناً وتفرقوا جرحي التخاذل تحت جيش ظافر ،

وتقاذفوا نهم الهوان كأنما غنموا اذا اقتسموا هوان الخاسر .
من مبلغ احداثهم وشيوخهم ان التناحر مأرب للناسخ ؟
نجد ذلك المعنى عينه في « سمسرة الهوان » . فضلاً عن المنظومات
الوطنية السابق ذكرها نجد عدة ابیات مطربة في « بلادي » و « سباق
« الاموات » و « عيد الوطن الاقتصادي » .

تعتبرنا اشد دهشة في تصفح هذا الديوان الفائحة منه اكره روائع
التهتك والدهرية ، اذ يقع نظرنا على « صلاة الصباح » ، وهي القصيدة الدينية
الوحيدة التي بين دفتيه . يا المفاجأة ! ايصلي ابو شادي ؟ ومن ترى الاله
الذي يصعد الى عرشه الاسمى بخور دعائه وسجوده ، بعد ان افرغ جعبته
صبرنا بتكريره المسمم انه ابن الارض وان المرأة الهه الوحيد ؟ لعمري ان
التفسير السديد لذلك التناقض الواضح ان الشاعر يتكلف المادية الصرفة ،
لا عن ايقان مدعوم بالحجج الدامغة ، بل لتبرير انهاكه في المعاصي . فمتى
صحا من سكرته وتحررت نفسه من ربة شهواته ، استعداد رشده المفقود
واعترف بوجود الهه الحقيقي وخالقه العظيم القدير اعترف كل انسان لم
يُمس بالجنون . « صلاة الصباح » وليدة تلك اليقظة المباركة ، وفيها من سمو
جمال العواطف والخيالات ما يكاد يشفع بعض الشفاعة في مساوىء الديوان
العديدة ؛ فلا بد ان ننصف ناظمها بادراجها هنا بحذافيرها :

غردي ، يا طيور ؛ ان صلاتي لاهي من نفس ينبوع لحنك .
استبين الالحان كالجداول الجاري ؛ فهل كان في صلاة بفنك ؟
ما احب الجمال في وقفتي هذي امام الغصون ، والفجر راني !
كل شيء عليه من مسحة الخالق حُسن منوع الاحسان !
ما احب الشروق ، والشمس ما زالت كنعسانة ، تعاف الصباح ،
ثم ترمي تقاها في شعاع وشعاع وتستطيب المراح ؛
فاذا بالوجود برنو اليها في اغتباط ، كما رنت للوجود ،

واذا بالنفوس تخشع للخالق من وحي نوره الممدود !
اما المدح والثناء فلا يمثل كلاً منهما في « اطياف الربيع » سوى
قصيدة واحدة ، مما يستحق له الناظم اوفر الثناء .

نكتفي بذلك القدر من النقد لمعاني الديوان ، فنضيف الآن بعض
الملاحظات الموجزة في شأن كيفية التعبير . لغة ابي شادي صحيحة في الغالب ،
يشوبها اللحن بين حين وآخر . هي على غاية الانسجام ، لكنه مشوه في عدة
قصائد بالابهام والغموض . الخيالات المبتكرة كثيرة ، بيد ان معظمها لا
يتجاوز الحد الاوسط ، والتصنع الذميم يدب في ابیات عديدة : في « الشرق
المهادى » بزعم الناظم ان جميع ما نراه في الفجر امم

اشدت دعوة الصباح ، فلبى ذلك الصبح من اسار الليالي .
نتي على ابي شادي للتجديد غير اليسير الذي احدثه في الاوزان
الشعرية . طوراً يقسم القصيدة الى ثلاثيات ، تتألف كل واحدة من ثلاثة
ابيات لها قافية مختصة بها ، وتارةً يتكرر اوزاناً جديدة بتفاعيلها ولا يجعل
كل بيت منها شطرين . مرةً يغير القافية بعد كل بيتين ، واخرى يقسم
القصيدة الى قسمين او اكثر ، على وزن واحد معروف ، بيد ان لكل قسم
قافيته ، مما يـُطرب الآذان .

يليق بنا في الختام ان نلخص رأينا في ديوان « اطياف الربيع » ،
فنتقول انه ، مع ما فيه من المحاسن الجزئية ، التي لا سبيل الى انكارها بدون
بخس الناظم حقه ، ديوان مشحون بالغزل الخلاعي وبالمزاعم المادية ، بعيد كل
البعد عن جوهر الشعر المحض ومراميه السامية .

معروف الرصافي

غني عن البيان ان الرصافي من اشهر شعراء العراق المعاصرين كالزهاوي ؛ له ديوان طُبع في بيروت سنة ١٩٣١ ، ينطوي على ٥١٤ صفحة كبيرة ، فهو من اغزر الدواوين مادةً ، وقد عني الناظم ، على غير عادة زملائه ، بتبويبه وفقاً لأنواع القصائد ، مما يسهل على الناقد تحليل ضروب المواضيع التي عالجها . يتضح اول وهلة انها ذات تنوع شديد ، يفوق ما نراه في اكثر الدواوين الحديثة . النوع الاول منها هو الفلسفي ، وقوامه البحث عن اصل الانسان ، ملك الكون الميولي ، وعن غايته القصوى . على ان فلسفة الرصافي في ذلك الشأن الخطير كلها ارتيابية ، ومن ثم سلبية ، لا تأنف من المجاهرة بجهلها التام لمعنى حياتنا الارضية . في قصيدته « من ابن الى ابن » يقول :

خرجتُ من ظلمة لآخرى ؛ فما امامي وما ورائي ؟
ما زلت من حيرة بامري معاتق اليأس والرجاء !
وفي « نحن على منطاد » :

لبقاء ثقلنا الارض في تسيارها ام ثقلنا لنفاد ؟
ثم يقسره الصديق على الاقرار بان شكه في اهم المسائل الحيوية شديد الايلام لعقله التواق الى معرفة الحقيقة ولقلبه الظامى الى السعادة الكاملة ، فيصيح في « كلمة معتبر » :

ونحن كالماء جرى نابغاً ، لكن علينا خفي المنبع . . .
كم نشرب الظن فلا نرتوي ، ونأكل الحسد فلا نشبع !
مثل كل الارتيابيين ينتحل المذهب المادي لكونه لا يحول ادنى حيولة دون قطف زهور هذه الحياة ، اطاهرة كانت ام مذنسة . لا يستحي البتة من اعلان ماديته الملتزمة بلثام شفاف من الظن ، في قصيدته « بين الروح

والجسد ، حيث يقول :

ولست اظن ان الروح تبقى اذا مُسحت من الجسد الرسوم .
ثم يزيد كفوفاً باندفاع منطقته الفائل ، الذي لا يقدر ان يُخرج من
تلك المقدمات الكاذبة سوى نتائج مماثلة لها ، فيصرح بان كل الاديان ليست
سوى اذليل من تلفيق بعض البشر المحتالين ، وقد ادعوا انها مُنزلة للتمويه
على السذج واضطرارهم الى قبولها ، فيقول محاولاً تبرير الحاداه انه ليس من
الذين يودون اخفاء الحقيقة - وكيف يؤكد معرفته اياها وهو
ارتياحي قُح ؟ -

ولا ممن يرى الاديان قامت بوحى مُنزل للانبياء ،
ولكن هن وضع وابتداع من العقلاء ارباب الدهاء ؛
ولست من الالى وهموا وقالوا بان الروح تخرج للساء .
من اراد شرب السم الزعاف ، فلا بدع بان يموت منتحراً . كذلك من
سم نفسه بتلك المادية المطلقة ، فهو يقتلها حتماً بحرمانها اكبر ملذات الحياة ،
فانها كلها روحية محضة ، بل دينية ، ناجمة عن اتحاد عقلنا بالله بواسطة
الايمان واتحاد قلبنا به على طريق المحبة العملية القائمة بحفظ وصاياه المقدسة .
توهم الرصافي ، كآلاف من امثاله الماديين المتحذلقين ، انه يورد نفسه موارد
السعادة الكبرى باعتاقها من نير الدين ، فعاد بخُفي حنين ، يائساً متشائماً ،
لا يرى عيشته الفارغة الاثيمة جديرة بان تُعاش ؛ وقد عبّر مراراً عن
خيبته المرة في ديوانه :

فلو كنت في هذا الوجود مخيراً وفي عدي ، لاخترته غير فادم ...
اري الخير في الاحياء ومض سحابة بدا خُلباً ، والشر ضربة لازم !
في النهاية تضيق مذاهبه الى حد كونه يأبى الانتساب الى البشر ،
فيقول لقارئة :
دع الاناسي وانسني لغيرهم ؛ ان شئت للشاء ، او ان شئت للبقر !

زه ، زه ! بل بنُست المادية الكافرة ، التي اعمت بصيرته عن فهم سمو مقامه الانساني ، فجعلته يتمنى الانحطاط الى الحيوانية !

يضيق نفس المطالع بين تلك القصائد المادية ، وان لم تكن عديدة ، فيتنفس الصعداء اذ يصل الى النوع الثاني من شعر الرصافي ، وهو الاجتماعي . هنا يبدي الناظم شفقه الرقيقة على المظلومين او المهمكين من اخوته البشر ، وقد خص بحصة وافرة منها النساء المسلمات ، فوقف على معالجة ادوائهن باباً كاملاً من ديوانه ، « النساءيات » . يرى - ونعم الرأي - ان المرأة هي اساس رقي المجتمع :

ولم ار للخلائق من محل يهذبها كحضن الامهات !
ثم يصرح بان استعبادها يؤول حتماً الى نفخ روح العبودية والذل في صدور ابنائها :

الم ترهم امسوا عبيداً لانهم على الذل شبّوا في حجور اماء ،
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء ؟
من ثم يطلب منح المرأة كل انواع الحرية المعقولة ، ولا سيما حرية التعلم والتهذب ، فينشدها زائلاً بمن يعدون الجهل حرزاً حريزاً لفضيلتها :
قد جعلوا الجهل صواناً لها من كل ما يدعو الى المأثمه .
يتهمكم ايضاً على الذين يعزون الى البرقع تلك القوة الواقية :
الوجه ان كان الحياء نقابه ، اغنى فتاة الحي ان تتنقبا .
يطلب اطلاق الحرية للمرأة في اختيار رفيق حياتها ، الامر الذي لا يمكن ان يتم بسوى معاشرته وقتاً كافياً ، لمعرفة خله وخمره :
قلب الفتاة اجل من ان يشتري بالمال ، لكن بالحبة يُجتنبي . . .
واذا الزواج جرى بغير تعارف وتحاسب ، فالتخير ان تترها .
يرفع صوته محتجاً على عادة الطلاق ، التي جعلت المرأة العوبة بين يدي زوجها ، يلتذ بها حيناً ثم يبنذها للتنعم بغيرها :

وهى حبل الزواج ورق حتى يكاد ، اذا نفخت له ، يذوب .
فضلاً عن اشفاقه على المرأة التاسعة ، يُفيض الرصافي حنانه على الفقراء
ولا سيما اليتامى ، فقد وقف على هؤلاء عدة قصائد : « ام اليتيم » ، « اليتيم
في العيد » ، « اليتيم المخدوع » ، « الارملة المرضعة » ، « من ويلات الحرب » .
يرثي لتيتم آلاف من الاطفال الارمن الابرياء بذبح الاتراك لآبائهم ، فيقبّح
فظائع اولئك السفاحين للدماء الزكية :

لئن ملأوا الارض الفضاء جراثيماً ، فهم اجرموا والدين ليس بمجرم !
يصف شقاء الفقراء ويشير الرحمة نحوهم في « الصيف » و « الشتاء » .
في « الفقر والسقام » يصور لنا اشد احوال الفاقة ، وفي آخرها يصيح
بالاغنياء القساء القلوب :

كم بذلتم اموالكم في الملاهي ، وركبتم بها متون السفاه ،
وبخلتم منها بحق الله ! ايها الموسرون ، بعض انتباه ؛
افتدرون انكم في تباب ؟

لا يكتفي بابداء شفقتة على النساء والفقراء ، مع حث مواطنيه على
اصلاح احوالهم ، بل يرمي في القسم الثالث من قصائده الاجتماعية الى
معالجة بعض عيوب محيطه العراقي . في « العادات قاهرة » يوضح وخامة
عواقب السكر وفرط شرب التبغ ، فيقول :
ان الدخان لثان في البلاد ، اذا ما عُدّت الحجر اولى في البليات !

قد لاحظ ان كثيراً من الشرقيين لا يحسنون استثمار مواهبهم
العقلية ، فيوعز الى « المتعلم » ان يكون اختصاصياً في ما يختاره من انواع
العلوم والمهن . في « الفنون الجميلة » يحض الشرقيين على إحلالها من
حياتهم القومية المحل السامي اللائق بها ، مبيناً شدة تأثيرها في تجميل معيشتنا
وتسكين اوجاعنا في منقى الارض :

ان الذي جعل الحياة رواعداً ، جعل الفنون من الحياة بروقا .

في « رقية الصريع » يثور ثأره على الحكومة التركية البائدة :
اضحت مناصبها تباع وتشتري ، فعدت تفوؤس للغني الاجهل ؛
تُعطى مؤجلة لمن يبتاعها ، ومتى انقضى الاجل المسمى يُعزل ،
فيروح يشري ثانياً ، وبما ارتشى قد عاد من اهل الثراء الاجزل .
يوجه النصح الرشيد « الى المتقاعدين من ضباط الجيش » ، محذراً اياهم
من شرور البطالة :

ان الحياة ليقظة فعالة ، فالراقد الكسلان فيها بائدٌ . . .
في الحرب طاب لكم جلاد ، فلتطب في السلم اعمال لكم ومقاصد .
« على الخوان » فيها وصف دقيق للشريه وحثه على القناعة :
فداو سقام جوعك عن كفاف ، فاكثار الدواء هو السقام .
النوع الثالث من قصائد الرصافي هو الوطني ، وقد عالج قبل نيل بلاده
استقلالها السياسي . في « تنبيه النيام » يتشكى من جور الحكومة التركية ،
فيصيح غاضباً عليها وعلى جمود رعاياها العراقيين :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها ؛
واعجب من ذا انهم يرهبونها ، واموالها منهم ومنهم جنودها ؛
في « سوء المنقلب » مقابلة بين عز بغداد القديم وانحطاطها على عهد
الأتراك ؛ نجد ايضاً مثل ذلك في « ايقاظ الرقود » . « في سبيل الوطنية »
نداء لتعزيز الصناعة العراقية ، تمهيداً للطريق المؤدي الى الاستقلال :
افما تري اهل البلاد تقيدوا للغرب من حاجاتهم بقيود ؟
« في سبيل الوطن » دعوة الى اتحاد النصاري والمسلمين في حب الوطن :
اذا جمعتنا وحدة وطنية ، فماذا علينا ان تعدد اديان ؟
حين اعلان الدستور التركي الذي افسح للرعايا المحل الجدير بهم في
سياسة بلادهم ، عبّر الرصافي عن شدة ابتهاجه لذلك الحادث الخطير في قصيدته
« بعد الدستور » . تلك الوطنية المضطربة قد اسمعنا اجمل الحانها في « النشيد

الوطني : اليكم نموذجاً من أجمل أبياته :

نحن خواضو غمار الموت ، كشافو المحن ؛

ما لنا غير اكتساء العز او لبس الكفن ؛

نبذل الارواح ، نفديها لاهياء الوطن ؛

هل سوي الارواح للاوطان في الدنيا ثمن ؟

يا ضلال الالى لم يكونوا القدى ! ان نمت نحن ، فلتحي اوطاننا !

النوع الرابع من شعر الرصافي هو الوصفي ، على انه قلما يجيد معالجته .
احياناً يشبه الحسيات بالمجردات ، مما يعاكس اصول الادب الراقي ؛ من
امثال ذلك قوله :

ان الزهور تكنهن براعم مثل العلوم تجنهن صدور .
كثيراً ما يشين وصفه التصنع المفرط ، مثلاً في تصويره هذا
للسمسم الغاربة :

تهتز بين يد المغيب كأنها صب تململ في الفراش عليلاً .
او في قوله عن الراقصة :

بسمت كوكباً ومرت نسيماً وشدت بلبلاً وفاهت خطيباً .
ربما بلغ اقصى حدود فساد الذوق بقوله على قصر التهمته النار :
يا ايها القصر ، مذامست محترقاً ، ابكيت في البحر اسماكاً وحياتنا .
نجد مثل ذلك التكلف القبيح في « الساعة » ، « لبنان » ، « ذكرى
لبنان » ، « وقفة في الروض » ، « الحرب في البحر » ، « في القطار » .
اجود قصائده الوصفية « الشتاء » ، « في ملعب كرة القدم » ، « حبذا النوم » ،
« الشارع الكبير في بغداد » حيث يقول :

هو ان رُش جاش وحلاً ؛ وإلا جاش نقماً على الوجوه مثاراً .
النوع الخامس في ديوان الرصافي هو التاريخي ، بيد ان مادته قليلة ،
تكاد تنحصر في خمس قصائد ، اجملها « هلاكو والمستعصم » ، « في

سلانيك » ، ولا سيما « وقفة عند يلدز » حيث يصف لنا ابداع الوصف
سقوط الطاغية عبد الحميد ، فيصيح بقصره المقفر :

كنت مأوى العلى ، مثار الدنيا ، مهبط العز ، مصدر الازلال !
كنت جباً ، واي جب عميق ، بالغا للنفوس والاموال !
نرجح ان تلك القصيدة هي الدرة اليتيمة في ديوانه .

النوع السادس من شعره هو السياسي الممثل في نحو ثلاثين قصيدة ،
جمعها النازم في باب خاص ، على ان كثيراً منها لا يحتوي تفصيل الحوادث
السياسية ، بل تلميحاً سريعاً مبهماً اليها ، او مجرد التشكي من سوء الاحوال .
قد وجدنا بينها ما ليس فيه ادنى علاقة بالسياسة ، مثل « العلم والعلم »
و « في المدرسة الحربية » . من اهم القصائد السياسية المحضة « ولسن بين
القول والفعل » ، « الى بطل الشرق الاكبر » (يعني مصطفى كمال اتاتورك) ،
« الوطن والجهاد » حيث ينحي باللائمة على سلطان مصر حسين كامل ،
لكونه اتفق مع الانكليز لمقاومة تركية . في عدة قصائد من هذه الفئة يطعن
بلهجة عنيفة في السياسة الاستعمارية البريطانية في العراق والهند ، والايطالية
في طرابلس الغرب .

اذا القينا نظرة عامة على معاني ديوانه ، وجدنا فيها تنوعاً غير يسير ،
على ان آراءه الفلسفية مادية محضة ووصفه كثير التصنع . الخلاصة ان اجود
شعره هو الاجتماعي ، الصادر معظمه عن شفقته الحارة النبيلة على المنكودي
الحظ في محيطه ، ولا سيما النساء المسلمات والفقراء . اما تعبيره فهو متماز
بعروبة محضة ، قلما يدانها مدان بين المعاصرين ، تدل على كمال تضلعه من
اوضاع العربية وسهولة تصرفه فيها . بيد اننا نلومه اشد اللوم على فرط
استعماله الالفاظ المماتة الخشنة ، وقد اضطر الى تفسيرها في حواش كثيرة
تضخم ديوانه بدون ادنى فائدة ، مضيعة اليه شبه قاموس من مئات الكلمات
المهجورة ، التي كان الاحرى به ان يتركها نسياً منسياً من ان يحييي رملها .

فضلاً عن ذلك العيب نرى الشاعر العراقي كثير الابتذال في خيالاته ؛ واذا حاول الابتكار ، تدهور في فساد الذوق ؛ مثال ذلك قوله في وصف بوارج الروس :

مذبذبوها لهم كنيسة حرب ، اتخذت كل مدفع ناقوسا .

وفي وصف مصائبه الفادحة وقوة جلده بازائها :

كم اغرقتني الليالي في مصائبها ، فعمت فيهن من صبري كدلفين .

وفي حث مواطنيه على طلب العلم :

سيروا الى العلم فيها سير معترم ، ثم اركبوا الليل في تحصيله جملاً .

اذا تجنب السقوط في هوة فساد الذوق الفاحش على الاخص في الشعر ،

فكثيراً ما يزل به قلمه الى المبالغة الطفلية المضحكة ، التي هي البيق بروايات

الف ليلة وليلة منها بديوان شاعر عصري . كفي شاهداً على ذلك قوله عن

الحرب انها « تدك السهل والجبل » ، وعن نهضة العرب في ماضي العصور ان

« الافلاك قد خضعت لها في دورانها » ، وعن نور ساطع « انه علم السحب

البرق » ، وعن صرح شاخ ان « الدهر يمد عنقه الى شرفته » .

يتضح من التحليلات السابقة ان شاعرية الرصافي هي دون شهرته

بمراحل ، في المواضيع والتعابير ، على ان ديوانه من خير النماذج على شعر

الدور الانتقالي ، الذي نحن فيه . كثير من ادبائنا المعاصرين يحاولون

التحرر من ربة تقليد الاقدمين بالابتكار التام في المعاني والمباني ، وهم في

الحقيقة مقيدون بها ، مجذوبون اليها بقوة كامنة فيهم ، شبه الحجر المرشوق

في اعالي الجو ، لا يلبث ان ينحدر الى الارض بتأثير ثقله .



سعيد ابو بكر

قد رسخ فينا ، نحن اهل الشرق العربي الادنى ، الايقان ان سكان المغرب العربي اعني طرابلس الغرب ، تونس ، الجزائر ومراكش ، قضت عليهم صروف الزمان بعدم الاكساب على درس ادبنا القديم والاحجام عن ايجاد ادب جديد خليق بالذكر . في الواقع لم نر في محيطهم ، حتى الآونة الاخيرة ، شيئاً تسوغ نسبته الى الادب ، سوى بعض الجرائد والمجلات التي يتضح لنا اول وهلة ركودها في مستوى دون الذي ادر كته صحافتنا بمراحل ، فكأنها تمتمة الطفل الرضيع بالنسبة الى كلام الفتي البالغ اشده ، بل كأن تلك البلاد موات بين ارياف ادبنا العصري الملائى بانواع الزهور النضيرة والثمار اليانعة .

فما اشد ما كان دهشنا واعجابنا حين عثرنا على ديوان « السعيدات » لشاعر تونسي مفلق ، وهو سعيد ابو بكر ، يبشرنا شعره الحسي المبسك ، المتقد انتقاداً بنار الحمية والوطنية ، بانبلاج فجر جديد للادب العربي في قطره . وُلد سعيد في مدينة مكنين في تونس سنة ١٨٩٩ ، وتخرج في مدرسة قرآنية على النمط العصري . ما كاد يأخذ قسطه من دراسة لغة الضاد حتى احس بميل شديد الى الشعر ، فاكب منذ حداثته على قراءة دواوين طائفة من شعرائنا المبرزين ، ولا سيما خليل مطران ، شوقي ، حافظ ، بشارة الخوري ، دموس ، الملائ ، الزركلي والزهاوي . شرع ينظم القريض ، وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ، فنشر في صحف بلاده قصائد كثيرة ، معظمها وطنية ، رمى بها الى ايقاظ العاطفة القومية في قلوب مواطنيه ، فكان لها صدى بعيد في انحاء تونس وما جاورها من اصقاع المغرب العربي .

قند اذاع في تونس مثل شعرنا الحديث بمواضيعه الحية المتنوعة ، الصادرة من اعماق النفس ، لا من اسلة اللسان او اليراع ، فحدث في سامعيه

وقرائه مثل هزة الكهرباء طوراً وانقضاض الصاعقة تارة . لم يكتف باطلاق
القريض من قيود المواضيع المبتذلة ، الباردة ، العقيمة ، بل حرره ايضاً في
عدة قصائد من كبول وحدة القافية ومن عبودية الاوزان القديمة . ارهف
احسانه ضرب السكينة حسه الموسيقي ، فقادته الى الابداع في نغمة الشعر ،
فكان اول شاعر تونسي صاغ القريض على اوزان جديدة ، اقدم على
استنباطها ومهر فيه مهارة اشهر شعرائنا الامير كمين ، من امثال ميخائيل
نعيمه ، رشيد ايوب ، ايليا ابو ماضي ، نسيم عريضه ورشيد سليم الخوري .
لم يبال بانتقاد المتعنتين اللاذع ، بل ظل مثابراً على جهاده التنبيل لتحرير الشعر
في وطنه ، فما لبث ان نشر مبادئه السديدة ، فحذا حذوه رهط من ائمة
الشعراء في قومه .

هذا هو النابغة الذي اتيج لنا اكتشافه ، وذلك ملخص حياته الادبية ،
على ان نظرة سريعة سطحية لا تكفي لمعرفة حق المعرفة وإحلال جهاده
الشعري محل التقريظ اللائق به ؛ فلا بد من امعان النظر في ديوانه
« السعديات » لازاحة النقاب عن بدائمه .

قد طالعنا كل قصائده ، فاحذ منا الاستغراب كل مأخذ اذ لم نجد بينها
شيئاً من نوع المدح او التهئة ؛ اما الرثاء فتمثله قصيدة ، لا غير ، وكذلك
الغزل . امر يقضى منه العجب ، ولا سيما ان اكبر شعرائنا في الشرق
الادنى قد جعلوا لتلك الابواب مكاناً رجباً في دواوينهم ، فكانت حصتها
من الالهام السامي يسيرة في الغالب . لا يابه سعيد ابو بكر لمثل تلك
المواضيع التافهة ، فان شغله الشاغل حبه المضطرم لوطنه الصغير تونس
خصوصاً ، ثم لوطنه الروحي الكبير ، الشرق العربي ، عموماً . تلك العاطفة
المزدوجة ، ولا سيما بمظهرها الاول ، هي لحة ديوانه وسداه ؛ ولو لم يوفق
توفيقاً خارق العادة في تنويع التعبير عنها ، لاصاب قارئه الملل بعد مطالعة
بعض قصائده . انما الوطنية في روح الشاعر كوتر من اوتار العود ، تُخرج

منه انامل العواد الحاذق نغمات عديدة .

فكرة الوطن ، الشغف به ، الغيرة على انتشاله من وهدة الذل واغرائه
بالسير الحثيث في نهج المعالي ، ذلك هو المنهل الصافي الذي يستقي منه الشاعر
التونسي الهامه ، فلا يكاد يدور في خلده ان يرد غيره من موارد القريض .
مهما لفت انظاره من مشاهد الحياة او طرق مسمعية من صخبها المزعجة او الحانها
المطربة ، فلا بد ان يحرك في اعماق روحه وتر الوطنية الحساس ، السريع
الاهتزاز ، فتصعد الالبيات من فؤاده الى شفثيه كنيران البركان المنفجر
بغثة ، وتندفق على محيطه كالحلم المتأججة ، المحرقة ، المندفعة
كالسيل الجارف .

يشاهد طفلاً في مهده ، لا يكاد يميز ابسط الاشياء الماثلة امام عينيه ،
فيحرضه على حب الوطن ، مبيناً له فرط انحطاط قومه وصائحاً به :
نما الخطب فينا ، فكن رجلاً ؛ وهاك اليراع لنفع الوطن !
في قصيدته « ايها الشعراء ، الى نهضة بالشعب قبل مماته » يناشد ارباب
القريض ان يُعرضوا عن الثروة الموزونة ، واقفين فنهج السامي على اقالة
الوطن من عثرته ، ويرشداهم بهتاف الحفيظة النائرة
الى خدمة الاوطان ؛ قد ضيّع العلا بنوها وحادوا عن كمال وسؤدد !
يخاطب وطنه التاعس ، الراسف بقيود الهوان ، وقد الف بنوه الصغار
وصمت آذانهم عن نداء الساعين لتحريره ، فيقول له :

انت لي غير الرزايا لم تجد ، وانا غيرك جماً لم ارد !
في « الفتاة الباكية » يصور لنا وطنه برمز صبية اذبلت الشدائد شبابها
النضير ، فساقتها الى مهاوي القنوط ؛ يحن اليها ويستطلع طلعا ، فتجيبه
بصوت خنقته العبرات :

انا الغصن في زهر الشباب ، يقصه بقادومه الخطاب ، وهو مولود .
انا تونس الخضراء ؛ ويك ، الى متى عن السير في نهج العلا تتغافل ؟

كأنك لا تلقى المعرفة اذ ترى بلادك في خطب ولا تنقلقل !
يرى « زهرة فوق نعش » ، فيتذكر من فوره ان شعبه ميت مكفن
بظواهر الحياة ، فيربأ بالزهرة ان تنفحه بعبيرها ، ويردعها عن ذلك
الاسراف بقوله :

فلا تكوني جمالاً على صدور الرقود !

كل تلك القصائد الوطنية وكثير من نظائرها ، مثل « افق الرزايا » ،
« في سبيل الدستور » ، « انشودة الاعمى » ، « الوفاق الوفاق ! » - وجميعها
نحو ثلثي الديوان - ليست اقوالاً موزونة مقفلة ، بل صيحات عالية ،
متواترة ، لها رنة الحماسة الآمرة والناهية في صياح القائد بجنوده الفاتري
الهمة ، يدفعهم الى حومة القتال ؛ ونسمع فيها احياناً لهجة يأس الصائح باخيه
الاعز ، وقد رآه فجأة على حافة الهاوية .

بيد ان نظر سعيد الثاقب يتعدى آفاق وطنه التونسي الصغير ، جائلاً
في انحاء وطنه الروحي الاكبر ، الشرق العربي ، فيراه على غير ما يتعنى له
من سمو المقام وورق الحضارة بين اقطار العالم المتحدن ، فيهيج ذلك المشهد الحزن
وطنيتيه الكبرى الشرقية ، فلا يجتزىء بالنوح على تأخر الشرق وتفاقم بلاياه ،
بل يستنهض حمية ابنائه للتضافر على رفع شأنه بين الامم العظيمة ، المسيطرة
على اقدار بقية الشعوب . من ابداع آيات نظمه في هذا الميدان « الشرق
والسما » ؛ يمثل فيها الشرق شاكياً الى السماء سوء مصيره ، بعد عزه الباذخ
في ماضي العصور ، هاتفاً هتاف الحفيظة والاباء :

امثلي جدير بالاهانة والشقا ، وفي جسدي روح المعزة والفخر؟...
ايمكن ان اغدو الاسير ، ومقلتي تشاهد في الاوكار حرية الطير؟
اذن أنزلي فوقي صواعق نقمة ، فخير لدي الموت من ذلك الاسر !
بلهجة قاسية ، لاذعة ، يعبر الشرق بعوده عن طلب المعالي ، خوفاً
من وعورة مسلكها :

ايها الشرقي ، دُم في رقـدتك ريشما يبدو لعينيك الصباح !...
 انت لا تدري لمـنى خلقتك غير كون الجسم والاعضا صحاح !...
 انت من ادنى خيال تختفي ؛ انت روح ذلوهـا بالجماد !
 كما سبقت الاشارة ، النعمة السائدة في موسيقى الشاعر التونسي المفلح
 انما هي تلك الوطنية المزدوجة ، التونسية والعربية . تلك العاطفة الملازمة
 لقلبه ، المتأصلة في اعماقه ، السارية في دمائه ، هي التي ابدعت لآباء لغة الضاد
 ديوانه الحي ، المطرب ، المستفز . هي التي اوحى اليه بحث مواطنيه على رفع
 مستوى المرأة التونسية ، بمنحها نصيبها الوافر من العلم والتهديب ، كما فعل في
 قصائده « المرأة والاخلاق » ، « الزينة الذابلة » ، « ضحية الطمع » ، « المرأة
 والعلم » ، « حجب الامهات » ، « السجن الكبير » . هي التي مالت به الى
 العطف على فئة من اشقى ابناء قومه ، كاليتامى والمظلومين ، فخص بهم بعض
 منظوماته ، مثل « اليتيم » ، « حياة اليتيم » ، « ليلة في اصطبل » ، « حادث
 سوق الاربعاء » .

خلاصة القول ان وحدة الالهام الوطني المنبثق من روح مشتعلة بحب
 وطنها ، التونسي والشرقي ، والتعبير عن ذلك الشعور التبيل بلهجة هاتفة ،
 نارية ، وتنوع شديد في المواضيع والخيالات ، بل في الالوان ايضاً ، كل هذه
 المزايا تجعل سعيداً ابا بكر في مقدمة شعرائنا النوايع الذين صاغوا القريض
 لاسمى غاياته ، ولا سيما لاثارة العاطفة الوطنية في آلاف من الشرقيين ، قد
 صلبت قلوبهم الاثرة وعصور العبودية الاجانب ، فعدوا الوطن من
 سقط المتاع .



خليل مطران

قد احدث خليل مطران ، بجسارة مدهشة ، انقلاباً عظيماً في شعر اهل زمانه ، بل في الشعر العربي على وجه الاطلاق . حين دخل ميدان القريض ، كان هذا الفن - وهو ملك الفنون الجميلة قاطبة - قد هوى عندنا الى اقصى دركات الانحطاط . كان اكثره تافهاً بمواضيعه ، مبتدلاً بتعايره ، يكتفي اصحابه المتشاعرون بان يستظهروا شعر الاقدمين ، منتزعين منه رقعاً يضمون بعضها الى بعض ويؤلفون بها منظوماتهم الخالية من الحقائق السامية والعواطف النبيلة والخيالات الجديدة ، فليس لها ، والحالة هذه ، من الشعر الا اسمه .

وقف خليل مطران باكياً ، نادياً ، متوجعاً امام قبر الشعر العربي ، يتنشق مرغماً روائح الانحلال الكريهة ، الفائحة من جثته الهامدة ، فنفيخ فيها نفخة شديدة من روحه العبقريّة ، فبعث من اللحد ذلك الميت المكفّن منذ قرون بكفن الجلود والابتدال . نظم قصائد عديدة ، معدنها الشعر المحض من الطراز العالي ، شعر الحقيقة والخيال والشعور باسمي معانيها ، شعر لم يألّفه قط العالم العربي العصري ، فانقسم عند سماعه الى فئتين ، احدها اقلية زهيدة من المعجبين به ، والاخرى اكثرية ساحقة من النافرين المتعنتين . ولم تزل الاولى تتكاثر والثانية تتضاءل الى ان طار صيت الشاعر البعلبكي المجدد في كل آفاق العالم العربي بل في المهاجر ، فاقر له اعلام الادباء بالتبوغ في فن القريض .

قال حافظ ابراهيم في شأن مطران : « هو في طبيعة اوئثك الذين خرجوا عن افق التقليد وصدعوا قيود التقيد ، واوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الاعجمي ، وافسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث ، وطوفوا لسرد وقائع التاريخ ، ففتح بذلك فتحاً جديداً ، شن به الغارة على »

اهل الحفاظ والتمسيك . »

ما الذي جدده مطران في الشعر العربي ؟ كل شيء ما عدا الاوزان . جدد المواضيع والتعابير ، فحسبه بذلك فضلاً ومجداً عظيمين ، يخلدان اسمه في تاريخ ادبنا الناهض .

اكب على النظم ، وهو في شرح الشباب ، ثم احجم عنه « لانكاره طريقته وجهله حقيقته » ، كما اعترف في مقدمة ديوانه ، « ديوان الخليل » المطبوع في القاهرة حول سنة ١٩٠٨ . ثم عاد اليه ، « وقد نضج الفكر واستقلت له طريقة في كيف ينبغي ان يكون الشعر » ، فاصلحه وانعشه بمقريته النادرة وجرائه المدهشة . رأى جُل المواضيع الشعرية ، ان لم نقل كلها ، قد انحصرت في دائرة ضيقة ، سافلة ، خائفة ، دائرة الغزل التافه ، والتزلف الى سرة القوم بمدح الاحياء منهم وراثاء الموتى ، والنوح العقيم على اطلال مجد العرب الاقدمين . اين الشعر الحقيقي من هذه الترهات ؟ رأى ذلك الانحطاط المخجل ، فلم يبق امامه متوجعاً ، مطرقاً ، مكبل اليدين ، بل عقد نيته على اقالة عثرة قريضنا ، وادرك ان الاصلاح الحقيقي يتناول جوهر الاشياء قبل اعراضها ، فاقدم على تجديد كنه الشعر ، نغني مواضيعه .

ما الشعر الامثل ، اذا سبرنا غوره ، سوى فكرة سامية او عاطفة شريفة تجسمت في حادثة او مشهد او خيال ، فاصبحت بذلك التجسد قادرة على هز نياط القلوب ، بولوجها من ابواب الحواس . كل ذلك قد فهمه مطران بنظره الثاقب ، بل اخرجها الى حيز الوجود في ديوانه ، فجاء حافلاً باجمل القصائد الروائية والوصفية والخيالية ، منطوية في الغالب على مغزى سديد او شعور نبيل رقيق . يضيق المجال عن خوض ذلك العباب ذي الهدير الموسيقي المطرب ، فنجتزئ بالاشارة الى بعض امواجه الثائرة البديعة الالوان ، تنعكس على جنباتها اشعة الحياة ودياجيها على التوالي ، بتنوع وابتكار عجيبين .

من احسن قصائد مطران الروائية « فاجعة في هزل » و « زفاف ام جنازة ؟ » تهلنا فيها مفاجات الحمام لبني آدم الغائضين في لجج المسرات والملاهي . « نابوليون الاول وجندي يموت » يتجلى فيها تنازل عاهل عظيم ووفاء جنديه الباسل . « مقتل بزرجمهر » يرينا فرط استبداد ملك جبار غشوم ، واقصى دركات الاستعباد والذل في شعبه . على هذا المنوال ذاته حاك شاعر القطرين القصائد « ان من البيان لسحراً » ، « شهيد المروءة » ، « العصفور » ، « وفاء » ، « العقاب » وعشرات من امثالها .

اما وصفه فهو نسيج وحده بدقة التصوير وحرارة العاطفة المندمجة في لحمته وسداه ، سواء اكان مقتبساً من حوادث التاريخ ام من مشاهد الطبيعة ام من الامور اليومية المبتذلة ، فيصوغ منها الشاعر المفلق جواهر قريضة . من طالع وصفه لمركة واترلو الشهيرة ، فكأنه قد شاهد حومتها الرائعة بين دوي البنادق وقصف المدافع . من قرأ « قلعة بعلبك » خيل له انه يماين ابنتها الجليلة واعمدتها الهيفاء الشاهقة ، هندستها المعجزة ، منحوتاتها الفاتنة ، وما تجسم في كل تلك البدائع الفنية من عظمة الفينيقيين وسمو حضارتهم . في قصيدة « الاهرام » نرى ذواتنا منذ مطلعها قد اتقلنا بغتة ، بقوة مخيلة الشاعر المندفعة بنا كريح هوجاء ، الى القرون القديمة التي زانت فيها وادي النيل تلك الصروح الجبارة ، المنتصبة على توالي الاجيال ، شاهدة على كبرياء الفراعنة وذل رعايهم

صفر الوجوه ، نادياً جباههم كالسلايا الباس ، يعلوه الندى ؛
 محنية ظهورهم ، خرس الخطى ، كالنمل دب مستكيناً مخلداً ؛
 مجتمعين ابحراً ، منفرعين انهرأ ، منحدرين ، صعدا .
 اكل هذي الانفس الملكي غداً تبني لفان جدناً مخلداً ؟
 ذلك التصوير الحي ، البديع الاشكال والالوان ، الآخذ بمجامع القلوب ، كثيراً ما نجده في ديوان الخليل ، مثلاً في « تشيع جنازة » ،

«وداع وسلام»، «عود من الصعيد»، «وفاة الملكة فيكتورية»، ولا سيما في «المساء» التي نعدّها من أجمل ما نظمته نوايغ الشعراء في أشهر لغات العالم. لا تحتاج خيلة مطران القديرة الى اقتباس مواضع شعره من الحوادث او المشاهد، فانها تستطيع اخراجه من خزائنها الحافلة بأنواع الآيات، كما نرى في «السور الكبير في الصين»، «الترجسة»، «الزهرة»، «فنجان قهوة»، «الطفلة البويرية» و«مغيب في البزوغ». ربح في معالجة المدح والثناء اللذين تدعو اليهما الشاعر بعض الظروف، يبذل قصاراه في حلها من ربة التقليد والابتدال، للتعبير بواسطتهما عما يدور في خلدّه من افكار عالية وما يخفق في قلبه من عواطف نبيلة. مثال ذلك ما جاء في آخر رثائه لاسماعيل بك عاصم، وكان قد مات غريقاً:

وبما نقمنا من صروف زماننا، سيئدّلنا منها القدير الدائم؛
ان الذي وارى شقيقك فاخفى فيه، ولم يعثر عليه الرائي،
سيغوله بحر الفناء كقطرة ويُسيفه العدم الشروب الهاضم؛

تلك التفاصيل الموجزة ما هي سوى حفنة من كتيب التجديد الرائع الذي احلّته شاعر القطرين في مواضع القريض، وقد توخاه بهمة قعساء لا تهولها العقبات، وبنبوغ نادر المثل تحتم على الد الخصوص تعظيمه؛ فلا بدع بقول مطران في آخر مقدمة ديوانه: «لذلك عملت وذلك منتهى ما امّلت، «فان الناس ركب شقاء وسفر هيماء؛ فما اسعد حاديتهم - وهو الشاعر - اذا حدا، ان يحس لنغماته، عند اخوانه في المسير رنة وصدى».

لقد اوضحنا ان مطران نفخ روح الحياة، بل حرارة الشباب، في جثة الشعر العربي الراقدة منذ عصور في جمود الموت، وقد صنع تلك المعجزة على الاخص بتجديد المواضع الشعرية وجعله في دائرتها رواية الحوادث التاريخية ووصف المشاهد الطبيعية الى غير ذلك من المواد الحية الشائقة، التي لا قوام

(١) سفر، بفتح السين وتسكين الفاء، جمع سافر المرادفة لمسافر.

للشعر المحض بدونها ، كما نرى في ارقى الآداب الغربية . قد احدث مثل ذلك التجديد المدهش ، الذي تقتضي صعوبة انجازه جيلاً كاملاً من الشعراء المفلقين ، لا فرداً من نوابغهم ، في اساليب التعبير الشعري ، بجسارة وحسن ذوق في الابتكار جارى فيها اعظم شعراء الغرب .

الابتذال في التعبير من اكبر شوائب الانشاء الثري ؛ فكيف يطيقه القريض ، وهو اجمل انواع الكلام ؟ قبل مطران كان شعراؤنا المحدثون يلوكون على الدوام اقوال زملائهم الاقدمين ، فتخرج من افواههم تافهة ، مفتحلة ، يمجها الذوق السليم ولا يشفع فيها رونق الوزن والقافية ، لان جمال الاعراض لا ينوب قط مناب حسن الجوهر . كانوا لعجز مخيلتهم وسوء فهمهم سئين الادب ، يزعمون الابتكار في التعبير ، ولا سيما في الخيالات ، خروجاً شائئاً على عروبة اللغة ، ومن ثم على بلاغة الانشاء ؛ فلا تزال الجبال « شامخة » في قصائدهم ، والنسيم « عليلاً » والزهور « فضيرة » والظلال « وارقة » ، كأن هذه الصفات ضربة لازب في موصوفاتها ، بل كأن الطبيعة الرائعة بدوام التنوع في حياتها وحرركاتها ، قد جمدت جمود قرائحهم العقيمة . بجراً مدهشة قد شن الشاعر البعلبكي الغارة على ذلك الجمود المحاول التنكر بادعائه احترام اللغة وتقاليدها ، وما هو في عين البصير سوى نوع من اقبح انواع الكسل العقلي والادبي . قد اعلن له مطران حرباً ضروساً في مقدمة ديوانه حيث يقول انه عاد الى نظم الشعر بعد المهجر الطويل موافقاً زمانه على ما يقتضيه من الجرأة في الالفاظ والتراكيب « لا يخشى استخدامها احياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الاساليب » .

ليس الفضل بالقول الفارغ والادعاء الكاذب ؛ لقد اخرج مطران في قصائده التي تحصى بالئات ، ذلك البرنامج الجسور الى حيز العمل ، على وجه لا يترك زيادة لمستزيد . هذا ما تقصد الآن ايضاحه بكثير من الشواهد الجلية ، قاطفين من بستان ديوانه بعض اجمل الزهور ، ليطرب القراء

بعبيرها اللذيذ المتعش .

من افتن حُلَى التعبير الشعري الخيال ، ولا سيما اذا لبس حُلَّة التشابيه والاستعارات الجميلة المتكررة ، الخالية من التصنع ، فانه حسن زائف . خذ « ديوان الخليل » وتصفّح اية قصيدة وقعت تحت نظرك ، تجد فيها شبه معرض صغير من تلك الحلى النفيسة ، التي ظل شعرنا الحديث عاطلاً منها الى اواخر القرن التاسع عشر . سواء اوصف مطران مشاهد الطبيعة ام مواقف النفس البشرية ، ام احقر الاشياء المبتذلة ، فانه يمثلها تمثيلاً حياً كأنك تراها امامك ، ويعبر لك عن محاسنها الظاهرة ورموزها الخفية تعبيراً جديداً بديعاً ، لا عهد لك به ، ولو قرأت كل قصائد اسلافه المبرزين واستظهرت جميع ابياتها . اليك بعض الامثلة على ذلك الابداع النادر في تصوير مطران للاحوال النفسية . يصف سهده الاليم بقوله :

أرى مثل سهدي في الكوكب ؛ احل به مثل ما حل بي ؟
ييم هيامي من وجدده ويهرب من مهده مهربي ،
ونجتاز هذا الفضاء الرحيب الا بنا ، فهو لم يرحب .
يقول عن آخر كلمات محتضر شرب كأس الاحزان حتى الثمالة :
كلم كستهن الكتابة لونها ، فكين انوار الزوال غروبا .
يقابل راحة القبر بعناء الحياة ، فينشد :

القبر افضل للفق من مضجع فيه يقلّب موجعاً ثليباً ،
وجلامد الارماس اهون محملاً من ان يحمّل مثلهن كروبا .
يصور لنا حرص والد حنون على صيانة حياة ابنه المدنف ، بقوله له :
أنشقه روحك واسقه ما قطّرت مقلتك ،
واجعل ضلوعك دفئه ، وغذاه باقي قواك ،
واخبأه خبء العين في الجفنين ، ما شأت منك !
ييوح لنا بخوفه من الحمام ، وهو على حافة قبر جديد :

وقفت على القبر الذي انت نازله° وقوف جبان باديات مقاتله° !
 يصف لنا حالة الضنى الشديد التي افضى به اليها مرض ثقل الوطأة :
 قلب° اذابته الصبابة والجوى ، وغلالة° رثت من الادواء ؛
 والروح بينهما نعيم تنهد في حالة التصويب والصعداء ،
 والعقل كالمصباح يغشى نوره° كدري ويضعفه نضوب دمائي !
 مفاجأة الفرح للملحوف ، بعد طول اساء ، هي في نظره
 كشموس ايام الشتاء ، اذا انجلت ، عاد الضياء مضاعف اللاء .
 يقول عن الطفلة المرححة التي لا يقر لها قرار :
 كل مكان تكون فيه يقلقه وثبها مرار° ،
 كأنها طائر حبيس في قفص يبتني الفرار .
 يصف اثارة اللطف لكامن الآمال في قلب البائس ، بقوله :
 ويقيم الآمال في النفس كالنور يُحيل البزور زهراً انيقاً !
 يسخر بذل شعب راض بالاستعباد ؛ فيصيح :
 واذا اذبت الشحم عن اجسامهم تعباً ، فان نفوسهم لا تتعب !
 ويصور لنا رثاءه امام ملكه الغشوم :
 يُبدون بشرّاً ، والنفوس كظيمة يجفلن بين ضلوعهم اجفالا ؛
 تجلو اسرّتهم بروق مسرة ، وقلوبهم تدمى بهن نصالا .
 يصف سحر البيان بقوله لاحد المحامين البلغاء :
 رب جمع وقفت فيه خطيباً ، انصتت في صدوره الاكباد ؛
 هكذا البحر يملاء الحس روعاً وجلالاً دويّه الهداد ؛
 هكذا السيل قاذفاً ماءه المبيض ، حتى يُظن فيه اتقاد !
 يبدي مثل تلك المقدرة العجيبة على ابتكار مئات من الخيالات
 والاستعارات ، في وصف محاسن الطبيعة . بل نراه في طبيعة شعرائنا
 القليلين الذين ذاقوا جمال الكون المادي واستطاعوا تفصيل روائعه والترنم

بها . تأملوا وصفه لترجسة ذابلة :

ذبلت وحلاها الندى ، فكأنها عينٌ اسال الحزن منها مدمعا .

يصور لنا انعكاس انوار المصابيح في بُحيرة روضة :

وضياءٌ يموج في الماء حتى لنراه كأنه متسلاطمٌ .

يصف لنا تنوع ألوان اشعة شمس الربيع باختلاف مهابطها :

تبعث الشمس باهرات شعاع تغتدي في انحدارها شبه رُبْد ،

فهي في الاق تارةً مسحاتٌ من بهار ، وتارةً نثر ورد ،

وهي بين الغصون نسجٌ دقيق من نضار يشف عن لازورد .

يصور لنا حمارّة القميط الثقيلة الوطأة في صعيد مصر :

او قد الصيف في الصعيد لظاه ، فأجف الحقول والآجاما ،

وغدا الناس بين جو كثيف متردٍ من الغبار غماما ،

وفلاة كأنها الرمل فيها شرر مُد ، لمعة واضطراما .

يرى الباخرة التي تمخر في عباب البحر ليلاً

كأنها في سعة الفضاء جنازةٌ ليلتُ الاحياء ،

بمشهد من عالم الاضواء ، في متراعى البحر والسماء .

يشاهد في البحر الهائج ، المتلاطم الامواج ، رمزاً لاضطراب روحه ،

وهي فريسة البلايا والاحزان :

والبحر خفّاق الجوانب ، ضائقٌ كمداً كصدري ساعة الامساء ؛

تغشى البرية كدرةً ، وكأنها صعدت الى عيني من احشائي .

يرى في غروب الشمس احتضار النور الزائل ، فيقول عنه :

او ايس نزعاً للنهار وصرعةً للشمس بين جنازة الاضواء ؟

ويذكره افولها قرب الاجل المحتوم ، فيهتف بقلب كئيب :

مرت خلال غمامتين تحدرأ وتقطرت كالدمعة الحمراء ؛

(١) الصعيد اسم اطلقه المصريون على قسم بلادهم الجنوبي - (٢) نزاع .

فكأن آخر دمة للكون قد مـزجت بآخر ادمي لـرثائي ،
وكأني آنت يوميّ زائلاً ، فرأيت في المرأة كيف مسائي !
عبقريّة ابتكاره تجلّي على الوجه الاكمل في قدرته على تنويع وصفه
لشيء واحد ؛ وكثيراً ما نرى ذلك في « ديوان الخليل » . حسبنا ان نذكر ،
تأبيناً لرأينا ، بعض ابياته في شأن الموت ، وقد سماه في احدى قصائده
« الهجعة السوداء » . يقول في رثاء فيكتورية ملكة انكلترة :
كأن نجوم الليل حراس نومها ، وانوارها شبه الدموع تسيل ؛
كأن بزوغ الشمس بعد احتجابها ، تنتظر حال الحسن كيف تحول !
كأن جنود البر سارت بنعشها جبال رمال تعلي وتهيل !
وعلى وفاة اميرة مصرية :
فقد صعدت نفس الاميرة في الضحى الى الله ، واستودعتم صدف الدر .
وعلى اخترام الموت لفتاة :
وقبلها فاستل جوهر روحها ، وابقى على رسم كبعض الدمى الغر !
وعلى راهب عاجلته المنية في شرح الشباب :
صلى صلاة الصبح من عمره ، ثم على الاثر صلاة الغروب !
يرثي صديقاً فيصور في بيت واحد سرعة زوال حياته :
اقبلت من عدم ورحت مسلماً ، فودعاً ، ففارقاً ، فرميها !
يصف لنا جشع الموت في اغتياله الدائم لآلاف البشر :
وما القبر الا حلق غرثان هاضم من الموت ما يلقى به ، فهو غائله !
تلك نموجات عديدة لآيات ابتكار مطران في التعبير الخيالي ، ولا
يفوقه فيه اشعر شعراء الغرب ذوي القصائد الخالدة . ذلك الابتكار المدهش
يساوي ابداعه للمواضيع الاثقة بالقريض والمفسحة اوسع مجال لتحليق الخيلة
وتسامي الفكر . ما الفائدة من ايجاد مادة جديدة للنظم ، اذا افرغها الناظم
في قوالب التقليد والابتذال ؟ بذلك التجديد الجريء المعاني والخيالات قد

انهض شاعر القطرين قريظنا الحديث من كبوته ، فرفعه الى مثل مستواه
عند ارقى الشعوب . وان هذا حذوه عدد غير يسير من شعراء جيلنا في
انحاء العالم العربي ، فله فضل القائد الفطن المقدام ، وحسبه مآثرة جليلة
تخلد اسمه في تاريخ ادبنا الحديث .

بشارة الخوري

من يجهل بشارة الخوري من الواقفين على حركة ادبنا العصري ،
ولو لم تظلمهم سماء لبنان الصافية الزرقة والشفافة الضياء في اكثر الاحيان ؟
يعرفونه كل المعرفة ، ليس بصفة منثى جريدة « البرق » فقط ، وقد اسسها
سنة ١٩٠٨ في بيروت صحيفة اسبوعية ، فصارت يومية سنة ١٩١٩ ، ثم
تحولت الى مجلة اسبوعية سنة ١٩٣٠ ؛ بل يعرفونه ايضاً بلقب الاخطل
الصغير ، فانه شاعر غزير المادة ، شديد الابتكار في كثير من قصائده المنتثرة
في صحف العالم العربي ومهاجره . انما غايقتنا الآن لقد ذلك الشعر ، فقد وقع
منه تحت نظرنا عدد كاف من النعوجات المختلفة لنبدي فيه رأينا .

عالج بشارة بدرجات متباينة من الاجادة اكثر انواع الشعر العصري ،
وفي مقدمتها الروائي ، الذي وصف لنا به غابر الحوادث ادق الوصف ،
تنعشه عواطف الناظم الحارة ، فكان شطراً من الماضي قد برز امامنا في نور
الحياة ، خارجاً من ظلمات الموت والخفاء . من اجمل قصائده في هذا الميدان
« آتيا والشاعر » ، يصور لنا فيها ذلك الفاتح الطاغية ، القتل والهدام ،
تصويراً بديعاً بايجازه ، قائلاً عنه انه لم يكن « سوى نقمة الله وسيف
الغضب ، ملاً الايام هولاً ودماً ! » اتاه ذات يوم شاعر من الرومان ، يتزلف
اليه بتعظيمه وتمليقه ، فاستاء الجبار من نفاقه وفرط تذله .

قال آتيلاً : « اجمعوا لي حطباً واربطوا من فوقه هذا الغي . . »
 « ويك ! » ناداه « لئن ترجع الى الكذب ، احرقك جزاء الكذب ! »
 لو بئسنا باتيلاً ساعة ، لشكونا من نفاد الحطب !
 في ذلك البيت الاخير ما فيه من التهمك المضمرة الاذع بقوم من بني
 الشرق قد بالغوا في تعفير وجوههم امام العظماء استجداءً وطمعاً
 بحمايتهم القديرة .

كذلك قد ابدع كل الابداع في « سقوط السلطان عبد الحميد الثاني » .
 في هذه القصيدة من ادق تفاصيل الوصف ما ينافس ريشة ابرع المصورين .
 بعد احياء مشاهد ظلم ذلك العاهل المستبد لرعاياه ، وهبوطه من اوج عزه الى
 مهواة الذل والاسر ، يخاطبه الشاعر بهذه اللمحة البليغة المؤثرة :
 كنت تبكي ، فصرت تبكي ، وعهدي بك ، عبد الحميد ، غير بعيد !
 يا ليلاليه في سلايك ، قولي ليلي في يلدز : « لن تعودى ! »
 يا ليلاليه ، لا تثرية ضحاياه ، فتعروه رعشة الرعيد ؛
 وارحميه ، فالشيخ هاو ، وما للشيخ من طاقة على التسهيد .
 كان بالامس ، والبرايا عبيد ، فغدا اليوم صاغراً للبيد !
 رواية « عروة وعفراء » الشعرية جديرة ايضاً بان تحصى بين فرائد
 القريض القصصي الحديث ؛ من لم يطالعها كلها فلا يسعه ان يقدرها بواسطة
 الابيات القليلة التي يقرنا ضيق المقام على الاجتزاء بايرادها . موضوع تلك
 القصيدة ان الفتى عروة قد وعده عمه وعداً كاذباً بان يزوجه ببنته عفراء ،
 وانما سبب تلك المخاتلة فقر الشاب . ثم اراد عمه ابعاده حتى يعقد لسليته
 قراناً آخر ، فاشار على عروة بالسفر الى الشام سعياً وراء تجارة رابحة ،
 وانتهاز فرصة غيبته لاختيار زوج آخر لعفراء ، وهو ائالة الوافر الثروة .

(١) اسم قصر من قصور السلاطين في الاسطانة . يقتضي وزن هذا البيت لفظ هذه
 الكلمة - وهي تركية ، معناها كوكب - بتثوين الجر .

بلغ عروة ذلك النبأ الفاجع ، فطارت نفسه شعاعاً ، بل كان هول تلك
المصيبة سبب موته العاجل . فاستأذنت عفراء بعلها في ان تحج قبر قريبها
ورفيق صباها ومحبوبها الوحيد ، فنزل عند رغبته . هنا ينشد الاطل الصغير
في ختام تلك الرواية الشعرية :

فما هي غير بعض ثوان
حتى رأيتَ بقبر عروةَ بانةً
محنيةً - وا لهفتا للبان ! -
وسمعت اية زفرة وشهدت اية ثورة ولمست اي حنان !
« واعر وياه ! » ولم تُثَم نداءها حتى ارتمت ، فاذا هنا ميتان !
ضموا الفتاة الى الفتى في حفرة ، من فوقها غصنان ملتفان :
روحان ضمهما الهوى فتعانقا وتعاهدا ، فتعانق الكفنان !

« الريال المزيف » آخر مثال فتان نذكره من ذلك النوع الروائي .
يقص علينا الخوري في تلك القصيدة حادثاً اليماً جرى في وطنه ابان الحرب
العالمية الاولى . امرأة تركها زوجها في الفقر المدقع وانضوى الى الجيش ،
وكانت لها طفلة كاد المرض يوردها حتفها ، وقد حال املاق امها دون شراء
الادوية اللازمة . ثم سام عرضها نذل رآها في ذلك الموقف الحرج غنيمة
باردة بين يديه ، فلوهمها الشيطان الرجيم وحنانها الوالدي سواغ الانقياد
لذلك المجرب الوغد ، فسقطت في حبالته . بعد قضائه نهمته ارادت تخفيف
آلام بنتها بالريال الذي باعت به ماء وجهها ، فاذا هو زائف ؛ فيا لمرارة
خيبتها ، وقد زادت فدح عارها ؛ هي رواية حادث مبتذل قد شاهد الموان
آلافاً مؤلفة من امثاله ، على ان قريحة الشاعر قد صاغت به قصيدة من
اجمل القصائد ، رائعة باجادة الوصف وبكثرة الخيالات الجديدة ؛ دونكم
ابياتها الاولى :

ويح الفقير ! فما تراه يلاقي ؟ سُدت عليه منافذ الارزاق ؛

(١) اسم قطعة من النقود المصرية تساوي عشرين غرشاً مصرية .

عصفت به وبسره ربح الشقا ،
 فاذا بصُرتَ به ، عجيت لشمعة
 علق الجاعة مص بعض دماءه ،
 اخذ الشقا يدها فسارت خلفه ،
 سارت فمأس الخيزران بقدها ،
 وتلوح آثار النعيم بخدها
 لبشارة الخوري في الشعر الوصفي المحض تُحف من ذلك الطراز العالي
 الذي ذكرنا شيئاً من بدائعه في الروايات . هـ اكم بعض اجمل ابياته
 « في شاب مسلول » :

عيناه عالقتان في نفق
 تهتر انمله ، فتحسبها
 يمشي لعلته على مهل ،
 ويميج احياناً دماً ، فعلى
 قطع تقول له « تموت غداً » ،
 والموت ارحم زائر لفي
 كسراج كوخ نصف متقد ...
 ورق الخريف اصيب بالبرد ...
 فكأنه يمشي على قصداً ،
 منديله قطع من الكبد ! ...
 واذا ترق تقول « بعد غد » !
 متزمل بالداء مغنم !
 اما اجمل قصيدة له في الوصف ، من اتى عثرا عليها ، فهي « المهاجر » ،
 وان لم تخل من بعض الشوائب . جمالها قائم على الاخص بوفرة الخيالات
 المبتكرة الطبيعية . يقول الناظم في اولها مخاطباً المهاجر :

اشجاك انك رائح لا ترجع ،
 متلفت ؛ ما تبتغي ؟ متوجع ؛
 تلك الزغليل التي غادرتها
 لا الريش مكتمل ، ولا اوكارها
 وهواك والاوطان بعدك بلقع ؟
 ما تشكي ؟ متنصت ؛ ما تسمع ؟
 جف الثدي ومات عنها المرضع !
 خضر ولا السجع البكي^٢ يشقّع^٣ !

(١) القصد من العوسج ونحوه هو اغصانه الناعمة - (٢) الكثير البكاء -
 (٣) تقبل شفاعته .

ولكنت تسفك ناظريك ليرتوا
 جرس الكنيسة لو تكلم لاشتكى
 الجوزة الخضراء بعدك صوحت^١
 تقضي الى النسبات في غدواتها
 لو في الاالي خذلك بعض حنانها ،
 لله انت مغرباً^٢ ومشرقاً ،
 حتى اندفعت ، فكل صخر روضة -
 وفتحت فتح العبقرية تاركاً
 قد اجاد الخوري صوغ الشعر الوطني اجدته الرواية والوصف ، ولا
 سيما في نشيد لبنان ذي الوزن السريع كخطى جيش حامل على العدو ، او
 كصيحات عالية متتابعة مثل قصفات الرعد ، ملتزمة بنار الحماسة ، ملؤها
 الافتخار بمجد لبنان والغيرة على الذود عن حماه . ها كم لازمته ودورين منه:
 لبنان ، لبنان !

حرم الارز ، علم المجد ، وطن الاحرار ،
 سلام !

الجمال رصعاً بازاهير رباك ،
 والجلال توجاً بمصابيح هداك !
 واليراع والحسام في الملمات الجسام ،
 كل آن ، كل آن

ذائدان عن علاك ، حارسان للواك !
 نحن في السلم ابتسام وصفاء ووفاء ،
 واكف من غمام ووجوه من حياء ،
 واذا دق النفير ، نملاً الغاب زئير

(١) جففتها الشمس او الريح - (٢) المغرب هو المتجه الى الغرب .

وحديداً ودخاناً !

مات من رام اذاك ، عاش من مات فذاك !

تلك اجمل انواع الشعر التي عالجها الاخطل الصغير ، وكثيراً ما بلغ فيها ، ولا سيما بالطبيعية والابتكار ، ذروة من النبوغ لم يدركها معظم شعرائنا العصريين . على انه لم يتمالك عن الاقتداء بهم في نظم قصائد المدح والثناء عند سnoch الفُرس ، وهي اكثر من ان تُعد في الشرق العربي . والحال ان كل خبير في كنه القريض وسمو غايته بعلم العلم اليقين انه بعيد عن المدح والثناء بُعد الثريا عن الثرى ، الا في بعض الظروف النادرة التي يفيض فيها عفواً من اعماق فؤاد الشاعر ، لا من شفثيه او اسلة يراعه فقط . بذلك الاكثار من تعظيم الاعيان في حياتهم وندبهم بعد مماتهم ، قد ضم الخوري الى درره اليتيمة ، الجديرة باعجاب الثقات ، كمية كبيرة من اللؤلؤ البهرج الذي لا يروق سطوعه الا عيون الاغرار . من امثال خطل الاخطل الصغير قصيدته للترحيب بملك العراق الطفل ، فيصل الثاني ، عند قدومه الى لبنان للاصطياف سنة ١٩٣٩ . نجد فيها من انواع المبالغة والتصنع ما بوهنا ان ناظمها ليس بشارة الخوري ، الشاعر المبدع الصادق الشعور ، بل سميماً له . في البيت الثاني يخاطب سيارة الضيف الجليل ، صائحاً بها ، وهو لا يابه لتكلفه المضحك :

يا سليل البخار ، كم من فؤاد ود لو كان بين جنبيك وقدا !

ثم يتطرق بمثل ذلك التصنع الى ذكر النكبة التي اودت بحياة والد فيصل الثاني ، وهو راكب سيارته في احدى ليالي نيسان ١٩٣٩ :

يا ابن من اذهل النجوم اذ انقض شهاباً على الثرى وتردى ،
مانسينا جرحاً على الليل ، امست فحة الليل منه جمرأ وندا !
قطعت شعرها الكواكب كي تمسح جرحاً وكي توسد خدا ،
وانحت كل نخلة كجناح اخضر الريش ، ود لو كان زندا .

نجد تلك العيوب ذاتها في رثاء الخوري لوديع عقل :
 العبقريّة ، ما حييت ، جناية* ؛ فخذ الذمام لها من الحاد ؛
 تمشي على حسك الصدور وشوكها وتثلف بعد الموت بالاوراد ؛
 وايم الحق اننا لعاجزون عن تصور حقيقة ذلك المشي الغريب . ثم
 يبدي الناظم رأياً غريباً ، فيزعم ان العدم خير الانسان من الحياة :
 تالله ما معنى الوجود - وحكمه حكم الفناء وامره انفاد -
 الا مشقات الطريق الى الثرى بين الاسى وتفتت الاكباد ؛
 ان حياتنا ليست خيراً من العدم فقط ، بل هي من اسمى عطايا خالقنا
 الحنان ، اذ ننال بحسن استثمارها حق مشاركتها الى الابد في سعادته الفائقة
 كل الادراك ؛ ولا نظن الخوري الا على هذا الرأي . يقصد تعظيم وديع
 عقل ، فيلجأ الى المبالغة المقرونة بالتصنع في الخيالات :
 ايقام وزن* للبيان ، وقد رمى سهم النية منه قلب الضاد ،
 فتقطعت مهج* وفاضت اعين* رمت الحدود بكل اوطف* صاد ؛
 مطر* كما انتثر الجمان على اللظى وتكسر البلور* في الاجياد ؛
 لا نرى مثل تلك المفاخر في رثائه لنصير المرأة الشهير ، المرحوم مختار
 بيهم . فنعلل ذلك بكون الشاعر قد اخرج ذلك الرثاء من صميم فؤاد مفعم
 باحر عواطف الاجلال والمحبة للفقيد العزيز ، فأنت قصيدته مضطربة بلهيب
 شعوره ، مزدانة بابدع حلى الابتكار الطبيعي ، ولا سيما اذ يندب بيهم
 قائلاً عنه :

الذي كان خادماً لبلاده	الذي كان جذوة تتوقد ،
الذي كان صافياً كالغدير ،	الذي كان ماضياً كالهنند ؛
الهميني ، يا ربة الشعر ، شعراً	كالنور والنار ،
كالهوا ، كالاطيار ، كالفكر حرّاً ،	كنفس مختار ؛

(١) نفت للسحاب الداني الى الارض - (٢) البلور استعارة بمعنى الدمع .

كالاعاصير ، ان دعتة البلاد وخافت العار ؛

كالازاهير ، ان دعاه الوداد وحرمة الجار ؛

حبذا الرثاء الصادق ، الآخذ بمجامع القلوب ، فانه آية في نوعه !

قد اطلنا الكلام في تحليل معاني شعر الاخطال الصغير ، مع التمييز بين غثها وسمينها . اما تعبيره فهو على جانب عظيم من العروبة ، بغض النظر عن بعض فلتات قلمه السيال ، كاستعمال جوانح بمعنى اجنحة ، ووديان بدلاً من اودية . نجد ايضاً في انشائه من الوضوح والانسيجام ما يستحق اوفر التقريظ ، ولا سيما ان اكثر شعرائنا ذوو مؤونة يسيرة من هاتين المزيّتين ؛ ولا بدع بذلك فان الغموض والتعقيد لا يُتعبان قرائهم المتكاسلة ، فيصوغون عشرات من الابيات بدون عناء يُذكر ، ناسين او متناسين ان قيمة السلعة المادية او الادبية تقاس بما كلّف إحداثها من جهد الانتقان .

يسرنا ايضاً اشد السرور ما نشاهده في الغالب عند بشارة الخوري من الابتكار في الخيالات ، مما يندر وجوده عند غيره بهذه الدرجة العالية ؛ وقد ذكرنا في الصحائف السابقة امثلة عديدة على ذلك الابداع . بيد ان نزاهة النقد قد اضطررنا الى مؤاخذته على تصنعه في هذا الشأن ، ولا سيما في القصائد التي لم تتفجر كينابيع الماء الزلال من قلبه النبل الرقيق ، بل قد اخرجها من ثغره او قلمه في مواقف المدح والرثاء ، وكذلك في الوصف غير المبني على دقة المشاهدة بل على جماح الخيلة ، كقوله في وصف زحلة ونهرها ونجد البقاع المتاخم لها :

اسرفت في فتن الجمال كأنما	تخذ الجمال على ذراك منابرا ...
والنهر روح العاشقين ودمعهم ،	مُلقي على قدميك ، يلهث خائراً ؛
سالت جراحات الهوى في صدره	ليلاً ، فقبّلها النسيم محاذرا .
والسهل يحلم ، منذ كان ، بزورة	لبس الحلي لها ندى وازاهرا ،
لو كان يمكنها الرّبي ، لتساقبت	لاعزها ، تسعى اليك حواسرا ،

وتقطعت خُصل الحسان وثُثرت بدل الكروم على التلال غدائراً .
خلاصة القول ان بشارة الخوري ذو شاعرية متميزة في جوهرها ،
محلاة في الغالب بالابتكار الطبيعي في قصائده الصادرة عن الهام صحيح ، على
انها تنحرف احياناً بالناظم الى المواضيع المبتذلة التي لا يحثه وجدانه على
معالجتها ، بل الفُرص السانحة والحفلات المقامة . فلو مال عن النوع الثاني
من شعره الى الاول ، لارتفعت منزلته في عين الثقاة وزادت حصته ،
الوافرة على كل حال ، في اعلاء مستوى قريضنا العصري .

شَبلي المِلاط

ليس من الادباء من يجهل شبلي المِلاط الشاعر اللبناني العزيز المادة ،
السريع الخاطر ، الكامل العروبة . قد مثّل جبل الارز في وادي النيل في
بعض اسواق عكاظ العصرية ، ونشر في بيروت سنة ١٩٢٥ « ديوان المِلاط »
الحاوي في قسمه الاول طائفة غير يسيرة من شعر اخيه تامر .
هو كثير المدح والثناء ، فنجد نحو خمس عشرة قصيدة من هذين
النوعين في ديوانه ، وهو عدد فاحش اذا قيس الى بقية انواع القريض التي
عالجها . لا نضيع الوقت في انتقاد ثنائه على بعض العظماء العائشين على سطح
الغباء او الراحلين الى الديار الابدية ، لاننا نعهده عند الشعراء قاطبةً من
الشعر المبتذل ، الذي حان لنا نحن الشرقيين ان نوصد ابوابه ونطرق غيرها
بدافع الالهام الحر النبيل ، فيمسي قريضنا براءً من تهمة التراف السافل
والانتفاع الذميم .

قلما يقف شبلي نظمه على وصف الطبيعة ؛ وان اقدم على ذلك في بعض
المواقف ، فعلى وجه العرض . لكنه يجيد احياناً وصف الحوادث والاحوال

كل الاجادة . من اجمل ابياته الوصفية ما جاء في « مطوقة القطرين » حيث
يصور لنا احوال الحرب العالمية الاولى :

اعزز على عصر التمدن ان يرى	جيو السلام ملبّداً بقتام ،
ومن الجبال على البحار صواعقاً ،	ومن القذائف للصدور روامي ،
ومن الصوافن للعجاج صواهلأ ،	ومن الصوارم للنجيع ظلومي !
ارق الممالك في العيون تمدناً	اوفي مُعدّات ايوم صدام .
ومن البلية ان نرى همجيةً	طلّيت دهان تمدن نمام ؛
بيننا ننادي بالسلام ، اذا بنا	نمشي على جثث تُدق وهام .

قد ابداع كذلك في المقابلة بين هناء الموسرين وضيق المعدمين ، وقد

صاح بالفريق الاول في « مجاعة رومية » :

هم للانين على الشقاء ، وانتم	لخفيف ثوب اورنين سوار .
هم يرشقون من الدموع ، وانتم	بين الكؤوس ورنه الاوتار .
هم ينزعون الى الرغيف ، وانتم	تتناولون الخبز بالقطار .
هم بين اشواك الحياة ، وانتم	فوق الصدور منابت الازهار .
انتم باثواب الحرير ، وهم كما	وُلدوا ؛ وان سعدوا في اطمار .

الملاط مشغوف بحب وطنه ، ميّال الى الترنم بمجده التليد والطريف ؛
فلا بدع بان نرى في ديوانه بعض القصائد الوطنية الحارة اللهجة ، الشديدة
الوقع في القلوب ، مما يثير فينا الاسف لقلتها . « على ذكر اول ايلول » تحوي
هذه الابيات الرائعة ، التي موضوعها عيد استقلال لبنان :

قد رد مجدأ على لبنان من قدم	وذكر الناس بعضاً من معاليه ،
ايام كانت مواضيه له لبداً	والدهر يحذر ان تُنضى مواضيه ،
ايام كانت مغانيه ممتعة ،	وحولها اجمات من عواليه ،
ايام كانت عن الدنيا وما نفقت	من السموم مصونات غوانيهِ !

يصور لنا في القصيدة « ومشيتهما علمين في علم » رمز الراية اللبنانية

القديمة ، الحاوية ارزة في بياض العلم الفرنسي ، الى عهد الصداقة القديمة
بين بلاده وفرنسة ، فتجيش عاطفته الوطنية وتنفجر من اعماقها هذه
الابيات البديعة :

دفن الزمان بارزتي قِدمًا مجد الشباب وحكمة الهرم ،
وصبرتُ والاحيال ذاكرةُ ما في الثرى من ذلك الشمم ،
حتى شهدتُ اليوم معجزةً ورأيتهَا بُعثت من العدم !
ان كان فرق بيننا زمنٌ ماض طويناه على الم ،
فاليوم عارٌ ان نعود الى ضيم حملناه من القدم ،
عار يزول دونه جبلي ويضيق ساحله عن الرم !

شبلي وطني صميم ، فلا يملك نفسه عن اشد الاعجاب بالابطال الذين
خاضوا غمار الاهوال في سبيل عز بلادهم المهددة بالنكبات . « من لبنان الى
مصر » موقوفة على تعظيم البطل المصري الخالد سعد باشا زغول ، الذي وضع
باكبر التضحيات حجر الاساس للمملكة المصرية الحديثة . من اذن ما ورد
في هذه القصيدة وصف حماسة الطلاب المصريين وجهادهم لاعلاء شأن
قُطر الفراعنة :

وفي المدارس اشبال كأنهم ، وقد غلوا بدم حر ، مشاعيل !
لا السيف ثان ولا التهديد عزمتهم ، ولا دم حول ما شاؤوه مطول !
اما نوع الشعر الذي نرى قريحة الملائم اليه بجاذبية ينذر العثور
عليها بين شعرائنا المحدثين ، فهو الرواية المسهبة ، الكثيرة الحوادث ، ولا سيما
الغرامية ؛ نشهد للناظم بالمهارة في سردها ، بغض النظر عن شيء من التطويل
التافه الممل في بعضها . يحتوي ديوانه خمساً من تلك الروايات ، يشغل
بمجموعها نحو خمسين صفحة ؛ ها كم بعض التفاصيل في شأنها .

« الوردة الذابلة » تمثل لنا صبية ماتت في ريعان صباها لفرط حزنها اذ
وقفت على سوء سلوك والدتها المبيحة عرضها . « الجمال والكبرياء » تقدم لنا

بنت صياد ، ساحرة الجمال ، اسكرتها خمرة الكبرياء ، فظلت ترد كل القاصدين تزوجها ، ومن جملتهم ابن صياد هام بها اشد الهيام ، فاعرضت عنه . ذات يوم ركبت زورق ابوها ، فخرى لها من الحوادث الفجائية ما جعلها في خطر الغرق ، فانقذها منه ذلك الفتى وعالج اغمائها حتى صحت ، فراعها بذل ذاته بعد رذلها اياه ، وشئت فيها نار حبه ، فصاحت به : « انت لي وانا لك ! » فاجابها هذا الجواب الخشن المذل : « لم اكن نحوك الا محسناً ، لا محباً » ، ثم ابتعد عنها .

« خولة بنت الازور واخوها ضرار » هي صفحة من اجمل صفحات تاريخ العرب ، ولعلها رواية شبلي المثلثي لرشاقته في سرد حوادثها العديدة . تصف لنا بطولة خولة اذ خلصت من الاسر اخاها ، بعد معركة بيت لها ، حيث كان يقود جيش خالد بن الوليد في محاربة وردان ، صاحب حمص ، الزاحف على دمشق .

« بين العرس والرمس » تبين لنا ما يؤول اليه من سوء المغبة تزويج الفتيات القسري باحد الاغنياء . « بين اليمن والشام » تدور حول ذلك المحور ذاته .

يتضح من هذه التفاصيل ان روايات الملائم مغازي سديدة ، نبيلة ، تنير بعض مسالك الحياة الوعرة بضياء المبادئ السامية ؛ فخبذا المرمى وايت كتماننا الروائيين يحذون حذو شاعر الارز في ترقية النفوس ، عوضاً عن اسقاطها ، بوصف اقبح الشهوات والجرائم ، في مهاوي الغواية الفاسقة ، المتسترة بنقاب الحب ، وهي ابعد شيء عن مكانته الرفيعة .

قد حللنا المواد الشعرية في ديوان الملائم ، فلم يبق علينا سوى ابداء رأينا في شأن تعبيره . لا شك في انه ممتاز بالعروبة والتنوع ، فان الناظم متضلع من لغة الضاد ، وذاكرته الامينة حافلة بالآلاف من مفرداتها الدقيقة المعاني وجملها اللبقة الماثورة . كل ذلك مزدان في اكثر قصائده بحلية

الانسجام ، التي لا بد منها اسرعة فهم القاريء ، وعلى الاخص لطربه
الكامل بجمال الشعر .

مع ذلك لا نرى تعبير الملائخ خالياً من العيوب ، واكبرها الابتذال ،
ولا سيما العجز عن ابتكار الخيالات ، والاكتفاء في اكثر الاحيان بتقنية
آثار الاقدمين ، واعادة تشابيههم واستعاراتهم الهرمة ، البالية ، التافهة لكثرة
ورودها ، فهي اشبه بالزهور الذابلة ، لا نضارة لها تروق العين ولا عبير
ينعش القلب . لا نزال نرى في ديوان شبلي تلك التعابير المبتذلة ، من امثال
« تهادي الفتيات كأكس البان » ، « مفاخرة زهر النجوم » ، « المشي على هام
الحقب » ، « الافتراء عن مثل الدرر » ؛ ولولا الخوف من اخجار قرائنا ،
لذكرنا عشرات من تلك النمودجات . نرى عدداً غير يسير من نظائرها في
مدح الملائخ لنجيب بك سرسق :

ان يكُ المال سُلماً المعالي ،	فنجيبُ اذاً برأس السُلْمِ ؛
او يكُ العقل حلية ، فنجيبُ	يتحلى منه بعقد منظم ؛
او يكُ الفضل للكريم وشاحاً ،	فنجيبُ ابو الوشاح المنمّم ؛
او يكُ العلم زينةً ، فنجيبُ	يزدهي منه بالطراز المُعَلَّم .

فضلاً عن ذلك الابتذال المفرط ، نجد في ديوان شبلي كثيراً من
المبالغة المستهجنة في قريض شاعر عصري ، وان كانت مما يُغض عنه النظر
في نظم القدماء ؛ اليكم بعض الامثلة على تلك المبالغة الفاحشة . يقول الشاعر
في مدح الامير ميشال حبيب لطف الله « ماشئت نلت ، ولو أن السُّهى
سُؤل ! » ، وفي وصف حملة :

يتسابقون الى الفتوح كأنهم	فوق السروج رواسخ الاطواد !
وفي وصف فتاة :	

ولو أن البها استحال مُصلّى ،	لم يكن غيرها به يتجلى !
ملكٌ فر من جنان الخلود	حاملًا راية الهوى للوجود ...

ذلك شعر الملائكة بحسناته وسيئاته ؛ ومن اكبر مغامره ان اكثر قصائده قد نُظمت لفُرس سانحة وحفلات مُقامة ، كأنها المورد الوحيد او الامثل لالهام الشاعر ، حال كوننا لا نجد بين نوابع شعراء الغرب ، الذين تُرجمت آياتهم الخالدة في اشهر اللغات ، شاعراً واحداً استقى معظم قريضه من ذلك الينبوع الشحيح ، السريع النضوب ، بل من الطبيعة والحياة ، يحاول حل الغازها فكر متوقد عميق ، ويخفق بافراحها واحزانها قلب شريف حساس .



حليم دموس

في « المثالث والمثاني »

نشر حليم دموس ، الملقب بشاعر البردوني - وهو نهر مدينة زحلة في لبنان - ديوانه « المثالث والمثاني » في جزئين ، صدر اولهما سنة ١٩٢٦ ، والثاني سنة ١٩٣٠ ، وقد ضمنهما عشرات من منظوماته التي طالعها الجمهور بادىء بدء في بعض اشهر الجرائد والمجلات . قرأنا هاتين المجموعتين بعين الناقد ، التي ينبغي الا يفوتها امر ذو بال من الحسنات ، فضلاً عن السيئات ؛ فها كم خلاصة ملاحظتنا في شأن شعر دموس .

قد افسح المدح والرثاء مكاناً ارحب من اللازم ، على رأينا ، مع انه اضيق منه في دواوين كثير من رصفائه ، حتى المشاهير . وما يشفع في ذلك الاكثرار بعض الشفاعة هو محاولة دموس الابتكار في ذلك النوع المبتذل محاولة ماهرة في الغالب .

معظم شعره الجدير باسم الشعر موضوعه الوصف . قلما يصف محاسن الطبيعة ببعض التفصيل ، الا في قصيدته « من مشاهد لبنان » المزدانة

بابتكار غير يسير في الخيالات :

صنين يُشرف من علٍّ في عزة المتمرد ؛
والغيم بين مفضَّض ومذهَّب ومورَّد .

لقد ابدع كذلك في وصف عاصمة الامويين ، الغنية بآثار
مجدها التالذ :

دمشقُ ، احبك حب الشباب ، ففيك جمال الخلود ازدهرُ ،
فكم من قصور لحالي عصور ، وكم من رسوم وكم من اثر !
وكم من رموس ملوك عظام ، وكم من عظام بتلك الحُفر !
هنالك ساحٌ لاهل التقى ، هناك مزار ، هناك مقر ،
هنا بيت مجد سما وانطوى ، هنا ظل مُلك تبدَّى ومر !

نسمع مثل تلك اللهجة في « وقفة امام قيسون » ، بيد ان شاعر
البردوني اشد كلفاً بوصف الاحوال النفسية ، وقد يجيده كل الاجادة .
يصف في « الطائر الازرق » بعض مناهل السعادة الحقيقية ، فيقول انها
في الموج عند هديره ، في النهر عند خريره ، في الطير حين تصفقُ ،
في الفكر وهو منسَّق ، في النثر وهو منمَّق ، في الشعر وهو مرقَّق !
هو مقلة ترنو الى متوجع ؛ هو مهجة باخي الاسى تترفق !
يصف في « الامومة » اسمى حب طبيعي خفق به قلب انسان ، فيعظم
الام مترنماً بماثر بذل ذاتها الرائع :

لا خداعٌ في حبها ، لا ادعاء ، لا ملال ، لا نقمة ، لا استياء ،
لا نفاق ، لا رية ، لا رياء ؛ ان خير الصفات عند الامومة !

يصور بريشة الفنان البارع « الرائد » الذي انقبض صدره في محيطه
المألوف المبتذل ، فتاق فؤاده الى فتح آفاق جديدة ، مستخفاً بما يعترضه في
سبيلها من العقبات :

يطير الى القطب الشمالي صاعداً ، وفي البحر هول القبر في فجواته ،

ويهوي الى القطب الجنوبي هابطاً ، يشق حجاب الغيب في خطواته !
كما احسن وصف القمار والخلاعة وصف المشاهد المحضة في « لياي
صوفر » ، قد اتقن تصوير الرحمة تصويراً خيالياً رمزياً في قصيدته الجميلة
« ان في الرحمة لحناً خالداً » ، و يروقنا ما نجده من الدقة والابتكار في
وصف « الطيار » و « المهاجر » .

بجانب تلك القصائد الوصفية ، التي يتضمن بعضها عبراً سامية ومغازي
شريفة ، قد عالج دموس فئة من المواضيع التهذيبية المحضة . « يا ابنة اليوم ويا
ام الغد » ارشاد محض يحث به الشاعر فتاة بلاده على اجمل الفضائل الموافقة
لحالتها ، بل الضرورية لحسن قيامها بوظيفتها الخطيرة في المجتمع :

منك امي ، منك اخي والحليله ، منك نرجو نزع آثار الرذيله ،
منك نرجو لمع انوار الفضيله ، يا ابنة اليوم ويا ام الغد .
« يا فتاتي » بمثابة عظة يحذر فيها الصبية من بهرج زخارف الدنيا ،
لئلا تنصل عقلها وتفسد قلبها المطبوع على الطهارة وبذل الذات ؛ اليكم خاتمة
تلك القصيدة ، وقد ضمت سمو الفكر الى جدة الخيال :

ارى ايامنا تأتي وتمضي كنغمة طائر وخير ماء ،
ولا يبق سوى ذكر جميل ، يفوح شذاه في هذا البقاء ؛
ففي اجسامنا معنى فناء ، وفي ارواحنا معنى الحياة !
يطربنا الاصغاء الى مثل هذه الابيات الحكيمة المزدانة بعدة خيالات
مبتكرة في « الحق للحق » ، « مكارم الاخلاق » ، « دولة الشعر اعظم الدول » .
في ميدان التهذيب نرى دموس اشد ولعاً واطول باعاً في اغراء سامعيه
وقرائه بحب وطنهم لبنان ، العظيم بتاريخه ومركزه في العالم العربي ، وان
يكن صغيراً بمساحته وثروته المادية ؛ يجرضهم على الاتحاد والتآخي ، فانهما
الاساس الراسخ الوحيد لدوام استقلاله . قد عبّر عن هذا الرأي الرشيد في
« ذكر اول ايلول » :

والعلم والدين شتى في طوائفه ؛ فهل توحّد اخلاق واميال ؟
شبابه من وراء البحر يرمقه ، ودمع من فيه هتّان وهطّال !
والماء يذهب هدرأً في جوانبه ، والخير في الماء مثل الماء سيّال ؛
لا مال يكفيه ، لا فنٌّ يعزّزه ؛ يستقل ولا فنٌّ ولا مال ؟
ارق تجلي عاطفته الوطنية المضطربة في « ذكرى الشهداء » ، الذين
امرت تركية العاشمة بقتلهم ابان الحرب العالمية الاولى ، ولا ذنب عليهم سوى
شغفهم بلبنانهم العزيز المفدى :

ذكريني ، يا ساحة الشهداء^١ ، ذكريني باخوتي الادباء ،
ذكريني !

ذكريني بنخبة الاحرار وازاهير روضنا المعطار ،
ذكريني !

شهداء عاشوا وماتوا كبارا ، وتواروا ليلاً كبرق توارى
عن عيوني !

تلك الوطنية الصادقة المتأججة يروعنا نداؤها العالي المؤثر في « الشاعر
والعلم » ، « العيد في الوطن » ، « قبل ذلك » ، « الثروة بالثرى » ، « نشيد
حزب التضامن الوطني » ، وكذلك في « لبنان » ، يا جنة هذا الوجود ، حيث
يصيح بفتى بلاده :

تملح الشرق وعاف الكرى ؛ فانهض ، فتي لبنان ، كالناهضين !
واربأً باوطانك ان تُقهرها وكن لها الحصن المنيع الحصين !
بقدر حب الوطن يتجلى للعيان هيام شاعر البردوني باللغة العربية .
رأى كثيراً من مواطنيه قد اهملوا ، بل نبذوها ، مائلين الى غيرها من السن
الغرب ، ولا سيما الفرنسية والانكليزية ، فثارت حفيظته وهب يندود عن
لغة قريش الجليلة الشيخوخة ، مترنماً بحاسنها وماثرها على عوده الشعري

(١) اسم ميدان في بيروت قتل فيه الاتراك شهداء الوطنية .

الرخيم ، لعله يوقظ اولئك النيام من سباتهم الطويل . وايم الحق قلما نرى
ائمة القريض المحدثين ، ما عدا شاعر النيل والياس فرحات ونفراً سواها ،
يناضلون بمزيج رشيد من الحزم والزفق ذلك النضال النبيل . في « لغة
الاجداد » يصف لنا دموس شغفه بلغة الضاد :

لا تلمني في هواها ؛ انا لا اهوى سواها !

ما لقومي ضيعوها ، فدهاها ما دهاها ؟

في « الحنين الى بغداد » ، التي يلوح اول وهلة ان موضوعها بعيد عن
العربية وازمتها الحديثة ، لم يتمالك عن هذه الصيحة :

لو لم تكن ام اللغات هي المني ، لكسرت اقلامي وعفت مدادي !
في « لغتي » يحاول اشراب نجله ذلك الحب النبيل :

وانت ، يا ولدي ، يا من احب ومن اهفو له كلما وجه الصباح بدا ،
لا تعشقن سوى ام اللغات وكن فيها ، كما اتعنى ، شاعراً غردا ؛
فان نشأت ولم تعشق بلاغتها ، لا كنت لي املاً ، لا كنت لي ولدا !

تلك بعض ابيات من اناشيد هيامه بملكة الالسن الساميّة ؛ فلعل
الصُم والمتصامين يسمعونها ، فلا يكون كالضارب على حديد بارد !

بجانب العاطفة الوطنية ، التي هوأه للغة الضاد عنصر من عناصرها
الجوهرية ، نشاهد في ديوانه عدة مجال لركة شعوره الابوي ، مثلاً في قصيدته
« سلوى » ، حيث يصف لنا بنته ، صاحبة هذا الاسم العذب ، وهي في
عامها الاول :

دموعها طرب ، بكأؤها ابتسام ؛

جذلى ولا سبب ، غضبي ولا انتقام .

نُعجب بذلك الحنو الوالدي ، حين يصورها لنا « في عامها الثالث » ،
وبحبه الشديد لزوجته في حديثه عن « الرصاصة الطائشة » التي كادت تُذبل
زهرة شبابها الفاغمة النضيرة . تلك رواية شعرية قد اتخذها وسيلة للتعبير

عن هواء لرفيقة حياته ، ولم نجد لها في ديوانه مثيلاً الا « في غاب بيروت » ،
مما يدل على عدم ميله الى القصص المنظومة .

قد اعرض عن معالجة المواضيع الفكرية المحضة ، لصعوبة افراغها في
قالب شعري ، فلم يحد عن موقفه هذا الا في قصيدته « اما يحنّ للشعر ان
يتجددا ؟ » حيث يرثي امر الرثاء لسقوط معظم قريضنا العصري الى حضيض
الثناء المفرط على الاحياء والاموات :

وقفنا بحور الشعر للمدح والرثا ، فضاع بليغ الوصف بينهما سدى ،
على ان اغراض الحياة كثيرة ، اراها من التمداح انبل مقصدا ؛
حسبنا بالملاحظات السابقة بياناً لانواع المواضيع التي تناولها دموس ؛
بقي علينا ابداء رأينا في صفات تعبيره . من اكبر مزايه العروبة الصرفة مع
الوضوح الكامل والانسجام اللذيذ ، فضلاً عن نبذ الالفاظ المماتة ، التي
نراها في الانشاء كالحجارة الضخمة على طريق معبدة . من محاسنه ايضاً
بعض الابتكار في الخيالات ، مثلاً في قصيدته « بين عامين » :

اطلّ عام وانطوى	كمئدرج في كفن ؛
وافى وحيّاً ومضى	كأنه لم يكن !
ولّى وهذا غيره	يطرق باب الزمن ،
ملثّم ، ملفّع	ببُرْدَة كالدمن .

نمدح إقدام دموس على ابداع شيء ، ولو يسيراً ، من الاوزان الرخيمة ،
كما في قوله لبُنيته :

يا سلوتي في خلوتي
وطُرفتي في عُرفتي ،
ليحمك الرحمان !

من حُلَى انشائه ما تسوغ تسميته المحاذاة ؛ نعي بذلك جعل شطري
البيت متقابلين كلمة فكلمة ، ولا سيما على وجه التضاد ، كما في قوله :

فكل آت لنا في صدره امل* ، وكل ماض لنا في صدره اسف* !
اما المعاييب فكثيرة ايضاً ، وفي مقدمتها الابتذال مقروناً بالمبالغة الفاحشة
في قصائد عديدة . يقول مثلاً عن اللغة العربية :

نحن لولا الدين نهواها كما نهوى الالهة !

وفي ترحيبه بوفد قادم من البرازيل :

قعد الموج بملقاكم وقاما ومشى لبنان وجداً وغراما !
وفي وصف القطار :

اثار دخانه في الجو نقعاً ، كأن له على الافلاك ثارا ...
ولولا سلكه بلغ الدراري وحلق في نواحيها وطارا .
وفي رثاء سليمان البستاني :

دنا الى ثراه في مركب يجري ؛

يا من رأت عيناه بحرّاً على بحر .

لا نكاد نقرأ صفحة من نظم الشاعر بدون العثور على تلك الخيالات
الهرمة ، البالية ، التي هي اخرى بان تُلقي في سلة المهملات ، من امثال
« جياذ المنايا » ، « جيش الرزايا » ، « بلبل الشعراء » ، « غادة تحكي ظبياً »
و « شمل الاحبة كعمقد تنظم ثم انتثر » .

ان لم يشن خيالاته الابتذال التافه والغلو الطفلي ، فكثيراً ما يشوبها
فساد الذوق على اوجه اخرى ، وعلى الاخص التصنع ، نحو قوله عن
الكتاب : « انت روض على يدي حملتك » ، وعن جراح شفاه بعملية ماهرة :
« مباحض الطيب اقوى من الاقلام » ، الى غير ذلك مما يطول بنا تعداد ،
كتلعه بالالفاظ في مواضيع جدية ، خطيرة ، لا يليق بها ذلك العبث .
يقول مثلاً في قصيدة بيّن فيها تقهقر التمدن الصحيح مع تقدم
العلوم في عصرنا :

السلم يُضرب ثم يُطرح خارجاً والحرب تقسم والمنية تتجمع .

يتوهم ان من معجزات البيان كونه قد اشار في ذلك البيت الى عمليات الحساب الرابع . نرى مثل هذا الشطط في كلامه على المهاجرين :

اثن هجروا الربوع ، فكم اتوها على بحر الهوى فوق السفين !
وعن خلين قد حظيا باللقاء الشهي :

تجاورا بعدما طال النوى ، فهما لامٌ تعانقها في عطفها ألفٌ .
تلك اكبر مساوى التعبير في ديوان شاعر البردوني ، وهي غير يسيرة .
اما مواضع شعره ، فعييبها الواضح ، مع غض النظر عن الافراط في المدح والثناء والتهنئة ، هو كون الناظم قلما يقتبس الهامه من صميم الحياة ، مع كونها مورده الاغزر والاعذب ، بل يطلبه في الغالب من القرص السانحة لالقاء قصائده على الجهم الغفير المحتشد في حفلات يدعو الى اقامتها انشاء جمعية او فتح مدرسة او استقبال ضيف جليل وما شاكلها . ان ذلك لعمرى عجز شائن في القريحة ، ولا سيما الشعرية ، لا نجد له اثرأ في نوابع شعراء الغرب ، وقد فشا وتفاقم حتى بين اشهر شعرائنا .

فضلاً عن ذلك الفقر في الالهام ، نرى المواد التي عالجها دموس قليلة ، وان بذل قصاره ليوم القارىء انها كثيرة بثيرة . قد تذرع لذلك بحيلة لا تجوز على كل ذي عينين ، وهي حشو جزئي ديوانه بنحو مئتي صورة ، ليس لها في الغالب ادنى علاقة بقصائده . معظمها رسوم ادباء من عدة طبقات ، وبينها الوسطى والدون ، مصحوبةً بنموجات من خطوطهم الكريمة ؛ ومن المضحك المبكي ان دموس لم يختار منها سوى ما يحوي احر عبارات التقرير لشعره ! هنا يبلغ فساد الذوق اقصى مداه ، وقد اسقط الشاعر فيه فرط اعجابه بذاته .

اذا استطاع شاعر البردوني ان يُقنع السذج ، بواسطة هذه الخزعبلات ، انه قد ادرك اوج الفن الشعري ، فالخبراء باصول الادب العالي احذق من ان يتخدعوا بها ، فهم يعدونه من الطبقة الوسطى ، طبقة الدور

الانتقالي الحاضر ، التي لم تكسر سوى بعض قيود تقليد الاقدمين ، فلا تزال ، مع بعض الابتكار في المعاني والمباني ، بعيدة عن الالهام الشعري المحض والابداع الكامل في التعبير ، اللذين نشاهد نموها في نوابغ شعرائنا الاميركيين .

الياس ابي جبك

في « القيثارة »

الياس ابي شبكه اديب لبناني معاصر ، غزير المادة ، حار اللمحة ، نشر مقالات وقصائد عديدة في الصحف ، وعرب بضع مسرحيات هزلية للكاتب الفرنسي الشهير موليير (Molière) ومؤلفين للشاعر لامرتين وروايتين لبرنردان ده سان پيار (Bernardin de St Pierre) . له ديوان «القيثارة» المطبوع في بيروت سنة ١٩٢٦ والحاوي كمية كبيرة من شعره . من مميزات ذلك الديوان ان كل مواضعه تقريباً ليست مواليد الظروف السانحة والحفلات المقامة ، بل صادرة من اعماق روح الناظم ، كانشقاق الزهرة من كمنها وتفجر الماء من ينبوعه . بعبارة اخرى هي شعر الشعور الصادق ؛ وانما اطلق العرب على القريض اسم الشعر ، وهو مرادف للشعور ، دلالة على جوهره الثمين . بيد ان العاطفة المسيطرة على « القيثارة » ونعمة اوتارها المعتادة هي الحزن الشديد ، كما اعترف الشاعر بقوله :

تمر على قيثارتي نعمة الـاسى ، فتصعد من اوتارها نغمة الشعر .
لا نزال نسمع من نفسه الراحة تحت وطأة امر البلايا والـاوجاع ،
انيناً مرأً ، فيه شبه حشجة المنازعين ، متصاعداً من اعماق فؤاد ذبلت
زهو آماله في ربيع الشباب ، فزقته وادمته اشواك الخيـمة المضنية والـياس

العضال . فعاف حياة ما فتئت تتخذه بسراب لذاتها الباطلة ، فزادته عطشاً
مذياً الى السعادة التي يصبو اليها بكل قوى نفسه ، ويسعى وراءها بأقصى
جهوده ، وهي كالعنقاء خيال مبهم ، بعيد المنال ، ضاقت مذاهب الشاعر في
محاولة ادراكه ، فقال في « ما بعد منتصف الليل » :

ان قلبي مأوى لكل عذاب ، قد اواه الضنى بلا استئذانه . . .
افعم الكون بالعذاب حياتي ، فلم تآقت الى اكفانه !
وفي « دعيني اموت » :

دعيني اموت ، فخطي التعيس هوى مع كوكبه الآفل ،
دعيني اموت ، فصخر رجائي تحطمه موجة الباطل ،
وما كنت امثلته سابقاً خُدت به خدعة الجاهل !
مرض الحزن المزمن القتال ، الذي صار اقصى الجلادين لنفسه
الحساسة ، قد افضى به الى نشر ظلماتها الدامسة على البشر اجمعين ، فيخيل له
انهم مصابون بدائه العياء ، ويصيح كهجنون في قصيدته « بعيداً عن
هذا العالم » :

هذي الحياة كمستشفى تنام به مرضى الوجود ولا تُشفى من الداء !
« الى الشبح البالي » حاوية ذلك التشاؤم في شأن اهل الارض طرأ :
هذا الوجود جنينة مرغوبة ، قد غر فيها آدم التفاح ؛
هذا الوجود مشاقق منصوبة ، والظلم في ساحاتها السفاح !
من ابتلي بذلك الداء الروحي وايقن انه عضال ، وتوهم ان جميع الناس
اخوته يتضورون مثله من فرط الالم ، فلا بدع بان يشتهي الموت ويدعوه
بالحاح شديد ، كما يتنى آلاف المجروحين في المعارك الضربة القاضية على
حياتهم الشقية . « ولما كبرت » تحوي التعبير الخشن عن ذلك التوق الحار :
فهذي الحياة ثمالة كأس سقاها رجيم الردى للوجود ؛
فدعني انلها بقايا جمادي لتمتصها حشرات الاحود !

يتاجي الشاعر « جرس الحزن » في ذلك الشأن عينه ، فيقول له متوسلاً :
 ايا جرساً في هوة الدمع ناحباً ، نحيبك الحان الطبيعة والعمر . . .
 أصخ عندما الحفار بعد تهدمي يعيد بقايا العفر مني للعفر . . .
 ترحم ولا تجعل رنينك محزناً ، ودثق بالحن الحبور على قبري !
 نشاهد ثوران ذلك الحزن الدائم القانط في عدة قصائد اخرى ، من
 جملتها « تذكارات وآلام » ، « انزعوا قلبي فاستريح » ، « مناجاة بلبل » ،
 « الدمعات الثلاث » . ييوح لنا الشاعر بأساء الفادح المستولي على نفسه استيلاءً
 تاماً ، وذلك من مقتضيات صدق اللهجة في شاعريته . لكنه لا يكتفي بازاحة
 الستار عن كلوم قلبه الدامي ، المنازع نزاعاً لا نهاية له ، بل يكشف لنا
 بتواضع حميد سبب مرضه الروحي المزمن ، معترفاً بأن روحه ضحية شهواته
 الجسدية ، اذ لم يستطع كبح جماحها . يقول عن شخصه في « ما لي جلد » :
 عبث الغرام به ولم يُبق السقام له جسداً !
 وفي « الدمعات الثلاث » :

ما لسلمى التي استبدت وما لي ؟ انا في الحب ميّت الآمال !
 كنت امشي مع الهيام ، ولكن كنت امشي على طريق الضلال !
 يخطو خطوة جديدة في طريق الاقرار بغوايته الفاحشة ، فييوح لنا
 بتدلل مؤثر ان مهوى التعاسة الذي القته فيها هواؤه الشرسة الطاغية ، لم
 يوقظ عزمه من سباته الطويل لاجلها واخضاعها للعقل السديد ؛ يقول عن
 قلبه المفرط الضعف في « لا ترحم » :

يشقى ولا يعلم ماذا به ؛ يذوب كالشمع ولا يعلم ؛
 ورغم هذا عند مرأى الهوى يُقْسِم كالنمر ولا يُحْجِم !
 ثم تبلغ به الصراحة حداها الاقصى ، فيقر لنا ، بدون ان يندى جبينه
 حياءً ، بانه قد اعرض عن الاله العظيم ، خالقه وفاديه ، اعراضاً كاملاً ،
 وفضل السجود لصنم اللحم بعدما اختاره الها . يقول لمعشوقته في « يا ليل

العمر ، متى غده ؟ :

انسيت العبد ديانتَه ، فاعتاظ المولى سيده ؛
ديني قد رق ، فوا تلمي ! هل باق غيرك اعبدَه ؟
بعد كل تلك الاعترافات الذليلة ، المحجلة ، قد لخص لنا في « افاعي
الفردوس » - هذا العنوان وحده دليل على اختلال عقله - غاية القصوى
في الحياة . سداها ولجتها الكفر المطلق والسفالة الحيوانية ؛ يصيح
بمحبوبته المؤلمة :

جَملي لي الجسد	واسكي لي الرحيق ؛
لا تفكري بغد ؛	قد يجي ولا نفيق !
ما لنا والابد ؟	ان سره عميق !
الموى ، اذا اتقد ،	كان للبلى طريق .
فلنمت يداً بيد	ولنغيث البريق
بين شهوة الجسد	والرحيق !

من الغرابة بمكان ، وقد ارانا الناظم روحه متمرغة في حمأة الادناس ،
جاعلة ذلك النعيم اللحمي الرذيل مثلها الاعلى في الحياة ، مع اقراوها بهول ما
يلده من امر الآلام ، ان نسمعه بين حين وآخر يفتخر بعلو تلك النفس
وتقاوتها . هو لعمرى كالسكران ، لعبت برأسه الحجر ، فيهنذي هذياناً
مضحكاً ويقول لنا في القصيدة الاولى من ديوانه :

لي نفس كالبحر ذات اتساع ، فلباب يُلقي بها وقشور ؛
تبصق الرجس عن عفاف وطهر ، والسلاي تبقى بها فتغور .
الحزن الشاوي على الدوام في قلب ابي شبكه ينشر سخائبه المتلبدة
الحالكة السواد على قصائد الوطنية . لا يكاد يرى شيئاً جميلاً في لبنان ،
فيظل ينحي باللائمة على اهاليه ، الرؤساء والمرؤوسين ، راشقاً اياهم بسهام
هجو الاذع ، ذاماً فيهم الافتخار الباطل بالجدود ، حب السيادة ، العبث

بمصالح بلادهم ، الى غير ذلك من انواع المساوىء . يبدأ بذلك الطعن القاسي منذ اول قصيدة في « القيثاره » ، ثم يعود اليه في « ابنة الاجيال » ، « ورب كبير بلبنانه » ، « القضاء المفتون » و « العامل الثائر » / حيث يقول :
 لي موطن عاثت به اولاده ، فبكت حشاشته على اولاده ؛
 يحيا امام عيونه جلاده ، ويموت لاثم قبضتي جلاده !
 « يا بلادي » هي اجمل قصائده الوطنية ، مبتكرة الوزن ، حارة اللهجة ؛
 ها كم نموذجاً منها ، تتضح فيه مبالغته الفاحشة في تعيير مواطنيه :
 اينما سرت ارى الناس لدى ذكرك^١ دوماً يهزؤون ،
 فهم منك ولكن جحدوا ، والناس قوم جاحدون ؛
 وهم الابناء باعوا الام في سوق المزاد ،
 يا بلادي ! ...

يا بلادي ، ان دعائي نسي التنوراب^٢ في تلك اللجود ،
 وانظفت نار هيامي وخبا زيتي بمصباح الوجود ،
 لا تعديني رماداً ، فيامي في رمادي ،
 يا بلادي ! ...

يسأل « العرافة » عن مستقبل وطنه ، فتجيبه :
 عندما البغضاء تسمي مهجاً تنسل الحب وتأوي الرجا ،
 عندما الارماح تسمي سككاً وفرند السيف يسمي منجلا ،
 عندما الحاكم في عزته يُنجد الفلاح حتى يعملا ،
 بشروا لبنان بالعز ، فما وطن عز بغير العمل !
 في « اغنية المغيب » تصوير بديع لبعض مشاهد المساء في لبنان ، وهو
 ذو صبغة دينية محضة ، نقضي منها العجب لكونها نسيج وحدها في ذلك
 الديوان الذي تُفيت منه التقوى . في الدور الاخير من تلك القصيدة الجديرة

(١) يعني الشاعر ذكر بلاده - (٢) التراب .

بان تعد بين جواهر قريظنا المصري المبتكر ؛ يخاطب الشاعر نفسه قائلاً :

إسمي الاجراس من قبة دير الراهبات ،

حمل الوادي صداها للنفوس الزاهدات ؛

فهي انثات صدور وبقايا زفرات

اصعدتها بألسن الدير قدام الصليب ؛

اسجدي لله ، يا نفسي ، فقد وافى المغيب !

يزيد استغرابنا لتلك العواطف الدينية السامية اذ نرى صاحبها

المسيحي يحط مراراً عديدة من كرامة دينه ، بل ييوح بكفره وماديته

بدون ادنى خجل . في « اغنية المجد » ذكر السيد المسيح الهنا المعبود بين

المعري ولنين ، كأنه لا يمتاز عنهما امتياز الخالق عن الخليقة . « ولما

تقيسون الصلاة » لا غاية لها سوى الطعن في الكاهن المسيحي ، الذي يسميه

الشاعر ، على وجه التعميم ، الكاهن المأجور ، ويقول عنه :

النفس تطلب مرسلًا ، لا تاجرًا واهي الضمير .

ينوح على انحطاط لبنان هاتفاً :

غدا وطن الاحرار سلعة تاجر تباع وتشترى خلسة في المعابد .

يصف دموعه وعبرات عشيقته هذا الوصف الشنيع :

كان ذاك الدمع ماءً مُنزلاً عمَّد الحب بدين العاشقين .

في « المجدلية والمسيح » قد بلغ استخفافه بفادينا الالهى مبلغاً فاحشاً ،

فوصف علاقته مع تلك الخاطئة الثابتة وصفاً ليس فيه ادنى لياقة بجلاله غير

المحدود . فضلاً عن ذلك الهتك المكرر لحرمة دينه المقدس ، قد جره الكفر

الفظيع الى محاكمة الله تعالى خالقه ومولاه ، والتجني على قداسه الفاتكة كل

ادراك ؛ ها كم بعض تجاديفه السافلة :

القلب جُرمٌ في حياة الفتى ، وصانع القلب هو المعتدي . . .

رب ، ليم انت تظلم الابرياء ، وتزيد العاني الشقي شقاءً ؟ . . .

هل خلقت الغني للمجد ، والبائس اوجدته تُرى للشقاء ؟
 هذا المجدف على العزة الالهية - وهي اعلى من ان تصيها سهام الحادة
 الطائشة - يدعي النبوة ، فينبئنا بانقيار صرح النصرانية بعد انتصاره مدة
 تسعة عشر قرناً على اشد هجمات الضلال والفساد ، فيصيح في هذيانه الجنوني :
 كم من ديانات تمشت في الورى ، ذهب الزمان بها قبيل ذهابه ،
 ولسوف اديانٌ تُتخرَّب ديننا وتقوم الايام فوق خرابه !
 يجاهر بماديته التامة ، منكرًا دوام نفسنا بعد الموت :
 والسكانات لدى الردى العوبة ، حتى الخلود يصير من العابه .
 « يا بنت لبنان » من احسن قصائده ، القليلة جداً ، التي يحث بها
 النفوس على الفضيلة ؛ وما اغرب ذلك التحريض على لسان شاعر قد اعترف
 لنا مراراً بكونه عبد شهواته اللحمية ! يقول لفتاة بلاده ، وحبذا القول :
 دعي سواك تببيع الثغر بالذهب ، فالثغر ما انشقى يجني على الادب ،
 ولم يكن ضرباً الافواه ذا ثمن ؛ فلا تبيعي الهوى من ذلك الضرب ؛
 عُرِفَت طاهرة ، فابقى مشابرة ؛ لا تبدي القُل بالاشواك والخطب !
 قد تقمص مرشداً في غير ذلك الموقف ، فقال في « ذكرى الآلام »
 يا من ترى الدنيا بشعر فتاة ، اياك ان تمشي على خطواتي !
 وفي مطلع « الفتاة الغادرة » ، التي يقصد بها ردع الشبان عن العهارة :
 حاذر الحب ؛ ان في الحب شرّاً ، فهو نار في القلب تصهر صهرا !
 بيد انه من المضحكات المبكيات ان نجد في الصفحة التالية للقصيدة
 المذكورة شعراً ملتهباً بنيران الغزل في « اودك ميتة » ، حيث
 يقول لحبيته مي :

اودك في قبضة الموت صرعى لان حياتك تقضي عليّ ،
 وموتك ، يا مي ، عذب لديّ ، فبالرغم يُلقيك بين يدي !

(١) الضرب بفتح الراء بمعنى العسل الابيض الغليظ .

امام ذلك التناقض المطلق بين مواعظ ابي شبكه وسلوكه نلوذ
بكشحيينا من القهقهة اذ نراه يتكلف الرثاء لحالة « الفضيلة » قائلاً :
بكت وهي صرعى من هوم تحيقها ، كبائسة في الناس ضاعت حقوقها !
واذ نسمعه « امام مهد سعاد » يعظم طهارة الاطفال بلهفة من اضاع
درة يقيمة ، فوجد مثيلة لها عند غيره

اكثر شعره ، كما قلنا ، في وصف كتابته ، التي هو رازح تحت
وطأتها ، ثم في المواضيع الوطنية مصطبغةً بصبغة مُشْبَعَة من حزنه العصال
وفرط نفوره من الحياة والاحياء . له ايضاً عدة قصائد غزلية محضة ، نخص
بالذكر منها « الشبل الرابض » ، « ما انت من تراب » ، « القلب لا
يُشْرِى » و « الو ! الو ! » وهي حديث تلفوني بين الحب وقلب الشاعر ،
فيه من فساد الذوق ما فيه .

للمدح والرثاء حصة لا تسكاد تُذكر في « القيثارة » ، مما يوجب الثناء
على صاحبها ، ولا سيما انه مبتكر في ذينك النوعين من القريض اللذين كثر
فيهما الابتذال ، حتى عند طائفة من المشاهير . يقول مثلاً في تعظيم
خليل مطران :

بلادك هذي ، يا خليل ، فانها حليلتك الاولى ، اذا فخرت مصر ؛
فمن مائها رويت شعرك ريقاً ، وفي روضها شبت قصيدتك البكر !
وفي رثاء سليمان البستاني :

النفوس الكبار تشقى طويلاً بين جذران صدرها المفؤود ؛
هي مثل الطيور تخفق حيناً ثم تقضي في سجنها الموصود !
شعره الوصفي نادر ؛ لا نجد في ديوانه سوى اربع قصائد من ذلك
الصنف ، وهي : « نارجيتي » ، « ميروبا في الصيف » ، « الفقير » و « قبل
الرحيل » التي يصف بها اخته الطفلة وطيشها وصفاً ظريفاً .

قد انتهينا من تحليل معاني « القيثارة » موضحين ان محاسنها ليست

سوى حفنة بجانب كتيب مساوئها . اما تعبير ابي شبكه فيشينه كثرة الالحن
الغليظ ، الذي لا يسقط فيه تلميذ الصفوف العليا ، مثل « كان يمشي
الطريق » ، « الجرح يئدي » بمعنى يئدى ، « جانح » عوضاً عن جناح ،
« ابقي غير عاشق » والمقصود عاشق آخر ، « تلعب دوراً » المعربة حرفياً
عن الفرنسية ، بدلاً من « تمثل دوراً » ، « هل ان فكرك من يراعى
اسرع ؟ » مع استحالة ضم حرف التوكيد الى حرف الاستفهام .

اما الخيالات - وهي عنصر من اهم عناصر الشعر - فانها على جانب غير
يسير من الابتكار الجدير بالتقريب . يقول الناظم في وصف النوم :

كان غطيظ النائمين نواسم* يحركها الصفصاف فوق المقابر .
وفي « السبل الرابض » :

جثم الليل باحضان التلال° ، حالك البردة ، مشور الظلال° ،

نخضم° غرق الهم به ، فاعتري امواجه صمت الجلال !

يمثل لنا الفقير بهذه الصورة الجديدة ، الطبيعية :

بائس° والحياة تأنف منه ، كبقايا الخطام في الدماء !

يصف لنا امأ ثاكلة ، وقد دفنت ابنها ، بقوله :

وكان مقلتها سراج كاد يُطفأ بالزفير . . .

يقول عن شفقة الطبيعة على الانسان التاعس :

بكت السماء ابن الشقاء بمدمع الزهر الغزير° ،

والليل ذوّب في الضريح عواطف البدر المنير !

يجعل على لسان المجد هذين البيتين الجميلين :

فقبلة المجد لم اضمها الا على حافة القبور° ؛

من يطلب المجد في حياة فليشتر المجد بالزفير !

على ان آفة الابتكار ، ان لم يُحصر في حدود الطبيعة ، هي التصنع
الذميم ، ولا سيما بشكل المبالغة الطفلية . يسوءنا التصريح بان ذلك الشطط

وما ينطوي عليه من فساد الذوق كثير في ديوان ابي شبكه .
يقول لحساء :

اود لرجلك ليل الوجود هذا مساميره الانجم .
لعمرى يصعب علينا تصور سقوط شاعرية الناظم الى تلك الدركة !
يصف ضياء البدر في وسط الدياجي منشداً :

وارى ظلمة الدجنة ابليساً ، نجوم الفضاء من اعوانه ...
والليل فيه قمر كامل كأنه عبد لنا اعور .
يصور لنا خيبة آمال المعوز على هذا الاسلوب الغريب ؛ شتان ما بين
الغربة والابتكار :

تراءى له الكواكب طوراً كدنانير القيت في الفضاء ،
فيعد اليدين لهفاً اليها ، غير ان الفضاء من البخلاء .
يصيح بشخص الحرية :

عشتك طفلاً يوم كنت نائماً تهزين مهدي كالغلام المداعب ،
وقبّلت منك الثغر مذ كنت زهرة تقطرك الانداء عند المغارب .
وايم الحق لا نرى ادنى معنى مقبول في تشبيه الحرية بالنسمات وبالزهرة
في هذين البيتين .

من محاسن التعبير الشعري في « القيثاره » ان صاحبها قد خرج احياناً
بالعروض من اوزانها المبتدلة . نرى مثلاً قصيدته « اغنية المجد » و « تذكارات
وآلام » مقسومتين الى ثلاثة اقسام على وزن واحد ، ولكل منها قافية مختصة
به ، وفي ذلك ما فيه من زيادة رخامة الشعر في المواضيع الطويلة . « يا بنت
لبنان » مركبة من ادوار ثلاثية الابيات ، وكل دور مستقل بقافيته ؛
« لما كبرت » و « السبل الرابض » على النسق ذاته غير انها رباعيتا الادوار .
في عدة قصائد نلاقي ابتكاراً اشد وتنوعاً اوفر في الاوزان والقوافي ، مثلاً في
« انزعوا قلبي فاستريح » :

اهجرا الكون ، فمصباح الوجود
 واطلب الانوار في مأوى الخلود ،
 ليس فيه زيت ،
 في قصور الموت !
 انزعوا مني قلبي
 رحمة كي استريح ،
 فاننا ، ما زال حي
 نامياً ، ابقى جريح !

يليق بنا ، بعد ذلك التحليل الدقيق لمميزات المعاني والتعابير في ديوان
 ابي شبكه ، ان نبدي رأينا فيه على وجه الاجمال . نقر لناظم بشاعرية
 حقيقية ، صادرة عن صميم فؤاده ، مهتزة بخفقاته ، حارة من غليان دمائه ،
 بعيدة عن المواضيع المبتذلة ، طامحة طموحاً موقفاً ، في احيان كثيرة ، الى
 الابتكار في الخيالات والاوزان . بيد ان تلك الشاعرية قد حادت في الغالب
 عن مهيع الحقيقة العليا والجمال الاسمي - نغي الفضيلة - فانها ملتقاهما الوحيد
 وصلة اتحادهما المتينة ، فضل الناظم في مجاهر الفجور والكفر المؤدية به
 حتماً الى مرض الحزن الشديد ، المزمن ، العقيم ، بل الى النفور الكامل
 من الحياة . بخاء ديوانه مُخمدًا لغزائم النفوس عوضاً عن اضرارها ،
 وخافضاً منهاها نحو اباطيل هذه الارض الفانية ، بدلاً من الصعود بها على
 معارج الفضيلة الى الخيرات السماوية الدائمة .

الياس فرحات

الياس فرحات اللبناني في طليعة شعرائنا الاميركيين الذين لفتوا انظار
 العالم العربي بغزارة مادتهم وشدة ابتكارهم في المعاني والمباني ، بل الاوزان
 ايضاً ، وقد جاء شعرهم ابعداً ما يكون عن التقليد الكسول والابتذال التافه ،
 صورة حية لافكارهم وعواطفهم ومراميهم ، تُستشف باتهم الجلاء من وراء

(١) هذا الفعل بصيغة الامر .

وشي الخيالات القشبية . له في ذلك فضل مضاعف ، فقد اقر لنا في رسالة بعث بها اليها من نحو عشرين عاماً ، هذا الاقرار الطريف : « تركت مدرسة الضبعة (كفرشيبا) ، وانا في عامي العاشر ، ولم ار المدارس بعدئذ الا من الخارج . »

قد نشر من شعره « رباعيات فرحات » ثم « ديوان فرحات » ، المطبوع في مدينة سان باولو في البرازيل سنة ١٩٣٢ . قصدنا تحليل شاعرية الناظم ، فبنينا على ديوانه فقط ، لا على الرباعيات ، لانها في ايجازها المفرط لا تطلق الحرية الكاملة لتحليق الفكر وتأجيج الشعور .

كما درس فرحات اصول لغة الضاد على ذاته ، ولا سيما بكثرة المطالعة ، لا بين جدران المدارس ، هكذا تضيع من فن الشعر العسير ، فاصبح من اعلامه المعدودين . فهو ، والحالة هذه ، ما يسميه الانكليز a self made man ، ويجوز تعريبها بآبن جهده . قد استقى مواد قريضه المتنوعة من مناهل جمال الطبيعة وحوادث التاريخ ، ولا سيما العصري ؛ فنعم المستقى ! ذلك ما ييوح به لنا في مقدمة ديوانه الشعرية :

لئن كنت لم ادخل المدرسات صغيراً ولا بعد هذا الكبير ،
فذا الكون جامعة الجامعات ، وذا الدهر استاذها المعبر !

بين ضروب الشعر العديدة قد اكثر من معالجة النوع الوصفي والتهذيبي والوطني والغزلي . لا نجد في ديوانه الضخم سوى اربع قصائد رثاء ، تنور في بعضها ، مثلاً في رثائه للبطل اللبناني يوسف كرم ، عاطفته الوطنية ؛ اما مدح الاحياء فلا نكاد نرى له اثرأ . لا يمثل الشعر الروائي سوى قصيدة واحدة ذات نحو مئتي بيت بقافية واحدة ، لم يتمالك ان يزأر فيها زأرات وطنية عديدة طويلة ، تحول سرد حوادث قصته الى شعر غنائي شديد اللهجة ، قد تطايرت من لظاء شرارة فلهبت عنوانها هذا : « كل حر في دولة الظلم جان » . الاثر الوحيد للشعر الرمزي نجده في « رثاء بلبل »

حيث يندب فرحات نكد حياة شاعر الغصون ، ويرى في مصرعه الفاجع
صورة حية لآلاف من بني الشرق يهلون شاعرهم ، بل ينقمون عليه انشاده ،
متخذين منه ، لايراد صاحبه موارد الحمام ، عذراً اقبح من ذنب :

اماتك اموات القلوب من الظما ، وعندهم الماء النмир يسيل !

اماتوك اهللاً وخافوا صنيعهم ، فسموك ميتاً ؛ لا ، فالت قتيل !

تلك الانواع الشعرية هي في ديوان فرحات بمثابة بعض الزهور
النادرة في بستان حافل بالورد او الياسمين ، فلا نجد منها ما يساعدنا على
التعمق في نقد قريحة الناظم . اما الانواع التي واطب على معالجتها فان فيها
مادة وافرة لدقة تحليل تلك الشاعرية الناتئة ، التي لا يختلف اثنان من
الثقات في صدق لهجتها ولا في قوة ابتكارها .

قد عاج فرحات الوصف واقفاً عليه حصّة غير يسيرة من ديوانه ، على
انه لا يكثر من وصف جمال الطبيعة ، فلا تصور ريشته بعض محاسنها الفاتنة
الا عرضاً ، ولا سيما في غزلياته . لكن مداده لا يجف عن وصف الوان
تباريحه المضيئة ، يرسف بقيودها الضاغطة ويئن تحت احمالها الباهظة ،
فيهتف في « خلقت شقياً » :

سعادة نفسي ، متى نلتقي ؟ لعلك للآن لم تُخلقي !

الى كم اسائل عنك وابحث في مغرب الشمس والمشرق ؟

قطعتُ البحار وجزت القفار وحاولت جوب الفضاء النقي ،

وسائلت عنك الصبا والنجوم ، فما نلت غير الاسى المحرق !...

خلقت شقياً وعشت شقياً ، واحسب اني اموت شقي !

« بين البدر والبحر » و « الم وارق » تُسمعانا مثل هذا التأوه الشديد ،

وكذلك « يا عيد » حيث يصيح من مهجره الحزن بوالدته النائبة :

اماه ، ليت مع النسيم رسالة تأتي فتُرجعني الى افراحي !

مرت ليالي العيد بي ، وكأنها وجه العبوس بوجهها الوضاح !

يصف بمنتهى الدقة والابداع العاص صغره مع الصبيان والبنات ،
فيصعد الزفرات الاليمة على سرعة زوال افراحها :

مرت ليالي الانس والصفاء وانقلب السعد الى شقاء !

سواء اوصف حالته النفسية على عتبة الزواج في « وداع العزوبة » ،
ام حياته في الارياض في « ثغاء الشاة » ، ام سياحاته التجارية في البرازيل في
« حياة مشقات » - وكلها من الطراز العالي بكمال الدقة والطبيعة - فانه لا
يزال يتشكى من فرط ثقل اعباء عيشه . طفح كيئل بلاياه ، فتدفق في ديوانه
اثاث موزونة ؛ ومن جملة عوامل اساء المزمن ، الراسخ في اعماق روحه
الطروب ، انحطاط الاخلاق وإحلال اكثر الناس الاصفر الرنان المحل الارتفاع
في قلوبهم . هذا ما حدا به الى وقف عدد يذكر من قصائده على تهذيبهم
ومحاولة هدايتهم الى الصراط المستقيم ، لا على طريق الدين - فانه لا يفتأ
يجاهر باحتقاره ، بوقاحة غريبة وسفالة شائنة ، مع انه في عين اكبر
الفلاسفة ، كما في نظر عامة البشر ، الاساس المتين الوحيد للفضيلة - بل على
طريق العلم ، الذي يرى فيه ، دون غيره ، الترياق الشافي لكل رذائل المجتمع ؛
وفي هذا الرأي الفائل من الهذيان ما فيه . لا يحق لمستخف بالدين كفرحات ،
المنتهر كل فرصة سانحة في ديوانه للحط من مقامه ومن كرامة رجاله ، ان
يدعي تقويم المعوج من اخلاق اخوته البشر . والحال ان شاعرنا الكافر
يسند الى ذاته تلك الوظيفة العالية ، فيعرض نفسه للسخرية ولرشق موعوظيه
اياهم بهذا الجواب اللاذع : « يا طبيب انحطاط الآداب ، عاجل ذاتك قبل
معالجة غيرك ! »

لا ننكر مع ذلك ان في شعر فرحات التهذي آيات من الارشاد لا
يشينها سوى بغضه الازرق للدين والتقوى ، المندلع لهيبه احياناً في ذلك
الشعر عينه ، فيهدم بيئسراه ما حاول تشييده بيئمناه . يقول مثلاً في
« عرس تجاري » :

لكن اخسر صفقة عُرِفَت ببيع الفتاة وقلبها يشكو ؛

يا بائعي نفس منزهة ، ان النفوس لربها ملك !

نصادف مثل هذه المعاني الجميلة في عدة قصائد ، منها « عجل الذهب » ،
« قد يسبق الفقر الغنى » ، « متفجرات » ، « مِرة ولكنها حرة » ، « يا نجمة
الليل » ، « المدينة في الليل » ، على ان ذلك الجمال زائف ، لان ادعاء بناء
صرح الآداب على غير اساس الدين ضرب من الجنون ك محاولة تشييد قصور
في الهواء ؛ ولذلك نعد عظات المصلح فرحات من نوع الهراء .

لعمري انه لمن المضحكات المبكيات ان يدعي اصلاح بني جنسه وترقية
اخلاقهم الساقطة ، وهو على شاكلتهم ، بل ربما فاق كثيراً منهم ضللاً
وعبودية لاسفل الشهوات ، نغي اللحمية ، وقد عظمها بل كاد يؤلفها مراراً
عديدة في ديوانه ، بالغاً من فرط الهذيان مبلغ الاستعاضة بها عن الدين بكل
ما فيه من عقائد سامية واخلاق طاهرة مقدسة . وبما ان الطبع يغلب التطبع
- وال عاطفة الدينية طبع بل غريزة راسخة في الانسان - لا يسع الشاعر المؤله
اصنام اللحم الا ان يعترف لنا احياناً ، اذ يصحو من سكرات شبقه ، بفرط
غوايته وتعاسه رقه في حمل نير الشهوات الذي لا اثقل من وطأته . يصيح في
« الدمعة الخالدة » :

ما خلّقنا ملائكاً بل انساناً تتبع النفس ، وهي تغوي وتغري !

وينوح في « زنبقة النهر الاسود » :

ويح الغرام ؛ لكم يُمض وكم يضني وكم يُغوي وكم يُغري !

ارواحنا في سوقه سلعٌ معروضة علناً لمن يشري !

لم يخجل المدعي اصلاح البشر من هذا التصريح ، الذي لا يُقدم على
محاراته فيه ، على مرأى ومسمع من كل الناس ، الا المومسات . ثم يتجاسر
بعد ذلك على تصويب سهام غضبه الى شبان عصرنا المنقادين لاقبح الشهوات ،
هاثقاً بملء صوته :

ينشأ الفتيان منا للهوى اعبدًا ، والغيد للزى إماء !
نحو نصف ديوانه موقوف على ذلك الهوى بل الغوى ذاته ، مما لا
نرى له مثيلاً في شعرائنا العصريين النوابغ ، ولا سيما الامير كيين . مهما
تفنن في المعاني والخيالات الغزالية ، فان فرط نشوته بخمر العهارة المعتقة بين
حنايا ضلوعه يُفقد رشده ويذهب بآخر آثار نبل شعوره . لا شك في ان
انهما كه في اشباع الشهوات الجامحة قد ساقه الى ذلك الكفر الفظيع ، الهازى
بكل الاديان ، الذي لا يخفيه كالخرقة الملوثة عن نظر قرائه ، بل يرشقهم
بقذائفه الصاخبة مئة مرة في ديوانه ، حتى في ابعد المواضع عن الدين
والآداب . لا يربأ بقلمه عن ان يستخدم كثيراً اسم الله - جل جلاله - واسم
ابنه الوحيد سيدنا يسوع المسيح ، على وجه شديد الاحتقار والاهانة ، يُعد
تجديفاً محضاً ، يتقح على ارتكابه مع انه مسيحي بميلاده وتهذيبه الاول .
في روايته الشعرية « كل حر في دولة الظلم جان » ، التي حشاها بالكفر
حشواً ، يسمي اخوته النصارى مُشركين لاعتقادهم سر الثالوث الاقدس .
ينجي باللائمة على راهب غيور حثه على تعميد بنتيه ، بعدما اطال اهل هذا
الواجب ، فيقول له متهمكاً :

عليك بقاء الخضم فأقدم وعمد ذويك !
لا يزال يُفيض على الاديان عموماً وعلى النصرانية خصوصاً سيول
غضبه وشتائم ، عازياً اليها وحدها بطء تقدم الشرق العربي في ميدان
الحضارة . يقول مثلاً في ندائه الى « فرنسوي الشرق » ، وقد عنى بذلك
طائفة من مواطنيه اللبنانيين :

تعجب قوم من تأخر حالنا ؛ ولو خبر الاديان ، لم يتعجب .
رمتنا بها الاقدار قدماً ؛ وليتها رمتنا بسيل يجرف الشيخ والصبي !
لا يزال يطعن في الاكليس ، متعامياً عن كل فضائله وخدمه ، ناسباً
اليه انواع المآثم ، رامياً اياه باستنزاف كل موارد البلاد ، من شمالها الى

جنوبها ، لفائدته الشخصية ، وبكونه قد « مشى على قلب الفقير ممكناً
خطواته » . يقول في « غلة الاغنام » :

ان الالى لبسوا السواد تنسكاً اربت جرائمهم على الارقام .
نظم قصيدة « الراهبة » برمتها ليسخر بزهدا السامي ، مدعياً انها
قد اضاعَت جمالها في سجن الدير . ينال بالسب وانواع التهم الكاذبة السافلة
على جماهير المرسلين الكاثوليك ، الذين هجروا اوطانهم ، مضحين بالنفس
والنفيس لخدمة وطنه اللبناني ، بنشر الدين والعلم في كل ارجائه ، ولهم الايدي
البيضاء في انشاء نهضتنا الادبية الحديثة . مع تلك العوارف المسبغة ينفث
فيهم سم كنوده الدنيء وتحامله الاعمى :

اذا فقة* بثوب الدين وافت ، توافيها بثوب العلم اخرى .
ثياب البر والارشاد صارت لجسم الشر والاحقاد سترا ؛
وجوه* للصالح على جسوم جرت خلف المفاسد كل مجرى .
خذوا بعثاتكم عنا ، فاتم بها من كل اهل الارض اخرى !
ثم يعود الى التعبير عن تلك العواطف السافلة ذاتها ، بل الى تلفيق
مثل تلك الاكاذيب الفاحشة في « النسر الواقع » .

لم يجتزئ بـان يأخذ على عاتقه مهمة هداية البشر الضالين الى جادة
الفضائل ، وذلك باستئصال شأفة الدين وتوقيف رجاله من افئدتهم ، بل ادعى
تقويم وطنية اخوته اللبنانيين ، العوجاء والفاصلة على زعمه . لا يزال يصب
عليهم وابل اللعنات في قصائد عديدة ، ناقماً عليهم محبتهم لفرنسة وثقتهم بها ،
ملقباً اياهم تهكماً بفرنسويي الشرق ، حانقاً عليهم اشد الحنق لشدة حرصهم
على استقلالهم القومي والسياسي ، الموروث من جدودهم الاماجد ، وابائهم كل
الاباء ضم بلادهم الى سورية . يكاد يتميز من الغيظ وهو يُنكر على داود بك
عمون ، ولا سيما على عميد لبنان الخالد الذكر ، البطريق الياس الحويك ،
مساعديهما الحديثة الناحجة لدى الحكومة الفرنسية للحصول على كامل استقلال

وطنهما ، بل وطنه ، عن سورية . على هذا النمط الغريب ينفجر بركان
وطنيته الزائفة في احر منظوماته لهجةً ، مثل « يا اهل لبنان » ، « ان تلو
هامتها » و « كل حر في دولة الظلم جان » حيث يدعي النبوة ، فيصعق
مواطنيه ، الخائنين على رأيه ، بهذا التنبؤ الهائل المترعد لفرائصهم :

سوف تُمحى حدود لبنان بالسيف وتنظم بالنسيج القاني !

فصله عن بقية الشام فصل محزن من رواية العبدان !

وايم الحق لا يسعنا ان نفهم كيف تعامى الى حد رمية بالعبودية اخاه
البناني ، المصر على بقاءه لبنانياً حراً كجدوده ، سالماً من وطأة نير يتوق
الشاعر المدعي الوطنية احر التوق الى حملة ، بل يرى فيه لنفسه اسمى درجات
التبل والمجد ؟ انما تفسير ذلك اللغز الغامض لا يصعب على متصفح ديوانه ،
فان اللبنانيين ، في نظره - وكذلك اهل مصر ، سورية ، فلسطين ،
العراق ، الجزائر ، مراكش وغيرهم من الناطقين بلهجات عربية شتى - ليسوا
اقواماً مختلفة ، لكل منهم مميزاته الخاصة في الجنسية ، التاريخ ، الدين ،
الاخلاق ، الثقافة والسياسة وغيرها ، بل هم جميعهم امة واحدة عربية ،
جارت عليها الاقدار - ففرقت شملها شذو مذر من الخليج الفارسي الى ابعد
سواحل البحر المتوسط ؛ فلا بدع بان يقول عنهم الشاعر اللبناني في
« حيرام حيرام » : « لولا التعصب كانوا كلهم عرباً . »

يضرب هذا الوتر عينه في « تحية الاندلس » وفي « نحن عرب
واولادنا افرنج » حيث يقول عن العرب :

انهم اجدادنا بالرغم من قائل إنا من العرب براء .

لا يزال ، هو اللبناني المسيحي ، يتغنى بمجد العرب جدوده ، على
زعمه ، متناسياً حادثاً من اخطر حوادث تاريخ بلاده ، وهو انهم قد غزوها
وفتحوها بحد السيف ، وقد اعملوه في رقاب اهلها التصاري ، فصبغ هؤلاء
بدماء استشهادهم الزكية وهاد لبنان وهضابه .

قد فرغنا من ابداء رأينا في انواع الشعر التي اكثر من معالجتها
فرحات ؛ بقي علينا انتقاد تعبيره . تتجلى فيه مزيتان فانتان ، قد بلغ منهما
مبلغاً رفيعاً ، قلنا جراه فيها مجار ، حتى من نوابغ شعرائنا المحدثين ، وهما
الابتكار والانسجام . فرحات من الداء اعداء الابتذال ، وكان يراعه ينبوع
فيئاض بابدع الخيالات الجديدة الآخذة بمجامع القلوب . ها كم بعض الفرائد
من ذلك العقد الفاخر ، وهي ابيات اقتطفناها من عدة قصائد ، كل منها
قائم بذاته ، فلا علاقة له بما يليه :

سُتِرَتْ معائبه الحلى	كأقبر يستره الرخم . . .
يُسْتَلَى القريض على مسامعهم كما	تُسْتَلَى الصلاة على مسامع كافر . . .
ويد النفي على الفقير	كأنها احدى الملازم . . .
يمشي الاسى في داخلي متغلغلاً ،	بين العروق كمبضع الجراح . . .
وحلّت محل الرؤوس جيوبٌ	لكل معاني الهدى فاقده . . .
غاصت الشمس في الخضم وابتقت	فوقه ذيل ثوبها الارجواني .

يتضح من النماذج المذكورة ان ابتكار الشاعر مزدان بحلية
الطبيعية التامة ، التي قد ذهل عنها كثير من شعرائنا ، فاختلط عليهم الحابل
بالنابل ، اي الابتكار الصحيح بالغرابة المستهجنة لتجاوزها حدود
المشاهد بل المعقول .

اما الانسجام في قريض فرحات ، فهو عجب عجاب ، ولا سيما اذا قوبل
بانواع الغموض والتعقيد التي كثر ما تفاجئنا في قصائد بعض المشاهير من
شعرائنا ، بغض النظر عن غيرهم ، فتخدش آذاننا تخديشاً اليماً ، يعكر
صفاء تمنعنا بجمال المعاني ورخامة الاوزان . قد ذكرنا الاوزان ، فيجدر
بنا الا نبخس فرحات حقه في هذا الشأن ، فقد جددها في كثير من قصائده
تجديداً يشهد له بسلامة الذوق . اليكم مثالين من احسن ابتكاراته في الميدان
الموسيقي ؛ هذا دور من « احدى الليالي » :

ليلة الانس والسرور اي نور
نورها الغامر الفضاء !
بدرها سيد البدور في الظهور
والتسامي والاختفاء .

وهذا دور من « يا نسيم الصبا » :

يا نسيم الصبا ، مرحبا !
ان هذا السهاد والحزن
من حنين الفؤاد للوطن !
كيف اهل الوداد في المحن ؟
كيف تلك الوهاد والربى ؟
يا نسيم الصبا ، مرحبا !

خلاصة القول ان فرحات ذو شاعرية محضة ، متميزة بحيوية المواضيع وتنوعها ، حاليةً بابدع حثلى الابتكار والانسجام في التعبير ، مع إبداع غير يسير في الاوزان المطربة . على اننا آسفون اشد الاسف لكونها قد اوغلت كل الايغال في الغزل ، الخلاعي احياناً والمرخي دائماً للعزائم ، بل قد ضلت بصاحبها في مجاهل وطنية كاذبة ، مناقضة كل المناقضة للحقيقة والتاريخ . وضالهما الاعظم الذي لا يُعتفر ، ولا سيما في شاعر مطبوع يدعي تهذيب قومه وترقيته ، انها قد دهورته الى اسفل دركات الكفر الفاحش الفظيع .



إيليا أبو ماضي

في ديوان « الجداول »

لا يجهل اسم إيليا أبو ماضي هواة الأدب العصري ، ولا سيما الشعر الحديث ، فإنه من أشهر أعضاء « الرابطة القلمية » في نيويورك ، وقد نشر ثلاثة دواوين ، وظهر كثير من قصائده في مجلات أميركة ، بل في صحف الشرق العربي . طالعنا ديوانه « الجداول » المطبوع في نيويورك سنة ١٩٢٧ ، وبعد وزن محاسنه ومساوئه بميزان النقد النزيه ، لخصنا ملاحظتنا في الصفحات التالية .

قال الفرنسيون : « الانشاء هو الانسان » ؛ يعنون بذلك ان الاول مرآة صادقة للشاني ترسم فيها ملامح نفسه ، فيسهل علينا استشفافها وراء مؤلفاته ، وان لم نعرفها في ذاتها . هذا المبدأ السديد يتحقق في « الجداول » فإنها ، مثل سمياتها في الطبيعة المادية ، مرآة صافية بالنسجاء الشعر ، صقيلة بدقة التعبير ، تعكس لنا بكل الوضوح ما يجول في عقل الشاعر من الافكار وما يثور في قلبه الحساس من العواطف .

هو ذاته يلتبس من قارئه منذ اول قصيدة ان يجعل نفسه في اتصال وثيق بنفس الشاعر ، لتسري اليه كل اهتزازاتها :

هذه اصدااء روجي ؛ فلتكن روحك اذنا !...

ان بعض القول فن ؛ فاجعل الاصغاء فنا !

هذا ما توفرنا عليه ، محدقين الى مياه « الجداول » متشوقين الى التمتع بعلاقتها ؛ وقد وجدناها عديدة ، مطربة بروائع الابتكار في التصوير والتعبير وما ينطويان عليه في الغالب من الحقائق الراهنة المتعلقة بعلم النفس ، وهو من اشهى العلوم والذها للانسان ، فإنه يحدثه عن ذاته ، ويثير بعض السجوف عن اسرار كيانه الغريب الجامع في شخص واحد عنصرين دائمي التناقض :

الروح والمادة .

في هذا القسم الجميل من الديوان نشاهد اوفر التنوع في المواضيع والخيالات ، بل في الاوزان احياناً . يعبر الشاعر عن شدة حبه لوالدته في القصيدة « هي » على اسلوب مستحدث كامل الطبيعية . في « العميان » - وهو نعت يرشق به زمرة المستخفين بالشعر - يبين لهم ضلالتهم السافل بميلهم عن اسمى اللذات العقلية الى مراتع الخواس ، فيعنفهم على ذلك الغوى تعنيفاً ماضياً كالصوارم :

انما الناس من تراب وفور ؛

فبنو النور يعبدون النورا ، وبنو الطين يعبدون الطينا !
في « الزمان » يصف لنا ادق الوصف سرعة مرور الوقت او تباطؤه وفقاً لاختلاف احوال النفوس :

يمشي الزمان بمن ترقب حاجةً متناقلاً كالحائف المتردد . . .
ويكون اقصر ما يكون اذا الفى مدت له الدنيا يد المتودد .
في « اليتيم » يثير فينا الشفقة على مرارة بؤسه في فجر الحياة ، بل ينعش املنا ان نجعله بالعطف والاحسان عضواً ممتازاً في جسم البشرية :
ربما كان اودع الله فيه فيلسوفاً او شاعراً او نبياً .

ابو ماضي ذو كلف شديد بالشعر الرمزي ، وفي ذلك دليل واضح على قوة مخيلته ، تندد بالناس وتثريبهم سخافتهم واثرتهم ، لا على اسلوب النظريات الجافة والنصائح العابسة ، بل بواسطة الرموز الصائبة الظرفية ، كأنها انامل تشير عن بُعد الى قروح النفوس ، بدون لمسها لمساً خشناً ينكأها ويؤذيها . دونكم بعض النموذجات من ذلك الشعر الطريف .

« الحجر الصغير » مندمج في بناء سد ، على ان صغره وحقارته يحولان دون فهمه خطورة وظيفته . جعل يثن في صمت الليل على فرط ذله ، ويحسد الرخام المنحوت تمثالاً ، الماء الساقى الحداثق الغناء ، الارض المنبتة زهوراً

واثماراً ، الدر المتلائيء في اجياد الصبايا . يئس من حياته الخفية الوضيعة ،
فقاده القنوط الى التعرير بها ، فهو من مكانه منتحراً ، وبعد حين
فتح الفجر جفنه ، فاذا الطوفان يغشى المدينة البيضاء !
رأت « التينة الحقاء » ان ليس لها بل لغيرها الفء والثمر ، فاحجمت
عن إثمارها لئلا يُدمن الناهبون فيها ، فلم يُطق صاحب البستان
عُقمها ، فاستأصلها :

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به ، فانه احق ، بالحرص ينتحر .
في « الضفادع والنجوم » يرينا الشاعر تلك الحيوانات البلهاء واهمة
ان الكواكب المنعكسة في مياهها جيش جرار زاحف عليها ، فملت عليه
حملة شعواء بنقيق هائل ، لم تكف عنه حتى انبلج الفجر وامسحت صور
الدرارىء ، فصاحت الضفادع نشوى بظفرها الخيالي :

ايها التاريخ ، سجّل اننا امة قد غلبت حتى النجوم !
كل تلك القصائد وكذلك « السجينة » ، « المساء » ، « في الفقر »
هي من الطراز العالي ، تتجلى فيها قريحة شاعر مطبوع ، ينبذ الاتحال
والتقليد ، مقتبساً الهامه من صميم الحياة ، ذلك الينبوع الفيّاض الذي لا
تنضب مياهه . فليت الشاعر المفلق بقى في ذلك المستوى الرفيع ، مجتذباً الى
عليائه الشاخنة آلاف النفوس الدابة على الحضيض ديبياً ، بل المتمرغة في
الايو حال ! ان نحو ثلثي « الجداول » تجري مياهها العكرة بسم زعاف ،
سم المادية الغليظة ، المبنية على ارتياحه في اوضح الحقائق الجوهرية التي هي
اساس كل الاديان ، بل التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان . كأن الناظم
قد تعامى عنها كل التعامي ، فسخر شاعريته السامية لنشر شكه وكفره
الفاضح بين اهل الضاد ؛ فئس التسخير الشائن لشخصه ولفنه العالي !

في « الاله الثرثار » - هكذا يسمي الانسان - يساويه ، مع انه صورة
الخلاق الحية وملك الكون المادي ، باحق العجماوات بل الجمادات ، فيصيح

به ، كأنه يوقظه من سبات الغواية :

انت جزءٌ من الكيان وفيه كثراه ، كنبته ، كصاهُ ،
كالورود التي تحب شذاها ، والبعوض الذي تخاف اذاه .
ما لحى بالموت عنه انفصالٌ ؛ ان دنياه هذه اخراه .

في هذه الابيات ملخص فلسفة الشاعر المادية ، اذا ساغ ان فنعت
هذيانه الوقح بالفلسفة . وله نحو عشرين قصيدة ، يُجهد فيها مخيلته لبث
ماديته السمجة ، محاولاً بانواع السفسطات المتنكرة بوشي قشيب من ابداع
الخيالات ، ان يطفىء في العقول الايمان بوجود اله خالق ، مشترع ، ديان ،
يكافئ الابرار بساء خالدة الافراح ، ويعاقب الاشرار بنار ابدية السعير ،
فضارعت عتاهته جنون من يحاول اقناع الناس بعدم وجود الشمس التي
تيرهم والقبة الزرقاء التي تُظللهم . يهتف في « العليقة » :

انا للارض ، وان طال عن الارض اغترابي .

في رثائه لسليمان البستاني يصرح في شأن الموت :

لا تقل « ما وراءه ؟ » ذاك سرٌ خبأته الحياة في ظلماته .

كما يعترف بجهله مصيره بعد المنون ، هكذا يقر في « الطلاس »

بجهله مصدره :

جئتُ ، لا اعلم من اين ، ولكني اتيتُ .

يخيّل لقارئ « الجداول » ان ناظمها اراد ان يدس سم ماديته المحضة

في الدسم بين صفحات النصف الاول من ديوانه ، وقد ازاح طرف النقاب
عنها في بعض الابيات او الادوار . ثم ايقن ان المطالع قد اعتاد ذلك السم
الناعم ، فزاد كميته بالتدريج الى ان اقدم على تلقيحه به بدون انقطاع في
القصائد السبع الاخيرة . كلها مؤلفة من ادوار ينتهي جميعها بهذه الالزمة
المضجرة من فرط تكرارها : « لست ادري » . يكفي ابو ماضي بابداء
شكه العام ، بل جهله المُطبق لا بسط الحقائق التي يعتقدونها اشد الشعوب

توحشاً ، كروحانية النفس وخلودها ، ووجود الاله الخالق وحقوقه المطلقة
تجاه خليقته الناطقة . في « صراع وعراك » يقابل ذاته بالزهرة والحية
والنملة ، فيقول :

فبما امتاز عنها ؟ ليت شعري ! لست ادري .
ثم يسأل نفسه اكان له وجود قبل كيانه البشري :

اتراني كنت يوماً نغمًا في وتر ،
ام تراني كنت قبلاً موجةً في نهر ،
ام تراني كنت في احدى النجوم الزهر ،
ام اريجاً ام حفيفاً ام نسيمًا ؟ لست ادري .

ما النتيجة العملية لتلك المادية السافلة ، التي يرشق ابو ماضي قارئه
بقذائفه الضخمة المتواترة ، ولا سيما في القصائد السبع الاخيرة من
« جدوله » المسمومة ؟ ان الناظم يكفيننا مؤونة استخلاصها ، فلا يخجل من
ان يقول في « السماء » :

اكبر الاثم قولة المرء « هذا الامر اثمٌ وهذه فحشاء » ؛
ليس بين الصلاح والشر حدٌ كالذي شاء وضعه الانبياء .

وفي « تعالي » يطبّق على ذاته ذلك المبدأ الكفري المبيح لاقبح
المنكرات ، فيقول لحبيبه « تعالي نطلق الروحانيين من سجن التقاليد » ؛ يعني
بالكلمة الاخيرة المبادئ الاساسية لكل الاديان . هكذا يعترف الشاعر ،
وهو لا يستحي ، بان الشهوات الدنيئة قد غشّت على بصيرته ، فاكتفى
بمراتها اللذيذة على الارض ، واعرض كل الاعراض عن السعي وراء سعادة
ابدية بعد الموت ، لانه يعدها من الاوهام والخرافات ، فصح فيه كل الصحة
بيته هذا في « السجينة » :

ومن عَصبت عيناه ، فالوقت كله لديه ، وان لاح الصباح ، غروبٌ .

رشيد سليم خوري

رشيد سليم خوري الملقب بالشاعر القروي هو من شعرائنا المبدعين في اميركة ، الاندلس الجديدة ؛ ولا ريب في ان بعض قرائنا قد طالعوا بلدة وافرة ديوانيه « الرشديات » و « القرويات » ، اللذين طُبعا في السنتين ١٩١٦ و ١٩٢٢ في سان باولو (البرازيل) حيث هاجر سنة ١٩١٣ ، ثم ديوان « الاعاصير » الذي وليها . قد كتب لنا سنة ١٩٢٧ على رقعة يدل عنوانه المذكور فيها انه صاحب معمل لرَبْط العنق في المدينة المشار اليها ، فقال لنا انه « لا يزال فيها حليف الكد والنصب ، يتنازعه عاملان « قويان » ، ميله الشديد الى الادب وتكاليف الحياة الشاقة في غربة سحيقة ، يحيط به فيها من ذويه عيال ، فيهم عُجْزٌ وقُصْر . يكتب بداع شديد « من هوى النفس ، او بدعوة ادبية لا قبل له بردها ؛ ولا وقت لديه « للكتابة الا ما يخلّسه من فترات راحته ، او ما يضحى به من ساعات بيعه وشرائه . » لعمري ان من اثقلت الشواغل المادية كاهله الى ذلك الحد الباهظ ، فلا يقف على الشعر سوى نُتف من اوقاته الحافلة بهوم المعيشة ، وهو يتحف مع ذلك العالم العربي بجواهر عديدة من القريض الرائع ، لجدير كل الجدارة بان يُدرج في مصاف نوابغ الشعراء طالعنا عدداً كبيراً من منظوماته ، فاعجبنا عكوفه على استنباط المعاني الجديدة والاستعارات الشخصية ، ولا سيما بسطته في المواضيع الشعرية الخالصة ، مما يندر العثور عليه عند زملائه ، فان اوتار عودهم الشعري قليلة في الغالب .

طرق رشيد كثيراً من ابواب الشعر الغنائي ، فاجاد وابدع ، على ان المدمن قراءة قصائده والمستقضي مراميه لا يلبث ان يرى اجمالها دائراً على محور حب وطنه لبنان ، الصغير بمساحته وعدد اهاليه بقدر عظمتها في ميداني التاريخ والادب . كم اصعد من الزفرات وذرف من الدموع راثياً

لشقاء لبنان ، ولا سيما بعد الحرب الكبرى التي فتك فيها الجوع والفقر المدقع
بآلاف ابنائه فتكاً ذريعاً نادر المثال . فيدعو « سليل حاتم » الملك حسين
الى تفقد تلك الديار المنكوبة :

طُف في مدائننا ، فكم من جائع مترقب احسان كل غيور !
ولرب راب في النعيم مجندل كالشلو بين جنادل وخنور !
في « احبابنا » يتصور الشاعر المهاجر انه واقف بين قبور خلانه الذين
اودت بهم المجاعة المفترسة في ضيعة البرابرة مسقط رأسه ، يدعوهم الى النهوض
من مضاجعهم الخسنة ، فلا يلبون له نداءً ، فيتأوه على مصابهم الفاحع ، ثم
يختم رثاء بهذا الهتاف المتصاعد من قلبه الكسير :

اسني على بربارتي وطن الاحبة والصحاب ،
ومجال اول نظرة للحب في عهد الشباب !
لم يُبق فيها الجوع غير البوم ينعب في الخراب !
يتوق في منفاه البرازيلي احر التوق الى مشاهدة وطنه المحبوب الذي
فصلته ضرورة الارتزاق عن صدره العطوف ، فيسكب ذوب شوقه المظني
في « لو ترين » ؛ ها كم دوراً من ابداع ادوارها :

إيه ، لبنان ، هل يراك نازحٌ شفّه هواك ؟
حبذا العيش في حماك ، حبذا العيش ليلتين ،
ثم حين !

بيد ان الشاعر القروي لا يجتريء بالتشبيب بمحاسن وطنه ، وقد
حُرّمها ردهاً من الزمان ، ولا بالبكاء على ضرائح اهاليه الابرياء ، وقد ماتوا
شر ميتة ؛ ولا تكفيه المجاهرة بان هواه للبنان ثابت كالارز الخالد بازاء
صروف الدهر ، كما فعل في « الرجاء الوطني » :

بنيتُ من الارز هيكل حي ، فقل للعواصف ان تعصفا !
انما يحب بلاده حباً اسمي ، يجعله مبتئساً على رسفها منذ عصور بقيود

ادبية اشد وطأةً من اثقل الرزايا المادية الوقتية . قد عبّر غير مرة عن تلك
العاطفة الحارة المستولية على قلبه ، المتمزجة بدمائه ، ولا سيما في « سائلي » ،
اذ يقول لنجية روحه المعذبة :

سائلي الروح عن فؤادي ؛ انه طار بالزفير !
فاذا هاجت العواصف ، فهي من غازه عواطف
نائحات على بلادي وعلى شعبي الاسير !
يستخف في « المعجزات » ببطش الاعصار الجارف الهائل التدمير ،
فيقول له :

ان كنت تمحو بعض ما طبعنا ، فانفض غبار الذل عن وطني !
يخاطب اخوانه جناتها في إيبيرنكا من ضواحي سان باولو ، حيث
سبت نيران العراك الرائع ، المفضي الى استقلال البرازيل عن سيادة برتغال ،
فيقول لها في ختام نجواه :

يا زهرة يحيي شذاها العظام ، فوحي لاشق امة في الامم ؛
مسي انوفاً اصبحت في الرغام ، فربما عاد اليها الشمم ،
فجردت في إبيرنكا الحسام وركزت في حرمون العلم !
بجانب القصائد الوطنية التي احلها الشاعر القروي المحل الاول من
ديوانه ، نراه يعالج بعض المواضيع التهذيبية ، رامياً بها الى ترقية اخلاق
قومه ، لايقانه ان الاستقلال الامثل هو تحرر الانسان من نير الاميال
السافلة وتقربه الى كمال خالقه الجليل . في قصيدته « مدنفي في مستشفى »
قاده وصف شقاء العليل بجسده الى ذكر من يفوقه تعاسةً ، وهو العليل
بروحه ، عبد الشهوات المنكرة :

رب ساع لم يشك في الجسم داء ، وهو في النفس قد شكا ادواء .
صحة النفس ان تكون تقياً ، صالحاً ، لا يدنس الاتقياء ،
وكريماً ما همّه الاخذ لو لم يك بالاخذ يستطيع العطاء .

في « الشر الكبير والخير الكبير » يصرح لنا بان الاول هو
الخطيئة ، ولو خفيفة ، وان الثاني هو العمل الصالح الذي به وحده يمجّد
الانسان خالقه ويخدمه خدمة مقبولة :

اشد بليّة ذنب طفيف ، ينجر عليك تبكيت الضمير ..
الذ ملذّة صنع جميل ، تنام لديه مراتح الضمير .
في « انشودة الفتاة » يميل ببنت وطنه عن الانهماك في تزيين الجسد
الى بذل العناية لتحلية النفس بالعلم ، وعلى الاخص بالفضيلة :
فجمال الجسم يفنى مثلما تفنى الزهور ،
وجمال النفس يبقى زاهراً مر الدهور !

تلك بعض المواقف التهذيبية لرشيد خوري ، وله مثلها سداداً واجادة
في مضمار وصف الطبيعة والاخلاق . من اجمل قصائده الوصفية « وقفة على
الشاطيء » ، « سقوط اورشليم واريحا » ، و « مدنف في مستشفى »
التي مطلعها :

ساهر لا تمتعاً بل عذاباً ، نائم لا استراحة بل عياء .
احياناً يسبك وصفه في قالب الرمز ؛ من اطرف التمودجات على فنه
هذا « الثور » . قد نعت هذا الحيوان بالانقياد والوداعة والاكباب على الشغل
الناهك الدار بالرزق على البشر ؛ وبعد تذكرنا انهم قد عبدوه في القرون
الغابرة ، يسأله هذا السؤال :

ايها الثور ، كيف حالك اصبح بعد ذاك التمجيد والاكرام ؟
سرق المجد منك بعض الانام ، فهو ثور ، لكن له الناس تفلح .
هي فكاهة عنّت له في وصفه فادجها فيه ، وقد يكون الهزل لحة وصفه
وسده ، كما في « خلق الشارين »
الشاعلين ، المزعجين ، الطالمين ، النازلين ؛
ويلى اذا ما ارهفا ذنبيهما كالعقربين !

ان ينزلا ، لهما فمي ؛ او يصعدا ، لهما بعيني .
 لم يُكثَر من نظم القصائد الروائية ، مع طول باعه فيها ؛ كفي شاهداً
 على تلك البراعة ما نراه من إحكام سرد الحوادث في « زغرنا وبشري »
 و « البشرية الحسنة » ، فنأسف كل الأسف لعدم توغله في ذلك النوع
 المستحسن من القريض .

على انه يرتقي الى اسمى ذرى الشعر الغنائي حين ييوح لنا باشمئزاه
 النبيل من ترهات هذه الحياة الدنيا ، وشوقه المضني الى الوطن السماوي
 وسعاده المشبعة الابدية . من اجمل ابياته في هذا المعنى ما نقرأه في
 « الحياة الباقية » :

انما اللذة في الدنيا اشتهاً فضجر ؛

وانا اشتاق لذات الخلود الدائمة !

وفي « الوطن البعيد » :

ما البرازيل مهجري ، ليس لبنان لي حمى ؛

ان نفسي غريبة ، تشتكي البعد فيهما .

انا ما دمت في الثرى وبعيداً عن السما ،

مهجتي كلها جوى ، كبدي كلها حنين ؛

نازحٌ يشتكي النوى ، دأبه النوح والانين !

قد ذكرنا اصناف الشعر التي عالجها الشاعر القروي ، وفيها من التنوع
 الشهي ما يُطربنا . فضلاً عن ذلك التفنن في المواضيع ، يمتاز رشيد بالابتكار
 في التعبير ، وعلى الاخص في الخيالات والاستعارات ؛ فهو في هذا الميدان
 ايضاً من شعرائنا المبرزين . اليكم بعض الامثلة من صياغته الطريفة ؛ يقول
 في وصفه للفتاة الطاهرة :

وكما يسري نسيم الصبح في صدر الحقول ،

(١) ضيعتان من ضيع شمال لبنان .

هكذا افكارها في صدرها الباهي تجول .

يحن ارق الحنين الى ضيعته البربارة

حيث السماء بظل كل عريشة ، حيث الملاك بوجه كل صغير !

يُسّر الينا بشدة خجره من حياته في وادي الدموع ،

من رياء رائج في سوق حب كاسد ؛

تلك مأساة يوارىها عن العين المتأمّ ١ !

يطلب من اخوانه إبيرونكا ان تبوح له بما رأته من المشاهد الفتانة في

حرب الاستقلال البرازيلي :

يا زهرتي الصفراء ، بنت الختوف ، بنت الظبي ، بنت العذاب الاليم ،

يا شعلة من برق تلك السيوف ، يا قبسة من نار ذاك الجحيم ،

صفي لنا غارات تلك الصفوف وحدثني عن هول يوم عظيم !

تتجلى قدرته على الابتكار حتى في الرثاء ، الذي قلما حرك له القلم ،

وهو من أكثر انواع الشعر العربي ابتداءً ، يصعب جداً انفساحه للابداع

في التعبير . قال في رثائه لصديقه الكاتب قيس لبكي ، انه يبكي

على ذكاء نادر ، طاهر ؛ وكم رأينا من ذكاء قذر !

على يراع قد فقدنا به نايماً يعني ، لا يراعاً يصر ...

كنت رقيق القلب الا على قلبك ، لا يعنك ان ينفطر ؛

اسرفت في اجهاده آله ، كأنها آليت ان تنكسر !

التأيس - نعي بذلك اعارة الخلائق غير الناطقة نفساً بشرية - هو

ايضاً من سمات قريحة الشاعر القروي . يناجي النسيم في « وقفة على

الشاطئ » ، مذكراً اياه عهداً مضى وافر العذوبة ، فيقول له :

طالما زرتني اذا انتصف الليل بلبنان ، والانام نيام ،

ورفعت الغطاء عني قليلاً ، فاحست بمزحك الاقدام .

(١) قد عني الشاعر بالنام الموت .

ما اظرف « كلام دوحه » تفصّل لنا مظاهر عطفها على الفلاح المنهوك
من التعب ، الالاجىء الى ظلها الوارف المضياف ، وهو لو استظل بجانب
قصر احد الموسرين ،

لدهته مكنسة الغني ، وراءها الكلب العقور .
ثم تطريء التساوي الكامل السائد في عالم النباتات ، وهيهات ان
يوجد مثله بين بني آدم :

هذا التراب طعامنا ، وشرابنا هذي المحور .
يرحب الشاعر بالحرية الناشئة في الدولة العثمانية بعد سقوط الطاغية
عبد الحميد ، فيخطبها باقوال التعظيم هذه :

يا حياة الانام ، اهلاً وسهلاً ، بهتاف الترحيب ضج الانام !
انت اجريت في القلوب حياةً ، وهي ماء بدونها ورغام ،
وكسوت الانشاء ثوباً جديداً تتبارى في نسجه الاقلام .
نرى مثل ذلك التأنيس الطبيعي اللبق في « اقوانة إيبيرنكا » ،
« المعجزات » ، « البلبل الساكت » وغيرها ، وهو من اجلى الشواهد على
قوة مخيلة الشاعر القروي . مع تلك المحاسن الممتازة نجد في قصائده بعض
الابتذال وعدم الطبيعية في الخيالات ، كقوله في وصف ليلة مقمرة :

فكأن الفضاء صدر رحيب ، وكأن الهلال فيه وسام .
نصادف ايضاً فيها شيئاً من المغالاة المستهجنة ، مثلاً في كلامه لمواطن
عائد من المهجر الى لبنان الثاقل آلاف بنيه بعد الحرب العالمية الاولى :

موّت عيونك ما استطعت من البحار ، وانت راجع ،
فلسوف يدهشك المصائب وسوف تُعوزك المدامع !
بيد ان تلك السيئات المصحوبة احياناً باللحن خليقة بغض النظر عنها
في شعر فياض بالحياة ، نبيل المرامي ، كثير التنوع في المواضيع والابتكار في
الخيالات ، مما يُجيز لنا عدناظمه من نوايع القريض العصري .

نعمه قازان

في « معلقة الارز »

نشر نعمه قازان سنة ١٩٣٨ مجموعة من قصائده ، عنوانها « معلقة الارز » ، في سان باولو احدى مدن البرازيل . صاحب هذا الديوان لبناني مولود في ضيعة حديثا سنة ١٩٠٨ ، وقد تخرج في المدرسة الوطنية في قرية الشويفات من سنة ١٩٢٢ الى ١٩٢٦ ، ثم هاجر الى البرازيل في العام التالي . هناك اكب على اشغال شتى ، ثم عقد سنة ١٩٣١ شركة مع نسيبه سليم رزق النابغة في صناعة الجلد ، فكان لهما بعد اربعة اعوام مصنع من اكبر مصانع الاحذية في اميركة الجنوبية .

نظم نعمه الشعر منذ حداثته ، بل نشر شيئا منه في الصحف بتوقيع « بدوي البقاع » . قد اخبرنا احد اصدقائنا - وهو من اشهر ادبائنا في البرازيل - ان قازان ينكر كل الانكار ما صاغه من القريض واذاعه بذلك الاسم المستعار . لذلك عمد الى نظم « معلقة الارز » ، وهو موقن ايقان كثير من رصفائه المعاصرين ان الشعر العربي في ميسس الحاجة الى التجدد الحيوي في معانيه واساليبه . فحُتنتنا تلك الانباء الشائقة الى اجالة نظر النقد بين قصائد « معلقته » .

يقول قازان في ظهر صفحة اهداء ديوانه لروح امه : « طُبع من هذا الكتاب الف نسخة بنفقة اصحاب معمل غاندي ، سليم رزق ونعمه قازان والشركاء ، وقد وقفوا ريع هذه الطبعة على الفقراء المحتاجين ، توزعه جمعيات خيرية في ريو ده جانيرو وسان باولو ولبنان . » نعم الفكر النبيل واجزل الله ثواب اصحابه في الدارين . بعد ذلك نجد توطئة شعرية حافلة بخيالات جميلة لناظم « المعلقة » ؛ هاكم خاتمتها : « الانسان لا يستطيع

« ان يتحدث عن الله حتى يتحد بالله . آمنت بالله ، وطوبى للذين آمنوا ولم يروا ! »

مطلع القصيدة الاولى - وعنوانها « الفاتحة » - صيحة غضب نستغريها جداً بعدما ابداه لنا من افكاره السامية في علائق الانسان مع الله ، ومن حنانه واريحيته نحو المعوزين . اما في تلك الصرخة فنستشف حنق الاثره المجروحة :

تطاول قوم على شهرتي ، فقلت : « خذوها بلا منة !
« اذا كان ذلك ما تشدون من الشعر والفن ، واخييتي ! »
« التجديد » - وهو القصيدة الثانية - حملة عنيفة على دعاة الجمود ؛
يحتاج عليهم قائلاً :

اخذتم عليّ طريقي الجديد ؛ ليست حياتي في جدتي ؟
ثم يكثر من الترفن بغده - وهو رمز التجدد - باطناب وابهام مملين ،
متحاشياً عن ان يوضح لنا ماذا يعنيه بذلك التجدد ؛ بل يزعم انه اتى
معجزة من الابتكار بانشاده :

غدي ، يا الهماً عليه اتكالي ، وفيه عزائي وامنيتي !
في « اماره الشعر » بعض الوضوح والتلاحم ؛ الفكرة الجوهرية التي
يعبر عنها هي ان كثيراً من المعدودين امراء الشعر غير احقاء بذلك اللقب
السامي ، لان حسن قريضهم محصور في تنميق الالفاظ ، وانما الجمال الاسمي
في المعاني . لقازان في هذه القصيدة عدة ابيات متميزة بسداد الرأي وجدة
الخيالات كقوله :

فلو كان معنى الحياة لعمري	بخط تآلف في صورة ،
وكان جمال الملاح الملاح	بكحل العيون وبالنزينة ،
وكان الشباب وعزم الشباب	بحسن الوجوه وبالبزة ،
وكنت وكنتم باجسادنا ،	لقلت « هو الشعر بالفضة » ؛

ولكنه الشعر روحٌ بنا ، ولكنه الشعر في الخلجة^١ .
« نسمة الحياة » كثيرة الحشو والابهام ، فهي اشبه بطوفان من الالفاظ
والخيالات فائض على صحراء المعاني . دونكم نموذجاً من تلك الشثرة
الموزونة ، التي يناقض بها قازان نظريته الصائبة التي بسطها لنا في
« امارة الشعر » :

لماذا بُهتُمُ مستكبرين عليّ العذوبة في نعمتي ،
ولي مثل ما للانام عيونٌ وانفٌ وآذانٌ^٢ في طينتي ؟
فاما رأيت الذي لا يُرى ، رأيت بعين بلا معدة ؛
واما نشقت عبير السماء ، نشقت بانف بلا معدة ،
واما سمعت نشيد الحياة ، سمعت باذن بلا معدة !
« العليقة المشتعلة » تريحنا هنيئةً من عناء الاصغاء ، في القصيدة
السابقة ، الى كلام كثرت الفاظه بقدر قلة معانيه . هنا يترنم قازان بجمال
بلاد الارز ، وطنه المحبوب ، الذي يحن اليه ارق الحنين ، فيرى اجل
محاسن مهجره البرازيلي كامد الالوان ، عاجزاً عن الاخذ بمجامع قلبه :
فختي السواقي ، اذا نَعَمْتَ ، كأن السواقي بلا نعمة ،
وحق الكنائس اجراسها ترن ولكن بلا رنة ...
وهذي النجوم ، وقد شعشت ، تلوح لعيني بلا لمعة ،
وهذي الازاهر تكسو الرياض ؛ ازاهر ، لكن بلا نفحة !
« العهد الجديد » نشيد تعظيم جبران خليل جبران ؛ وليس من يجهل
الحاد هذا الرجل وسفسطاته الفلسفية والخلقية . قازان مُعجب كل الاعجاب
بضاليل جبران ، فيبب الدفاع عنه ، حتى عن كفره ، في وجه خصومه ،
فيرشقهم بسهام حفيظته الخرقاء :

(١) الخلجة مرادفة للتحريك . قد عني قازان ان جوهر الشعر تحريك العوامل
الشريفة للنفس - (٢) عدم تنوين هذه الكلمة مستهجن .

فقلتم « ولكنه قد كبا » ، فقلت « اسبقوه على الكبوة » ؛
 فقلتم « ولكنه كافر » ، فقلت « اطرده من الجنة »
 وزدت : « لقد قال جبرائنا ، وما قيل قبلُ بلا زبدة . »
 اذاً يعد الناظم جبران نابغة المفكرين ، مما يدل دلالة جليلة على ان
 معلومات قازان محدودة جداً في شأن مشاهير الرجال من فلاسفة ومؤلفين ؛
 ففي تعظيمه لجبران غلو فاحش وجهل مركب .

في القصيدة التالية ، التي عنوانها « العهد الجديد » ايضاً ، يعميل
 الشاعر عن التفلسف الى وصف العاب طفولته وملاهيها في مسقط رأسه ،
 فتنفس الصعداء بعد ان كادت روحنا تبلغ التراقي . هنا يحدثنا بابيات
 رشيقة عن هربه من الكلية ، لعبه مع الهرة ، تربعه في الخيمة ، ركوضه مع
 الغيمة ، مسابقته للرياح على صهوة مئثرته ، بكوره الى الكرمة وتنعمه باكل
 عنبها . بعد ذلك التصوير الدقيق لصباء المرح الهنيء ، يعترف لنا بكل
 الصراحة والتواضع - نعم الاعتراف الصادق ! - بأنه قد اضاع الله في مهجره
 البرازيلي ، فاصبح في حالة الفقر الروحي المدقع ، وهو اذل وآلم
 ضروب الاملاق :

و كنت مع الله في قريتي ، فصرت بلا الله في غربي !
 و كنت غنياً مع القلة ، فصرت فقيراً مع الكثرة !
 فثُرت و ثارت انايتي ، فضعت وضاعت الوهيتي ! . . .
 وان كنت عبداً لغير الهي ، فاني عبد لحريتي !

في « الشعاع » تعترى قازان نوبة جديدة من نوبات تفلسفه المبهم
 الفارغ ، فيعود الى شن غارة شعواء على خصومه . من المضحكات المبكيات
 ان « شعاعه » مظلم ، فلا يهدينا الى فهم كنهه الخلاف القائم بينه وبينهم .
 اما براهينه لاخامهم والقامهم الحجر ، فهي من النوع الآتي ، وفيه من
 البلادة وفساد الذوق ما فيه :

لئن تضعوا الشمس في راحتي وترموا النجوم على جهتي ،
وان تصلبوني ، ولي كلمة ، فليست لارجع عن كلمتي !
في نهاية تلك القصيدة يخيل لنا ان قازان لا يجد مهرباً من أعدائه
الالاء الا بالتحليق فوق سيارتنا الحقيمة ، متجهاً الى عرش الخالق العظيم ،
ليتشكى له من جور بعض خلائقه :

ففضتُ جناحيَّ نوراً وناراً وحدقت بالشمس كالنبلة ،
وقلت لنفسي « اليها ! » فطارت و طرت بشعري الى السدرة ' ،
وحلقت حتى دنوت اليه ، فقلت : « السلام على العزة . »

تلك خاتمة القصيدة ، وهي من السخافة وعدم الباقاة بمكان !
كل المنظومات السابق نقدها على وزن واحد ، المتقارب ، وبقافية
واحدة . كان الاخرى بالنظم ان ينوع الاوزان والقوافي ، لئلا يحتمل آذان
القراء ثقلاً باهظاً من الملل . اما القصيدة الاخيرة من ديوانه « النشودة
الغريب » ، فهي على وزن جديد ، شديد الرشاقة ، بل هي اجمل قصائده في
« معلقة الارز » ، تشفع بعض الشفاعة في ما انطوى عليه غيرها من سخافة
المعاني وركاكة المباني . يعود فيها قازان الى الترنم بمحاسن وطنه الصغير
المجيد ، مطلقاً العنان لعواطفه الحارة النبيلة ؛ هاكم ادوارها الاولى :

الارز والوادي ، * يارمز امجادي ،
يا كنز احفادي ، يا ثرى لبنان !
يامسبح الاحلام ، يامهبط الالهام ،
يامنهل الاقلام ، ياسما لبنان !
يائثر الاتراح ، ياشاعر الافراح ،
يافاشر الارواح ، ياهوا لبنان !

(١) السدرة بكسر السين شجرة النبق . قد سمي العرب سدرة المنتهى شجرة نبق
زعموا انها على يمين عرش الله تعالى .

يا ماخر الانبحار° ، يا فاتح الامصار° ،
يا باعث الانوار° ، يا ذكا لبنان° ،

يتضح من التحليلات السابقة ان المادة الفكرية ، وهي جوهر « معلقة الارز » في نية صاحبها ، ضئيلة جداً ومشينة بعدم الوضوح وقلة التلاحم في اكثر عناصرها . اما لغة الديوان فشوبة بعدة اغلاط ، ولا سيما باستخدام كلمات عامية عديدة بدون ادنى مسوغ ، كزيادة الفكاهة في ديوان اسعد رستم . دونكم بعض الامثلة عليها : التكة بمعنى الثانية ، « يا ما » عوضاً من « كم » ، القتلة للضرب او التوبيخ القاسي . بعد ذلك التفريط في العروبة لا تهالك عن الابتسام عند ملاحظة الادعاء الفاحش الذي قد طبع به قازان بلجر الاحمر هذا التنبيه الغريب للقارئ ، في آخر معلقته : « كل اغلاط الكتاب المطبعية هي اغلاطي الصحيحة . »

اسعد رستم

لا يخفى عن الادباء ان اسعد رستم اللبناني اشهر شعرائنا الفكاهيين العصريين ؛ طبع ديوانه المصور في بيروت سنة ١٩٠٨ ، جامعاً بين دقتيه مئات من القصائد الهزلية في الغالب ، وقد نُظمت في الولايات المتحدة حيث هاجر الشاعر في شرح شبابه ، فتناقلتها صحف العالم العربي . في الحقيقة ليس رستم ابعد شعرائنا الفكاهيين صيناً فقط ، بل هو ، بين من عاجلوا القريض من اهل جيلنا ، الشخص الوحيد الذي وقف اكثر شعره على الهزل . هو اذاً من المجددين الفاتحين ميادين رحبة لادبنا الناهض . لذلك رأينا ان نحلل فنه الطريف تحليلاً دقيقاً ، نميز به خمره من خله .

رستم مطبوع على المزح ، وله مقدرة غريبة على اضحاك القاريء ، احياناً كثيرة الى حد القهقهة . يتضح ذلك من مقدمة ديوانه ، حيث يقول :

« انا اسعد رستم ، متزوج ، لراحة افكار الاوانس . ابصرت نور هذا الوجود في بعلبك ، وما بلغت الثانية عشرة من العمر حتى ارسلي والدي الى مدرسة الشؤير^١ العالية ، فقضيت فيها عاماً كاملاً ، كان كله شحط آذان^٢ »

« وضرب طبشة^٣ ، وتكنيساً وركوعاً ووقوفاً على رجل واحدة ؛ إن شاء الله وإن شاء اليه راجعون . »

نلاحظ في هذه الفقرة شديد ميل رستم الى استعمال بعض الالفاظ العامة لزيادة تفكيكه المطالع . الهزل انواع عديدة ، يفضل منها رستم الانتقاد اللاذع لاكثر العيوب شيوعاً بين مواطنيه ، مما يصنع ديوانه صبغة ادبية اصلاحية ، لا بأس بها ، فان وصف تقائص القريب وصفاً فكاهياً مضحكاً اشد ودعاً له عنها من التوبيخ العابس الحشن القاسي . لا نكاد نجد عيباً فاشياً بين ابناء لبنان لم يعالجه رستم بمزحه الطريف : الرياء في الدين ، الخداع في المعاملات ، الاغتياب ، اضاءة الوقت في اللهو والزهو ، الادعاء الباطل ، الاكتفاء بقشور التمدن ، عدم الاتحاد البالغ الى حد التخاصم والتشاتم ، الحسد المفضي الى ارتكاب المنكرات ، عدم دفع الديون والافلاس الاحتياطي ، احجام الشبان عن الزواج حرصاً على الحرية الفاسدة ، الى غير ذلك مما يطول تعداداه .

يرمي رستم بسهام هزله الصائبة تلك المساويء الكبرى ، وهو لا يثقي على غيرها من العيوب الخفيفة . من امثال ذلك انه يتهم على شدة التولع بسباقات الخيل مع المراهنة فيها ، فيختم قصيدته بهذين البيتين الشبيهين بالعرب التي في طرف ذنبها السم الزعاف :

(١) اسم ضيعة في لبنان - (٢) تعبير في لهجة لبنان معناه جذب الآذان -
 (٣) تعني في لهجة لبنان خشبة لضرب الاولاد ولا سميا التلاميذ .

سعيتم وراء السباق طويلاً ، وكلكم للخيل سميرو ،
فان تصحبوها ، فلا عجب ، فتلك خيول وانتم حمير .
الحق يقال : قلما يجول قلم رستم اللاذع في مزالق الشتم الجارح ،
بل يجترىء في الغالب بالوم الفكاهي ، المضحك والمقبول حتى في فطر صاحب
العيب المراد اصلاحه .

ينتقد فرط التحيات والاستئلة عن صحة الاقارب واحوالهم ، في الزيارات
ونحوها . يهزأ في « بوس اللحي » بعادة تلاثم الرجال على الفم ، فيقول
بفكاهته المألوفة ، مع بعض السقط الناجم عن استعمال شيء من الفاظ
اللغة العامية :

ما اقل اثنين في تقبيل بعضهما ؛ كأنما جبل يهوي على جبل ؛
حتى الزنوج ، اذا ما حدقوا بهما ، تحمر اوجهم من شدة الخجل .
بوس اللحي عادة ليست بلائقة ؛ فاهيك ما نشرت فينا من العلل ،
لا سيما ان يكن من بُست مفترساً حصاً من الثوم او رأساً من البصل .
يرمي بقذائف سخريته السيدات المغرمت بكلابهن ، فيصور لنا فقيراً
مستعظيماً وقع نظره على مشهد من مشاهد ذلك الهوى الشائن
فعاد على اعقابه ، وهو لاعنٌ زماناً غدت فيه الكلاب رجالاً .

يتضح من التفاصيل السابقة ان معظم الهزل في ديوان رستم قد رمى
به الناظم الى اصلاح عيوب اللبنانيين مواطنيه ، على طريقة غير اليمعة او اقل
ايلاماً من سواها . بيد انه يتسلح احياناً بسهام فكاهته للنزول في غير ذلك
الميدان ، فيهجو بعض الاشخاص هجواً قاسي الالهجة ، او يصف لنا من الحوادث
الغريبة ما يضحك الثكلى ، ولا غاية له سوى المزح وجعل القارئ يلوذ
بكشحيه من فرط القهقهة . من ذلك وصفه لبدوي يجول في نيويرك بزيه
الاصلي ، فيضحّي بفلسه الاخير لدخول ملعب توقع ان يشاهد فيه اكبر
العجائب ، واذا هو حافل بجمال قد شبع من رؤيتها .

بين آونة واخرى يُعرض رستم عن الهزل معالجاً بعض المواضيع
الرزينة ، وقد اجاد في بعضها وافاد ، مثلاً في « جمعية الصليب الاحمر » ،
« زهرة من الجنة » حيث يصف التغذية الكبرى التي نالتها اميرة محتضرة
باصغائها الى آية انجيلية ، « الغني والفقير » التي يقارن فيها تعاسة غني منهمك
في اقبح الملمات بسعادة فقير حار التقوى ، « هناك » الحاوية وصف دفن
احد الاغنياء بمجالي الابهة ، واحد الفقراء بمنتهى البساطة والحقارة ،
فيستنتج الشاعر من ذينك المشهدين ان سعادة المعدم ليست هنا في وادي
الدموع ، بل هناك في السماء .

اما المدح فلا نكاد نجد له اثرأ في قصائد رستم ؛ هذه المزية لا تزال
نادرة في شعرائنا حتى المفلقين .

تلك اهم المواضيع التي تناولها نابغة الهزل ؛ اما القالب الذي يفرغها
فيه فهو على الغالب الوصف ، وحياناً الرواية ، وقلما يكون مثلاً على
السنة الحيوانات .

قلنا ان رستم مفضول على المزاح ، وكثيراً ما ينفجر بدون ادنى تكلف
من اعماق روحه الفكينة انفجار الينابيع الباردة من جوف الارض .
له في هذا المضمار نكات تُضحك الشكلى ؛ منها قوله في ختام قصيدة سرد
فيها على جناح السرعة اكبر عيوب الناس :

اتي قد عرفت ذلك من نفسي ، لان الانام طبعاً سواء .
كذلك اقراره غير المنتظر ، في كلامه عن الفتيان بل الكهول الهارين
من اعباء الزواج الثقيلة :

الا انما العُزاب ليس لهم هنا يعيشهم هذي ، واولهم انا .
نجد طابع المزح هذا ، الذي هو الميزة النائية لفن رستم ، حتى في
المواضيع الجدية ، القليلة بالنسبة الى غيرها ، مثلاً في « الابيض للاسود »
حيث يوصينا الشاعر باذخار الغرش الابيض لليوم الاسود ؛ يقول فيها ان

الاصفر الرنان خير ستر للعيوب واعظم مجلبة لمدح الناس :

لو كان الاحدب ذا مال ، لدعا الناس ظريف القدر .

يصعب جداً على صاحب الملايين تجنب الاسراف ؛ ذلك ما يشفع بعض الشفاعة بما نراه احياناً كثيرة من الافراط وفساد الذوق في هزل رستم . يتبسل بالمزح وصف بعض مظاهر الخلاعة ، فكأنه يبتسم لها استحساناً او يعدها من الترهات المضحكة ؛ نرى ذلك الضلال الفاحش في « غنطوس وتشارلي » وفي « دعوى وتبرئة في عالم التصور » . يتقح على المزح حتى في كلامه عن العزة الالهية واهول مواقف البشر امامها . يقول مثلاً في شأن دينونة الله للشعراء واسقاطه اياهم في جهنم :

ولو غلط الاله وقال « روحوا نزولاً نحو مملكة الدفاء » ،

لكنا نطفئ النيران فيها بابحر شعرنا من دون ماء .

قد يبالغ في الهزل مبالغة يخرج بها من حدود المعقول ، كما فعل في كلامه عن امرأة فقيرة سرق جندي لبنها ، فامر القاضي يشق بطن السارق ليتحقق ذنبه ! كذلك يأتينا بهذه السخافة ، وهو يحدثنا عن دنو اجله :

يقول الاطباء سوف اموت ؛ وذلك ، يا قوم ، في الارجح .

فهل تحضرون بساعة دفي جميعاً لاقبركم مطرحي ؟

نرى له شيئاً غير يسير من المزح التافه في بعض الابيات او في قصائد برمتها ؛ مثال ذلك قصيدة القاها في مأدبة اقيمت له في الاسكندرية ، يفصل فيها عدة اسباب لم تقد خطاه الى مصر ، ثم ييوح لنا في النهاية بالسبب الحقيقي الوحيد لذهابه اليها ، وفيه من البلادة وفساد الذوق ما فيه ؛ قال :

فاتي بسرکم جئتہا لانہا الی لم تذهب .

فضلاً عن سوء استعمال الفكاهة في كثير من القصائد ، نجد له عيباً

آخر لا نرى له من مبرر ، وهو الافراط في استعمال الكلمات والتعابير العامية ، وهي كرقع عديدة ، صغيرة ، شتى الالوان في ثوب من نسيج واحد

فاخر ، هو الشعر . يرتكب رستم هذا الخطأ الشائن مراراً ، وان لم يقصد به الهزل ، مما يُشتم منه قصر بابه في معرفة اللغة العربية وعدم احترامه للقراء الادباء . يقول مثلاً « ما اثقل اثنين في تقبيل بعضهما » و « ليس يرى في جيبه بارة الفرد » ، وفي الجملتين من التعبير العامي ما لا يُجيزه شيء من الفكاهة .

اما الخطأ في اللغة الفصحى ذاتها ، فهو ايضاً كثير ، بل غليظ احياناً ؛ ها كم بعض النمودجات : « يا لطيفاً » في مناداة الله ، « طابق » بمعنى طبقة في بيت ، « مطرحي » بمعنى « عوضاً عني » ، « عموم » بدلاً من عامة الناس . بجانب هذه الشوائب غير الطفيفة في مادة التعبير اي لغته ، نجد نقصاً كبيراً في صورته ، وهو الابتذال . مخيلة رستم قادرة على استنباط المواضيع الفكاهية ، على اننا لا نرى فيها مثل هذه المقدرة لابتكار التعبيرات ولا سيما الخيالات . انتحاله في هذا المضمار أكثر من إبداعه ، مما يجعل شعره الهزلي ، مع ما فيه من الحسنات ، دون شعرنا الغنائي العصري الممتاز بمراحل . خلاصة القول ان لاسعد رستم على الاخص فضل الفاتح ميداناً واسعاً ، متنوع المناحي ، للقريض الفكاهي الحديث ، ويسوغ عده نابغة بالتفنن في المواضيع الهزلية . غير ان تواتر عدم اعتداله في المزح وقلة ابتكاره في التعبير ، فضلاً عن ركافة انشائه وعدم عرويته الكافية ، تحول كل الخوول دون بلوغه ذروة ذلك الفن ، الذي نرى له مكاناً رحباً ومرتبعة عالية في آداب ارقى الشعوب .

(١) يعني بارة واحدة . البارة كانت الجزء الاربعين من الغرش التركي القديم .

ميخائيل نعيمة

ناقد الادب العربي المعاصر^١

ميخائيل نعيمة سليل ضيعة بسكنتا في لبنان ، وقد اتاحت له العناية الالهية ، اذ لم يبلغ الحُسين من عمره ، ان يكون في طليعة مجددي الادب العربي في عصرنا . تسنى له ادراك ذلك المأرب العسير بثقافته العالية ، فقد تعلم في مدرسة بولتافا (Pultava) في روسية ، ودرس ادب تلك البلاد الممدود من اغنى وارقي الآداب الغربية . ثم هاجر الى الولايات المتحدة ، فنال شهادة الحقوق في كلية واشنطن سنة ١٩١٦ ، فضلاً عن تضلعه من الانكليزية وآدابها . تلك السياحات والدروس المتنوعة قد وسّعت افق افكاره ، فصار من اشهر اعضاء جمعية « الرابطة القلمية » في نيويورك ؛ ولا يخفى انها من ابعد محافلنا الادبية صيتاً ومن اشدها تأثيراً في تطور ادبنا الحديث . بهذه المقالة نقصد تحليل آرائه في الادب عموماً وفي ادبنا الجديد خصوصاً ، فانه من ائمة النقاد المعصرين بسداد احكامه وجسارته النبيلة في ابدائها بصراحة كاملة ، لا يخشى لوم لائم ولا انتقام غضوب ؛ وقد نشر اكثر تلك الآراء في كتاب « الغربال » الذائع الشهرة .

يقول عن الادب عموماً ان له « مقاييس ثابتة » تتجاوز الزمان والمكان ، ولا تعبت بها امواج الحياة المتقلبة واذواق العالم المتضاربة ، مناقضاً بذلك التصريح الجريء رأي عامة الادباء العرب ، الزاعمين ان لادب لغتهم مقاييس مختصة به ، فلا تسيطر على الآداب الغربية . تلك المقاييس

(١) مع اننا قد جعلنا في صدر هذا الكتاب مقالنا النقدية على طائفة من الشعراء ، ولا سيما المشهورين ، ادرجنا هنا آراءنا في ميخائيل نعيمة نافذة ادبنا المعصري ، حتى نوضح في المقالة الآتية المختصة بشعره ، انه قد تجنب اكثر العيوب التي كشفها في ذلك الادب بجسارة تستحق احمر الثناء .

الجوهرية المطلقة هي اربعة في نظر نعيمه . الاول « حاجتنا الى الافصاح عن
« كل ما ينتابنا من العوامل النفسية ، من رجاء ويأس ، وفوز وحبوط ،
وايمان وشك ، وحب وكره الخ . » الثاني « حاجتنا الى نور نهدي به في
« الحياة ، وليس من نور نهدي به غير نور الحقيقة ، حقيقة ما في انفسنا
وحقيقة ما في العالم . » الثالث « حاجتنا الى الجميل في كل شيء . » الرابع
« حاجتنا الى الموسيقى . » فتكون قيمة الادب ، اياً كان ، « بمقدار ما يسد
« من بعض هذه الحاجات او كلها ، ويكون اثمته اجلاه بياناً ، واغناه
« حقيقةً ، واطلاه رونقاً واشجاء وقعاً . »

يطبق نعيمه تلك المبادئ الصحيحة ، السائدة لآداب امدن الشعوب ،
على ادبنا الحديث ، فيرى ميسر « حاجتنا الى شعراء وكتّاب يقيسون ما
« ينظمونه ويكتبونه بهذه المقاييس . . . الى ناقدين مححصين ، يميزون
« بين غث الادب وسمينه ، فلا يحسبون الاصداف درراً ولا الجباب
« كواكب . » قال : « من سوء طالعنا اننا وكلنا شؤوننا الادبية الى جرائدنا
« ومجلاتنا في الغالب ، وجرائدنا ومجلاتنا تقيس الادب بعدد مشتركها
« ومناصريها واعمدتها . . . فكثير من القصائد التي تزفها الينا درراً فريدة ،
« لو قسناه بالمقاييس الادبية الثابتة ، لوجدناه عارياً من كل شيء سوى
« الرنة ؛ وان كان فيه جمال ، فلا عاطفة ؛ وان كان فيه عاطفة ، فلا جمال
« ولا حقيقة ؛ وان كان فيه حقيقة ، فمبتذلة او مشوهة . »

وايم الحق لقد اصاب كل الاصابة واضعاً يده ، يد نطاسي الادب ، على
جرح من اكبر جروح ادبنا العصري . في الواقع نرى هذا الادب الشقي
يكاد ينحصر في الصحف ، لاقبال الجمهور عليها ، يعطشه الغريزي الى
الاخبار اليومية واسعار الاسواق والنقود ، وبرامج المسارح ومعاهد السينما
ومراكز الاذاعة . اكثر اهالي الشرق العربي يُعرضون كل الاعراض عن
المؤلفات الادبية المحضة ، لعدم تضلعهم من العربية وقلة اكتراثهم لادب

ارستقراطي يفصل اربابه القليلين عن عامة الناس ، فهيمات ان يفتح لهم باب الارتزاق والاعتناء بالقلم ، كما يفعل لزملائهم الغربيين . حصر ادبنا في الصحافة هو الطامة الكبرى ، فان للصحافي هموماً ومصالح عديدة ، سياسية وانتفاعية ، ليس لها ادنى صلة بالادب ؛ وقد تحتم على معظم ادبائنا ، حتى اشهرهم ، من امثال شوقي ومطران ، التزلف الى اسيااد الصحافة بقصد التقرب الى اكبر عدد من القراء ؛ هكذا تمهد امامهم سبيل الشهرة السريعة . من جهة اخرى قُسر اصحاب الجرائد والمجلات على نشر مقالات الادباء وقصائدهم ، وان تافهة ، في صحفهم مصحوبةً بعبارات الترحيب والتعظيم ، لزيادة عدد قرائهم . اما اكثر هؤلاء فيجهلون اصول الادب ، ولا يعرفون لغة الضاد سوى معرفة سطحية ، فيقيسون جمال المؤلفات الادبية بدرجة شهرة صاحبها ، مع كونهم ، على قلة ثقافتهم ، اساس تلك الشهرة الزائفة .

كساد الادب المحض قد آل حتماً الى اقامة الصحافيين وقرائهم قضاةً في شؤوننا الادبية ؛ ومن اوحم عواقب ذلك الاستقضاء الغريب ، على رأي نعيمه - ونحن نوافقه عليه اتم الموافقة - قلة الاخلاص في ادبنا العصري ، لان الاديب يشتري شهرته بارخص الاثمان ، وهو في مأمن من النقد السديد الجسور . يكفيه تنميق عباراته ، ولو كانت فارغة من الجوهر الادبي النفيس ، وظهور اسمه الكريم عشرات المرات في الصحف الكبرى ، لاقتناء لقب الالمي النابغة . ها كم اقوال نعيمه الرشيدة في هذه الآفة الوبائية : « لو كان خطيبنا يعتلي المنبر رغبةً في ان لا يتحدث القوم عنه ، بل عما قاله ، لا رغبةً في ان تسمع بذلك هند ، فيزيد اعجابها به ، بل لانه يحمل رسالة » يجب تأديتها الى الشعب ؛ لو كان كاتبنا يأخذ القلم ، لا ليمضي به اسمه على صفحات جريدة او مجلة ، بل ليلبي دعوة صوت داخلي ، يولّد بين انامله « والقلم تجاذباً طبعياً كما بين المغناطيس والحديد ؛ لو كان شاعرنا ينظم

« التقوا في ليجمعها وعاء لما في قلبه من العواطف وفي رأيه من الافكار ،
« وليس ليكتسب لقب الشاعر الاديب ؛ وبالأجمال لو كان عندنا اخلاص في
« ما نقول وما نفعل وما نكتب ، لو كنا نفهم بعضنا البعض ، لسكانت حياتنا
على غير ما هي اليوم . »

ما الادب سوى خمر النفوس اللذيذ المسكر ، مسكوباً في كأس
انيقة من الالفاظ الموافقة لمحتواها الثمين . فاذا فسد الخمر وشرع يتحول الى
خل كرهه لاذع ، فلا مندوحة للاديب ان يلهو بزخرفة كأسه عن اصلاح
مُدامه . تلك حالة اكثر ادبائنا ؛ يُعنون اشد العناية بجمال التعبير ، ولا
سيما عرويته ، بقدر اهمالهم مقاييس الادب الاصلية الثابتة ، التي لا قوام له
بدونها . قد لقبهم نعيمه بضفادع الادب ، قائلاً انهم « يتوسدون القواميس
« ويتلون عليها صواتهم ، ويحرقون امامها بخور قلوبهم وزيت ادمعتهم ؛
« وكل غايتهم في الحياة ان يقعوا في قصيدة او مقالة على كلمة او تركيب لم
« تألفها اذواقهم ولا رضيت عنهما قواميسهم » ، فيعلو تقيقتهم في الهجو .

يعيب ايضاً هيامهم المضحك بالالفاظ الحوشية ، يسحرون بها القراء
السذج ، موهمين اياهم ان وراءها معاني سامية عميقة ، تفوق اذهانهم
العاجزة ؛ وما هي في الحقيقة سوى ستر شفاف ، يحاولون ان يحجبوا به عن
الانظار خسة بضاعتهم الادبية . يقول عنهم - لا فُض فوه ! - : « ينظرون
« دائماً ابدأ لا الى ما قيل ، بل الى كيف قيل . . . واذا طالعوه وفهموه
« من اوله الى آخره ، دون ان يلجأوا الى القاموس ، فهو ركيك .
« والركاكة عندهم هي ان يستعمل كاتب فقط بدلاً من فحسب ، والوسط
« بدل البيئة ، والخدام بدل الماهن ، والاسد بدل المزير ، والمائدة بدل
« الخوان ، وما اشبه . . . الفكر كائن قبل اللغة ، وال عاطفة قبل الفكر ؛
فهما الجوهر وهي القشور . »

قد بات معظم ادبنا العصري ابداعاً لفظياً محضاً ، فلا بدع بكون

الشويعرين قد تكاثروا في انحاء شرقنا العربي تكاثر الجراد الزاحف
 بهيئة جيش جرار على غلات الارض لاثلافها . الشعر في ظاهره هو الحد
 الاقصى لجمال الكلام ، وقد زادت فتنته موسيقى الاوزان والقوافي الرخيمة ،
 التي لا يتصرف فيها احد على ما يرام من السهولة والرشاقة الا بعد طول
 الممارسة . لذلك اضحى النظم عندنا وسيلة اكيدة لرفع مقام صاحبه في عين
 العامة ، وان خلا من محاسن جوهره النفيس . قد لاحظ نعيمه ذلك الوباء
 المتفاقم ، فقال : « كل من ظن انه شاعر لا يكاد ينظم اول قصيدة حتى ترى
 » الجرائد والمجلات قد فتحت صدرها لها ، واعدت لمؤلّفيها القاباً تتدرج بين
 النابغة والشاعر العصري المجيد . » يرينا بفكاهة مطربة فيضان ذلك الطوفان
 من النظم على كل انواع المواضيع ، ما عدا التي هي جديدة ، لسمو معانيها ،
 بوشي الاوزان والقوافي : « حتى قواعد نحونا ابينا ان تلقن احداثنا اياها
 » الا منظومة ؛ هاك الفية ابن مالك وهاك نار القري . بل قد نظمنا الحساب
 » والجبر والجغرافية والطب والفلك ؛ ولم لا ؟ واصبحنا نراسل نظماً
 » وتتصافح نظماً ، ونشرب الخمر نظماً ونأكل الكبة نظماً ، ونعمد اولادنا
 » نظماً ونزوجههم نظماً ، ونستقبل اصدقاءنا نظماً ونودعهم نظماً ، ونهنتهم
 » بعيد او بمرکز او بمولود نظماً ، الى انه لم يبق في حياتنا ما ليس منظوماً
 سوى عواطفنا وافكارنا ! »

مع ذلك يعترف بان ادبنا ، اللفظي في مجموعه ، قد خلع بعضه اسمال
 الالفاظ الفارغة - وما هي سوى اكفان - بعدما هبت عليه من الغرب رياح
 منعشة ، ايقظته من سباته الطويل ، ففتح عينيه على عديد مجالي الحياة في
 جيشانها العصري ، وجعل يقتبس منها جوهرًا حيًا متنوعاً لذيذاً ، تقتذي به
 النفوس وتستسيغه . قال في هذا الشأن : « ما تعود البعض ان يدعوه نهضة
 » ادبية عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتابنا من حدائق
 » الآداب الغربية ، فدبت في مخيلاتهم وقرائحهم ، كما تدب العافية في اعضاء

« المريض بعد ابلاؤه من سقم طويل . والمرض الذي لم بلغتنا احيالاً متوالية
« كان شللاً اوقف فيها حركة الحياة ، وجعلها بعد عزها السابق جيفة
« تتغذى بها اقلام الزعانف المستعبدين وقرائح النظامين والمقلدين . اما اليوم
« فقد رجعنا الى الغرب ، الذي كان بالامس تلميذنا ، لنقتبس عنه امثلة
« جعلناها حجر زاوية نهضتنا الادبية . وتلك الامثلة ان الحياة والادب
« توأمان لا ينفصلان ، وان الادب يتوكأ على الحياة ، والحياة على الادب ،
« وانه - اعني الادب - واسع كالحياء ، عميق كاسرارها ، ينعكس فيها
« وتنعكس فيه . ادر كنا بفضل الغرب ان نظم الشعر ممكن في غير الغزل
« والمدح والهجاء والوصف والثناء والفخر والحماسة ؛ لذلك اطربتنا نعمة
« بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا ان يتعدوا هذه الحدود المقدسة .
« وانتقلت اليها ، بفضل الغرب كذلك ، الرواية . . . فوجدنا فيها مجالاً
« واسعاً لوصف الحياة والتأثير في العقول والقلوب بواسطة القلم ، وادر كنا
« ان النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع والاكثر من الالفاظ الشاردة
« المدفونة في بطون المعاجم ، وتحجير المقالات المملة في موضوعات مبتذلة ،
« فقام بيننا بعض من جربوا ان يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية . »
تلك خلاصة آراء نعيمه الصائبة في تعيين مقاييس الادب العامة ، الثابتة
في كل عصر ومصر ، وفي نقد ادبنا العصري برمته وبيان مساوئه العديدة
ومحاسنه اليسيرة بواسطة تلك المقاييس . وايم الحق لا نرى بين ائمة ثقافتنا
العصريين من اعلن اصول الادب الصحيح بذلك الوضوح التام ، ولا من طبقها
على ادبنا الحديث المشوه ، بتلك الشجاعة المستخفة بحقن المحافظين الجامدين
وبهيمية مئات من نوابغ الادب اللفظي المتربعين على عرش سيادتهم المشؤومة .
فلا بد لنا من تعظيم الخدمة الكبرى التي قام بها الاديب اللبناني الشهير نحو
ادبنا الفاهض من عثرته ، ولا سيما ان بدائمه الحديثة في النثر والشعر تدل
على ان صيحة نعيمه العالية الجريئة لم تكن صوت صارخ في البرية .

مبخائيل نعيمة الشاعر

قد بسطنا في المقالة السابقة آراء نعيمه السديدة في اصول الادب ، واطرأنا جسارته في التصريح بان معظم ادبنا العصري حائد عنها . تلك لعمري خدمة جليلة قام بها نحو الشرق العربي ، وقد وقف مئات من ادباؤه حائرين بين الآراء المتناقضة ، لا يميزون الطريق المفضي بادبنا الى اوج الرقي المنشود . لكن نعيمه لم يكتف بابداء تلك النظرية الصائبة ، بل قد اخرجها الى حيز العمل ، ولا سيما في شعره ، فحاز به شهرة واسعة ، غير زائفة ، فانها قائمة على اساس شاعرية ممتازة ، تسوّغ عده ، مع ما فيها من النقائص ، بين نوابغ قريضنا العصري .

كل من طالع عدداً يُذكر من قصائده رأى اول اهله انه شاعر الالهام ، لا نظام الحفلات وسائر الفرص السانحة ، مثل اكثر شعرائنا . فلا ينتظر ولادة او زواجاً او وفاة او نحوها بين وجهاء القوم ليصوغ شعره ، بل يتوقع فكراً متسلطاً على نفسه فيبوح لنا به ، او عاطفة حارة تهز نياط قلبه ، فيحرك بها اوتار افئدتنا . ذلك هو الشعر الحقيقي في نظر امدن الشعوب ، وما سواه نظم تافه مبتذل ، ليس فيه من الشعر سوى الظواهر الباطلة الخادعة .

نعيمه مفكر في قصائده ، كما في مباحثه النقدية ، على ان الفكر السائد في قريضه هو الارتياب العام المطلق في معنى حياتنا الارضية وغايتها . نراه في هذه الدنيا اشبه بسائح في مجمل بعيد الآفاق ، كامد النور ، خال من بهجة الاشكال والالوان ، وقد تلبدت في سمائه السحب الدكناء ، فلا طريق امامه ليسلكه ، ولا دلائل بجانبه ليسدد خطاه . تلوح له بعض الواحات عن بُعد ، فيعدها سراياً خلاباً ، ويرى وميض البروق فوق رأسه ، فيعجز عن الاهتداء بسطوعه السريع الزوال . يُعمل فكره الوقاد لتفهم كنه الحياة ،

فيتيه بين الغازها ، ويفضي به عجزه عن حلها الى انطفاء جذوة عقله وارتخاء
وتر عزيمته ، فيصبح شبه اعمى ، لا يستطيع تمييز ابسط الاشياء واشدها
اختلافاً في عين اجهل البشر . حسبنا برهاناً على ذلك ما قاله في « الطريق » :

ليت شعري من يريني الفرق ما بين الامور ،
بين ما ندعوه حقاً والذي ندعوه زوراً ،
بين طهر وفساد ، بين إثم وصلاح ،
بين سعد وشقاء ، بين شدة ونواح ؟

بل نرى وصفاً اذق وواضح لنفسه في « الثائه » حيث صور لنا ذاته
هائماً على وجهه في مهمه الحياة ، يقدم رجلاً ويؤخر اخرى :

تسوقني الثواني في موكب الزمان ،
ولست أدري شاني في معرض الورى ؛
فلا اقضأ يئبيني ، ولا الرجا يهيني ،
ولا السما تعطيني نوراً لكي ارى .

يعترف لنا متذلاً بأنه يغبط الحشرة الحقيرة التي تزحف عند قدميه ،
لانها لا تعاني آلام شكه المطلق في غاية الحياة ، فيُسر « الى دودة »
بمذابه الفادح :

ولولا ضباب الشك ، يا دودة الثرى ، لكنت الاقي في دببيك ايماني ،
فاترك افكارى تضيع غرورها واترك احزاني تكفن احزاني ،
وازحف في عيشي نظيرك جاهلاً دواعي وجدي او بواعث وجداني !
كثيراً ما نرى الانسان السليم العقل ، المعتقد ان غاية حياتنا خدمة
الخالق العظيم الذي منحنا اياها ، يحيد بسبب ضعف ارادته وجماع شهواته
عن تلك الغاية السامية ، الجديرة باكبر التضحيات ، فيرتكب
المعاصي مستسلماً الى نخس الضمير ، وهو اقصى الجلادين ، فيذوق منه امر
التباريح . فما عسى ان تكون درجة تعاسة من يجهل تلك الغاية او يتجاهلها ؟

لا بدع من ثم بان نسمع نعيمه ييوح لنا بفساد قلبه وبفطر احزانه في
« ترنيمة الرياح » :

اتردى رداء المنون° واداوي الاسى بالظنون°
كل فكري سواد° ، كل قلبي فساد° ،
كل دربي قتاد° ، كل عيشي كفاح°
قهقهه ، قهقهه ، يا رياح !

يؤيد اعترافه هذا في « صدى الاجراس » ، حيث يوقظ تذكارات
طفولته من سباتها في اعماق فؤاده ، فيقول :

وافاق الشك وانصاره° ، آلام العيش واوزاره° ،
فاطلوا من قلبي ليروا° قلباً تتقطع اوتاره° !
في « العراك » يصف لنا في ثمانية ابیات بدیعة بايجازها وعمق
معانيها ، تلك الحرب الضروس بين الخير والشر ، التي ساحتها كل روح
بشرية ، وقد صرح لنا غير مرة بان الشر قد انتصر عليه :
دخل الشيطان قلبي ، فرأى فيه ملاك° ،
وبلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك° .

بيد ان الملاك الثاوي في قلب نعيمه لا يلزم الصمت الدائم ، ولو سيم
انكساراً متواتراً ، بل يرفع صوته بعض الاحيان بلهجة الاحتجاج الشديد
على تذليله ، ويلهم الشاعر اسمى الالهام ، فتتصاعد من عوده الشعري صلوات
حارة الى الله تعالى ، ملؤها الايمان والرجاء والمحبة ؛ فلا مبالغة في تشبيهاها بالتي
فاضت من اقلام اقدس الشعراء . نرى ذلك العجب العجيب في « ابتهالات » ،
التي نعدها من اجمل القصائد الدينية في لغة الضاد ، ولولا ضيق المقام
لذكرناها برمتها . اليكم على الاقل نموذجاً من بدائعها :

كحجل° ، اللهم ، عيني بشعاع من سنائك°
كي تراك°

في جميع الخلق : في دود القبور ، في نسور الجو ، في موج البحار ،
في صهاريج البراري ، في الزهور ، في اسكلا في التبر في رمل القفار ...
وافتح ، اللهم ، اذني كي تمي دوماً نذاك

من عثلاك

في ثغاء الشاة ، في زأر الاسود ، في نعيق البوم في نوح الحمام ،
في خريبر الماء ، في قصف الرعود ، في هدير البحر ، في مر الغمام ...
واذا ما قرئ الموت ووافها الصمم ،
فاختمن ، ربي عليها ريشما تحيا الرمم ! ...
واجعل ، اللهم ، قلبي واحة تسقي القريب
والغريب ،

ماؤها الايمان ، اما غرسها فالرجا والحب والصبر الطويل ؛
جوها الاخلاص ، اما شمسها فالوفا والصدق والحلم الجميل ...
واذا الايمان ولي والرجا اضحى ضرير ،
فليمن قلبي الى ان ينفخ البوق الاخير !

تلك لعمري ابيات تطرب كل عشاق العزة الالهية ، ولنعيمه مثلها في
الدورين الاخيرين من « التائه » ، بل اتم منها بياناً واوسع معنى مع قلة
الفاظها ، فهي بالغة من الايجاز حد الاعجاز ، اذ عبر فيها الناظم اوضح التعبير
عن غاية الانسان وانقياده كالحملان لشهواته ، التي ينشأ عنها عمى العقل وخور
الارادة ، ومسيس حاجته الى حرارة الايمان وعطف خالقه عليه وهدايته له ،
حتى يجتاز بقلب فرح بيداء هذا المنفى الارضي المفضية به الى السعادة
الابدية في الوطن السماوي :

خالقي ، رحماك لما برت يداك !
ان لم اكن صداك ، فصوت من انا ؟
ربي ، الا تراني اساق كالحملان ؟

ربي ، اما كفاني عمالي والوني ؟
 فابدل لظي نيرانني بجمرة الايمان ،
 واجعل من الحنان للقلب مرهما ؛
 اذ ذاك بالتهليل اسير في سبيلي ،
 وخالقي دليلي ووجهتي السما !

« من انت ، يا نفسي ؟ » هي ايضاً من ابداع قصائد نعيمه التي صاغها في
 الفترات النادرة القصيرة التي تملص فيها من قيود الشك العام . يوضح لنا
 فيها ، على اسلوب شعري محض ، مزدان بوشي الخيالات المبتكرة الفتانة ،
 سر القرابة التي تشعر بها النفس البشرية نحو اجمل عناصر العالم المادي ، وقد
 ذكر منها الناظم الامواج ، البرق ، الرعد ، الريح ، الفجر ، الشمس
 والالخان . ثم ازاح الستار عن ذلك السر المكنون في الدور الاخير من
 قصيدته ، التي نعدّها درة يتيمة بين جواهر الشعر المصوغّة في كل انحاء
 العالم . قال ولله دره :

ايه ، نفسي ، انت لحنٌ فيّ قد رن صداه ؛
 اوقعتك يد استاذ خفي ، لا اراه ؛
 انت ريسح ونسيم ، انت موج ، انت بحر ،
 انت شمس ، انت رعد ، انت برق ، انت فجر ،
 انت جزء من اله !

ذلك الشعر الذي موضوعه فلسفة الحياة ، المتذبذب من الشك المظلم الى
 اليقين النير ، ومن المادية والكفر الى الروحانية والتقوى ، مع ميل شديد
 الى الثبات على الحالة الاولى ، هو على رأينا احب انواع الشعر عند نعيمه ،
 يعالجه بشغف بيّش ويعود اليه طوعاً بما يثير الدهش من غزارة المعاني
 وتنوع الخيالات الشعرية . اذا خرج احياناً من حدود ذلك الميدان
 الخصوصي ، فلا يغادر ميدان التحليلات النفسية العمومي الذي يحوي الاول

في ارجائه الواسعة . كثيراً ما يتذرع باجمل الرموز ليصور لنا احوال روحه
الرقية ، الطامحة طموحاً اليماً الى ما فوق الارضيات ، الخائبة امر الخيبة في
سجن الحياة الدنيا ، فيقول في « النهر المتجمد » :

قد كان لي ، يا نهر ، قلبٌ ضاحكٌ مثل المروج ،
حُرّ كقلبك ، فيه اميال وآمال تموج ؛
قد كان يضحي غير ما يسمي ولا يشكو الملل ،
واليوم قد جمدت كوجهك فيه امواج الامل !
احياناً يوتر قوس عزمه ، لا للصبر على نوائب العيش فقط ، بل
للاستخفاف بها وادعاء مناعة روحه بازاء هجباتها المتواصلة . قد وصف لنا
موقفه هذا في « الطمانينة » منشداً :

باب قلبي حصينٌ من صنوف الكدر ؛
فاجهي ، يا هموم ، في المسا والسحر ،
وازحني ، يا نحوس ، بالشقا والضجر ،
وانزلي بالالوف ، يا خطوب البشر !

في ظروف اخرى يحاول توطين نفسه على احتقار الملاذ الحسية التي
اختبر بطلانها اختباراً اليماً ، فيبتعد عن سرايا الخداع محتلياً في قصر
افكاره واحلامه ، ومخاطباً من عليائه الشاهقة صاحب القصر المادي ، الذي
لم يُفّق من سكرة هيامه في متاع الدنيا ، وهو من سقط المتاع :

لا ، لا تقل « مارق لي قصرُ العالي ، واني لم يطب لي هواه » ؛
بل ان لي ، يا صاح ، قصرّاً ابت نفسي ان تلجأ لقصر سواه ؛

ذا قصر افكاري واحلامي !

ان لم يجد لنفسه ملجأً اميناً يقيها رزايا الدهر ، لا في حصن التجلد
العزوم ولا في صرح التأمّلات والرؤى ، فقد يُضطر الى الاعتصام بحبل
الايمان بخلودها السعيد بعد تحررها من سجن الجسد والغباء ، فنراه

كالغريق المتمسك بلوح الخلاص ، لئلا يغوص في اللجج الهائلة العمق والحالكة الغياهب . قد احسن التعبير عن ذلك الايمان السديد في قصيدته الرمزية « اوراق الخريف » حيث يخاطب تلك الاوراق قائلاً :

عودي الى حضن الثرى وجددي العهود ،
وانسي جمالاً قد ذوى ؛ ما كان لن يعود !
كم ازهرت من قبلك وكم ذوت ورود !
فلا تخافي ما جرى ولا تلومي القدرا ؛
من قد اضاع جوهرها يلقيه في اللهود ؛
عودي الى حضن الثرى !

يتضح مما سبق ان معظم شعر نعيمه محصور في وصف احواله النفسية بازاء الحياة مع الغازها الغامضة وآلامها الفادحة . قلما يصور لنا مواقفها تجاه حادث معين ، كما نرى في القصيدة « اخي » ، التي يخاطب فيها من مهجرة البعيد موطنه اللبناني الباقي في بلد جرت عليه الحرب العالمية الاولى من انواع الاهوال والخسائر ما يترعد الفرائص ، فيعيّره بخضوعه الدليل لنير الاتراك المستبدين ، ويختم عتابه اللاذع بقوله :

اخي ، من نحن ؟ لا وطن ؟ ولا اهل ؟ ولا جار ؟
اذا نمنا ، اذا قمنا ، ردانا الخزي والعار !
لقد خمت بنا الدنيا ، كما خمت بموتانا ؛
فهاث الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر ،
نوارى فيه احيانا !

« من انت ؟ ما انت ؟ » هي ايضاً من ذلك النوع النادر ؛ يعنف فيها شعباً ادعى سيطرته على كل انحاء المعمور ؛ ها كم بعض ابيات منها :
من انت ؟ ما انت ، حتى تحكم البشرى كأن في قبضتيك الشمس والقمر ؟ ...
تقسّم الارض افتاراً مربعةً بما عليها وما في جوفها استرا ،

وتسلب الرزق اقواماً لتمنحه قوماً ، وإما شكوا لقسمتهم مدرا! ...
 هل صاغك الله يا مولاي ، من نفَس في صدره وبراني خالقي حجرا ؟
 ام اصطفاك مناراً في بريته ولم يهيني لا سمعاً ولا بصراً ؟
 تلك ام المواضيع التي عاجلها شاعر بسكنتا ، وقد صبغت شعره صبغة
 تميزه عن قريض اكثر شعرائنا العصريين حتى الامير كيين . اما تعبيره فهو
 من الطراز العالي ، يمكن صاحبه من مجازاة امرء القريض عند ارق
 الشعوب ؛ فلو نُرجم الى لغة من لغاتهم ، لما فقد شيئاً من جماله سوى الوزن
 والقافية ؛ تلك ميزة كبار الشعراء .

الخطأ اللغوي كثير تحت قلم نعيمه ، لكننا لا نكاد نرى في انشائه
 اثرًا للتعقيد او الحشو ولا للمبالغة او الابتذال ، مع ان تلك العيوب الكبيرة
 تشين حتى الآن قصائد اشهر شعرائنا العصريين ما عدا نفرًا يُعدون على
 الاصابع . نقضي العجب على الاخص من مقدرة نعيمه على ابتكار ابداع
 الخيالات الشعرية المحضة ، الشديدة التنوع ، تفيض عفواً من قريحته
 الزاخرة ، وكثيراً ما نجد منها في قصيدة واحدة ما لا نعثر عليه في ديوان
 كامل من نظم غيره . دونكم بعض التحف من تلك الخيالات الجديدة
 الانيقة ، المقتطفة من « صدى الاجراس » : « افكاري ترود الحاضر
 والماضي » ، « اصطفت حولي ايامي ، تستعرض عسكر احلامي » ، « افاق
 الشك وانصاره » ، « سكينتي ارتجفت وقوافل افكاري وقفت » ، « مزق
 سر الليل صدى » ، « اشجار الغاب تحييننا » ، « زهور الغاب تصافحنا » ،
 « الريح تمر بنا خبياً » ، « الشمس بلطف تلثم اوجهن وتدر لنا ذهباً » ،
 « اترابي في الغاب يقودهم المرح » ، « يرقص في قلبي الفرح » ، « جلست على
 كتف النهر » ، « العالم مملكتي » . تقف هنا اكتفاءً ، مع ان في القصيدة
 ذاتها غير ما ذكرنا من ابداع الصور .

تجلى مقدرة مخيلة نعيمه على الاخص بسهولة ابداعه خيالات عديدة

لوصف شيء واحد . من امثال ذلك انه يسمى اوراق الخريف « مرقص الشمس ، ارجوحة القمر ، ارغن الليل ، قيثارة السحر ، رمز فكر حائر ، رسم روح ثائر ، الى غير ذلك مما يطول تعداداه .

خلاصة القول ان ميخائيل نعيمة صاحب شاعرية متميزة ، لانها حية ، صادقة ، فنية ، خالية من التصنع في معانيها ومبانيها ، على انها مشوهة بعيب كبير في معظم قصائده . وهو ان فلسفته في شأن الحياة وغايتها ليست سوى اسم رنان بلا مُسمى ، لانها ارتيابية ، سلبية ، جافة ومحففة النفوس ، محاطة بالظلمات وناشرة لها في عقول القراء ، ميتة وبائة لجرائم الموت . فهي بعيدة كل البعد عن مرمى الشعر المحض ، وهو ان ينير الازدهان باشعة الحقائق الجوهرية ، وينعش القلوب بحثها على حب تلك الحقائق واخراجها الى حيز الاعمال ، والاستضاءة بها في غياهب هذه الارض الفانية ، ريثما تطلع شمس السعادة الكاملة التي لا يعتريها افول .

احمد شوقي

احمد شوقي من اشهر شعرائنا المعاصرين ؛ قد ظهر ديوانه «الشوقيات» في اواخر القرن التاسع عشر ، وبعد عشرات الاعوام طُبِعَ له ديوان آخر في جزئين موادها اغزر جداً من الاولى .

قد كثر مدح العظماء الى درجة الافراط وبمبالغة فاحشة . قال عن السلطان عبد الحميد :

اعرب ما تنشي عثلاك ، وانه
مدحتك ، والدنيا لسان* ، واهلها
لني لطفه ما لا ينال المعرب* ؛
فكنت كمين ذات جري كمينه ،
جميعاً لسان* يُحليان واكتب . . .
تفيض على مر الزمان وتعدّب ،

موكلة بالارض ، تنساب في الثرى فيحيا ، وتجري في البلاد فتُخصب ؛
فاحييت ميتاً دارس الرسم غابراً ، كأنك فيما جئت عيسى المقرَّب ...
سهرت ونام المساهون بغبطة ؛ وما يُزعج الثوام والساهر الاب ؟
قد هنأ ذلك العاهل بنجاته من قذيفة اقيت عليه سنة ١٩٠٥ ، فقال
بمثل ذلك الغلو المستهجن :

اذا زُلزلت من حولك الارض رادها وقارك حتى تسكن الجنبات .
قد افاض بفساد الذوق عينه سيول ثنائه الصاخبة على خديوي مصر
عباس الثاني حلمي في قصائد عديدة تافهة ، من جملتها « الى عرفات » حيث
يذكر حجه مكة ، فيقول عنه :

تسكاد تضيء الارض تحت ظلاله وتُخرج عقياناً مكان نبات !
له عدة قصائد دينية اسلامية ، منها « الحمزية النبوية » في تعظيم نبي
المسلمين ، وهي من اطول المنظومات العربية . في « خلافة الاسلام » يعتف
الاتراك على تأليههم لمصطفى كمال مجدد استقلالهم ، ورضاهم بالغائه الخلافة
المختصة بسلاطينهم ، فيحث الدول الاسلامية على مطالبته باعادتها :

تركته كالشبح المؤله امة* لم تسلب بعد عبادة الاشباح ؛
هم اطلقوا يده كقيصر فيهم* حتى تناول كل غير مباح !
لشوقي كلف واضح بسررد الحوادث التاريخية في شعره . « كبار
الحوادث في وادي النيل » من اطول قصائده ، وفيها من التصوير الحي
لصروف الدهر ما يطرب القارئ ؛ قال فيها عن نابوليون الاول الذي فتح
ارض الفراعنة بسرعة البرق الخاطف ، ثم تقلص ظل سيادته لها بعد
ثلاثة اعوام :

علمت كل دولة قد تولت اننا سمها واثنا الوباء .
قاهر العصر والممالك نابليون ولت قواده الكبراء ؛

(١) يجب كسر الميم لاستقامة الوزن .

جاء طيشاً وراح طيشاً، ومن قبلُ اطاشت اناسها العليا!
 في « صدى الحرب » يصف وقائع الوغى الناشب بين الاتراك
 واليونانيين سنة ١٨٩٧ . من اجل ابياته في هذا الشأن وصفه خُصار
 ادرنة ، حيث يصيح بها :

طالت عليك ، فكل يوم عامٌ .	في ذمة التاريخ خمسة اشهر
والسُّبُل خوفٌ والثُلُوج ركام !	السيف عارٌ والوباء مسلطٌ
لو لم يجوعوا في الجهاد ، لصاموا !	والجوع فتاكٌ ، وفيك صحابةٌ ،
عرض الحرائر ليس فيه سوام !	ضنوا بعرضك ان يباع ويشتري ؛
فلنكٌ ومقذوفاته اجرام ؛	ضاق الحصار ، فكأنها حلقاته
مما يصب الله ، لا الاقوام !	ورمى العدى ورميتهم بجهنم
وكذا يباع المثلک حين يرام ؛	بعت العدو بكل شبر مهجةٌ ؛
شُم الحصون ومثلهن عظام ،	ما زال بينك في الحصار وبينه
جُثثاً ، فلا غبنٌ ولا استنمام !	حتى حواك مقابراً وحويته

في « الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد » قد وقف نحو
 عشرين بيتاً على وصف مُثل لحريم ذلك العاهل المقيمت في قصر يلدز ،
 ثم قارن عزه الباذخ بذل نزوله من عرش الاستبداد :

كم سبَّحوا لك في الرواح والتهوك لدى البكور ،
 ورأيتهم لك سُبَّحداً كسجود موسى في الحضور ؛
 خفضوا الرؤوس ووتتروا بالذل اقواس الظهور .
 ماذا دهاك من الامور ، وكنت داهية الامور ؟ ...
 دخلوا السرير عليك ، يحتكمون في رب السرير ؛
 أعظم بهم من آسرين وبالخليفة من اسير !
 قد عاجل شوقي الشعر الوطني واجاده غير مرة ، مع بعض الخطل ؛ في

(١) يعني الشاعر حضور الله تعالى .

« مشروع ميلتر » يبدأ بنحو عشرين بيتاً غزلياً لا علاقة لها بالموضوع .
في « مشروع ٢٨ فبراير » فسكاهة ظريفة في شأن حماية انكلترة لمصر :
قالوا « الحماية زالت » ؛ قلت « لا عجب » ، بل كان باطلها فيكم هو العجبا .
« رأس الحماية مقطوع » ؛ فلا عدت كنانة^٢ الله حزماً يقطع الدنيا !
يقول عن ترقى المصريات :

مصر^٣ تجدد مجدها بنسائها المتجددات^٤
النافرات من الجمود ، كأنه شبح الممات .
سنة ١٩٢٤ قال بعد اطلاق فريق من مواطنيه ، كان الانكليز قد
امروا بحبسهم ، فقضوا مدة في السجن :

جادوا بإيام الشباب واوشكوا يتجاوزون الى الحياة الجودا !
اما شعره الوصفي فقلما نراه دقيقاً مبنيّاً على المشاهدة ، بل متقاداً لمجوح
مخيلة تخرجه من حدود الطبيعية ؛ ها كم يبتنّ يصور فيها اصطدام جيشين :
كأن سنى الابواق في الليل برقه ، كأن صداها الرعد للبرق يصحب...
كأن الوغى نار^٥ ، كأن جنودنا مجوس^٦ اذا ما يعموا النار ، قربوا .
من جهة اخرى نراه يبدأ بالوصف ثم يميل عنه فوراً الى الشعر
الفنائي المحض ؛ ذلك ما نجده في « قف بروما » الحاوية خمسة ابيات وصفية
فقط . على كل حال قد اتقن وصف علاقته مع جدته الحنون :

لي جدّة ترأف بي ، اخى عليّ من ابي ؛
وكل شيء سرنى تذهب فيه مذهبي .
ان غضب الاهل عليّ كلهم ، لم تغضب .
مضى ابي يوماً الى مشية المؤدب
غضبان قد هدد بالضرب ، وان لم يضرب ،
فلم اجد لي منه غير جدتي من مهرب .

(١) اسم شهر شباط عند المصريين - (٢) القطر المصري .

فعلتني خلفها ، انجو بها واختي ،
وهي تقول لابي بلهجة المؤنب :
« ويح له ، ويح لهذا الولد المعذب !
« الم تكن تصنع ما يصنع اذ كنت صبي ؟ »

وايم الحق نعد هذه القصيدة مع قصرها وبساطتها من فرائد ديوانه .
لقد اجاد احياناً مثل تلك الاجادة في الشعر التهذيبي ، ولا سيما في ارشاده
للتلاميذ المصريين الذين ، اذا سقطوا في فخص الحكومة ، وسوس اليهم
الشیطان الرجيم بان ينتحروا للتخلص من وصمة العار ، وقد اقدم على تلك
الجريمة مئات منهم . يقول شوقي لمن هموا بتقفيـة آثارهم في الظروف
المذكورة ؛ لا فـُض فوه :

نشأ الخير ، رويداً ! قتلکم
لو عصيتم کاذب الیأس ! فما
تضمـر الیأس من الدنيا ، وما
فيم تجنـون على آبائکم
وتعقون بلاداً لم تزل
فمصـاب الملک في شبانه
ليس يدري احد منکم بما
روحوـا القلب بلذات الصبي ،
واغنموا ما سخر الله لکم
واطلبوا العلم لذات العلم ، لا
کم غلام خامل في درسه
في الصبا النفس ضلالٌ وخسرٌ !
في صباها ينجر النفس الضحیر ؛
عندها عن حادث الدنيا خبر .
الم الشکل شديدٌ في الکبر ،
بين إشفاق علیکم وحذر ؟
کمصاب الارض في الزرع النضر .
کان یعطی لو تأني وانتظر ...
فکفی الشیبُ مجالاً للکدر ! ...
من جمال في المعاني والصور ،
لشهادات وآداب اخر .
صار بحر العلم ، استاذ العُصر !
« ايها العمال » من روائع ذلك النوع الشعري ؛ فيها من النصائح
السديدة والتعبيرات اللبقة ما يأخذ بمجامع القلوب ؛ دونکم
بعض ابیاتها :

ابن انتم من جدود خلّدوا هذا التراباً ؟
 قلّدوه الاثر المعجز والفن العجّابا ،
 وكسوه ابدّ الدهر من الفخر ثيابا ؛
 اتقنوا الصنعة حتى اخذوا الخلد اغتصابا !
 ان للمتقن عند الله والناس ثوابا .
 اتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جنابا ؛
 ارضيتم ان تثرى مصر من الفن خرابا ؟ ...
 قد دعاكم ذنب الهيئة^٢ داع ، فاصابا ؛
 هي طاووس^٣ ؛ وهل احسنه الا الذنابي ؟

من ابداع اشعار شوقي الغنائية تلك التي عظم فيها ذلك المسلم العالي
 الثقافة ، الواسع الخبرة ، سيدنا يسوع المسيح ؛ ولا نرى بين ادبائنا
 المعاصرين من ابناء دينه من جراه بذلك الاقدام النبيل . قال عن
 فادينا الجليل :

وُلد الرفق يوم مولد عيسى والمروآت والمهدى والحياء ،
 وازدهى الكون بالوليد وضأت بسناه من الثرى الارحاء ،
 وسرت آية المسيح كما يسري من الفجر في الوجود الضياء ؛
 تملأ الارض والعوالم نوراً ، فالثرى مائج بها وُضْءاً !
 لا وعيد^٤ ، لا صولة^٥ ، لا انتقام^٦ ، لا حسام^٧ ، لا غزوة^٨ ، لا دماء !
 ملك^٩ جاور التراب ، فلما مل ، نابت عن التراب السماء !
 واطاعته في الاله شيوخ^{١٠} ، خُسْع^{١١} ، خُسْع^{١٢} له ، ضعفاء ؛
 اذعن الناس والملوك الى ما رسموا والعقول والعقلاء^{١٣} ،
 فلمهم وقفة^{١٤} على كل ارض ، وعلى كل شاطئ ارساء !

(١) يعني الشاعر ارض مصر - (٢) الهيئة هنا بمعنى المجتمع - (٣) يعني الشاعر
 بالشيوخ وامل السيد المسيح .

له ايضاً ابيات رائعة الجمال في تعظيم صليب السيد المسيح ، الذي
آلة التعذيب والعار ، فصار بعد موت مولانا عليه علامة الشرف الاسمى
وافصح رمز للمحبة والرحمة . قال شوقي يخاطب الصليب الاحمر :

سر ، يا صليب الرفق ، في ساح الوغى وانشر عليها رحمةً وحنانا ،
وادخل على الموت الصفوف مساوياً وأعن على آلامه الانسانا ،
والمس جراحات البرية شافياً ؛ ما كنت الا للمسيح بنانا ؛
واذا الوطيس رمى الشباب بناره ، خُض كاخليل اليهم النيرانا ؛
واجعل وسيلتك المسيح وامه ، واضرع وسل في خلقه الرحمانا ؛
السيد المسيح قد فتح بلاد العالم وانشأ فيها مملكته بواسطة صليبه ،
الذي هو على حسب الظواهر آلة الضعف والخزي والانكسار . يُخيل لنا
ان شوقي قد ادرك شيئاً من سر تلك المقدرة الالهية المدهشة ، فقال في
احدى قصائده ، يخاطب المارشال ألني (Allenby) الانكليزي المستولي على
القدس سنة ١٩١٨ :

يا فاتح القدس ، خل السيف ناحية ؛ ايس الصليب حديداً كان ، بل خشباً ؛
اذا نظرت الى اين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه القُطُبا ،
علمت ان وراء الضعف مقدرةً وان للحق ، لا للقوة ، الغلبا ؛
يصف في ثلاثة ابيات جميلة تحول رومية ، عاصمة العواهل الوثنيين ،
الى عاصمة الكنيسة الكاثوليكية ، مملكة المسيح على الارض :

بلدٌ كان للنصارى قتاداً ، صار ملك القسوس ، عرش الديانة ،
وشعوبٌ يمحوون آية عيسى ، ثم يُعلون في البرية شانه ؛
ويهبون صاحب الروح ميتاً ، ويُعززون بعده اكفانه ؛
يفوه بسمو فضيلة الراهبات الواقفات كل حياتهن ، منذ شرخ الشباب ،
على خدمة السيد المسيح والتشبه بقدامته ، فيقول عنهن :
اردت جوار الله ، والعمر منقض ، وجاورنه في العمر ، وهو نضير ؛

صب ر. ١٠٠ من اهل وموطن
 بن ، وما يدرين ما الذنب خشية ؛
 او انس في داج من الدير موحش ،
 واشبه طهر في النساء بمریم
 قد فرغنا من ابداء ملاحظتنا على المواضع التي عالجها شوقي واوضحنا ما
 فيها من ذهب إبريز وبهرج حقير . نجد مثل ذلك المزيج الشائن في تعبير
 الشاعر . كثيراً ما يُبدع اجمل الخيالات ؛ مثال ذلك قوله لله تعالى :
 انت انس لنا اذا بعد الانس ، وانت الحياة والاحياء ؛
 يتولى البحار ، مهما ادهمت ، منك في كل جانب لآلاء ؛
 واذا ما علت ، فذاك قيام ؛ واذا ما رغت ، فذاك دعاء ؛
 فاذا راعها جلالك ، خرت هيبةً ، فهي والبساط سواء ؛
 يُطربنا ايضاً وصفه المبتكر للموت ومحاربة النفس البشرية له :
 النفس حرب الموت ، الا انها اتت الحياة وشغلها من بابه ؛
 تسع الحياة على طويل بلائها ، وتضيق عنه على قصير عذابه .
 هو منزل الساري وراحة رائح كثير النهار عليه في إتماعه ،
 وشفاء هذي الروح من آلامها ودواء هذا الجسم من اوصابه .
 بجانب تلك الجواهر الجديدة نرى مئات من الخيالات المبتذلة الشوهاء
 من فرط هرمها ؛ نكتفي هنا ، خوفاً من الاطالة المملة ، بذكر شيء منها :
 « بدور الحُسن » ، « ثياب الفخر » ، « الاسد والآرام » بمعنى الرجال
 والنساء ، « الماء شهد ولبن » ، « غلام صار بحر العلم » ، « ملك تحسد
 الشمس في الضحى سلطانه » ، « الخديوي ينجلي قمرأ في قصره » .
 شوقي مولع بالمبالغة . يقول لبعض مواطنيه :

(١) هذه الكلمة لا يتم معناها الا بالجار والمجرور الذي في اول البيت التالي ، وذلك
 مستهجن في الشعر العربي - (٢) الارض الواسعة .

وجه الكنانة ليس يُغضب ربكم ان تجعلوه كوجهه معبودا .
هاكم وصفه قطاراً فيه اعضاء وفد مصري ذاهب الى مؤتمر السلام في
فرساي (Versailles) :

لولا استلام الخلق ارسانه ، شب فنال الشمس في عجبته .
يقول عن مناعة السواحل التركية المحصنة :
فمثل بناء الترك لم يبن مشرقاً ، ومثل بناء الترك لم يبن مغرباً !
وعن امواج البحر انها « جبال مواج في جبال » . يخاطب ذاته
متذكراً جمهور شبان بلاده الذين رحبوا به عند نزوله الى بر مصر ، وهو
عائد من الاندلس :

وان حملتك ايديهم بحوراً ، بلغت على اكفهم السحابا .
من اكثر شوايب تعبيره التصنع ؛ يقول عن خور قواه في الشيوخوخة :
ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ هما الواهي الذي ثكل الشباب ؛
تسرب في الدموع ، ققلت « ولي » ، وصفت في الضلوع ، ققلت « ثابا » .
يخاطب الاترك منوهاً بانتصارهم على اليونانيين ، فيقول لهم :
وما زلتهم يسقيكم النصر خمره وتسقونه ، والكل نشوانٌ مصأب...
ما اكره تلاعبه بالجناس في وصفه انكسار اليونانيين على ساحل نهر
سقاريًا في الاناضول ، حيث هزمهم مصطفى كمال سنة ١٩٢١ :

ما كان ماء سقاريًا سوى سقراً طغت فاغرقت الاغريق^٢ في اللهب .
كثيراً ما يشوه انشاء الشاعر عدم تلاحم المعاني . « ذكرى المولد »
التي غايتها تعظيم ميلاد محمد نبي المسلمين ، تبدأ بالشكوى من آلام الحياة ،
ويليها ايضاح واجب الاحسان الى الفقراء ؛ فثلثاها لا علاقة لهما بجوهر
الموضوع . من جهة اخرى الابهام والغموض وعدم انسجام العبارة عيوب

(١) اسم علم معناه جهنم ، وهو منون هنا لضرورة الوزن - (٢) اسم من اسماء
اليونانيين تشبه الكلمة الفرنسية grec .

نجدها في اكثر القصائد ، مما يدل دلالة جلية على ان الناظم يُحجج عن بذل
الجهد اللازم لوضوح الانشاء وسلاسته . مئات من ابياته شبه الغاز ينبغي
إعمال الفكر حيناً لاكتشاف معانيها على وجه التخمين او الترجيح . قد
سمعنا في هذا الشأن ان احد قراء ديوان شوقي قد صادف صاحبه عند شخص
ثالث ، فانتهاز تلك الفرصة ليستفهم الشاعر عن معنى بيت غامض من نظمه ،
فلم يستطع شوقي ايضاحه على وجه معقول ، فقال رب البيت للمستفهم : « لا
تزعج شوقي ، فانه هو ذاته لا يفهم ما قاله . »

الخطأ اللغوي غير يسير في « الشوقيات » كاستعمال استلم بمعنى تسلم ،
وقول الشاعر « ساحة العيش الى الله » ، وهو يعني انها لله . اما الافراط في
استعمال الكلمات المماتة ، الذي يزعمه الشاعر ذليلاً جليلاً على نبوغه ،
فنجده في كل قصيدة على وجه التقريب . كفي شاهداً على ذلك ان الطبعة
الحديثة لديوان شوقي مشحونة بحواش طويلة لتفسير آلاف من تلك الالفاظ
التي يمجها الذوق السليم .

قد لُقب شوقي بامير الشعراء في كل انحاء العالم العربي . اما نحن
فنؤكد انه غير خليق بذلك اللقب المجيد ، وقد اوضحنا ببراہين وامثال عديدة
عيوب قريضه الكبيرة ، فنعمه شاعراً من الدرجة الوسطى ، قد فاقه كثير
من رصفائه المعاصرين ، كمikhail نعيمه ورشيد سليم خوري ، الذين كاد
يبلغ شعرهم في قصائد عديدة ذروة السكال .

جبران خليل جبران

سنة ١٩٢٣ نشر يوسف توما البستاني ، صاحب مكتبة العرب في القاهرة ، كتاب « البدائع والطرائف » الحاوي مقالات عديدة وعدة قصائد للاديب اللبناني الشهير جبران خليل جبران . قد تصفحناه ملياً ، فاستخلصنا منه آراء مؤلفه في شأن اهم المسائل التي ما زالت تشغل عقول البشر ، من اعظم الفلاسفة الى اجهل الاميين ، منذ اقدم العصور الى ايامنا ، ولن تزال تشغلها الى منتهى الاجيال ، وهي : وجود الله وكمالاته وعلاقته مع خلائقه الناطقة ، نشأة العالم المادي ، اصل الانسان وغاية حياته ومصيره بعد مروره السريع على الارض . ها كم مزاعم جبران في تلك الشؤون التي تفوق بخطورتها وعواقبها في العاجلة والآجلة كل ما سواها من امور الحياة .

يجاهر جبران مجاهرة واضحة مكررة بعدم ايمانه بالله موجود بذاته ، ممتاز كل الامتياز عن الكون الذي اخرجه من العدم بقدرته غير المحدودة ، فيقول له في ختام « حفنة من رمال الشاطئ » : « ايها الكون العاقل ، المحجوب بظواهر الكائنات ، الموجود بالكائنات وفي الكائنات » « والكائنات ، انت تسمعي لانك حاضري ذاتي . . . » في مقالته « الله » يخبرنا انه قد صعد الى الجبل المقدس ثلاث مرات ، بين كل مرة والتسالية الف سنة ، وحدث الله تعالى مصرحاً بانه خالقه وربّه الأمر الناهي ، بل والده الحب ، فلم يجبه الله ، لانه فاه بنير الحقيقة . ثم صعد الى الجبل مرة رابعة وقال : « الهى ومقصدي وكالى ، انا امسك وانت غدى . انا عروق لك » « في السراب ، وانت ازاهر لى في السماء ، ونحن ننمو سوية امام وجه الشمس . » ثم يضيف الى تلك الرواية الكاذبة ما هو اكذب منها قائلاً : « فعطف اذ ذاك الله نحوي وهمس في اذني كلمات عذبة علوية ، وكبحر يضم جدولاً جارياً اليه ، هكذا ضمني الله اليه ! »

يتضح من النصين السابقين اللذين لا يترك وضوحهما زيادة لمستزيد ، ان مذهب جبران هو الحلولية القائلة بوجود الله في جميع الخلائق بدون امتيازها عنها ، فهي في الحقيقة تنكره انكاراً مطلقاً . فلا بدع بان قد تحتم عليه الاقرار بان الانسان ، ملك الكون المهيولي ، مولود بعنصريه المادي والروحي من التراب الذي يطأ برجليه . قال في « الارض » : « تنبثق « الارض (يعني الانسان) من الارض كرهاً وقسراً ، ثم تسير الارض فوق « الارض تيهياً وكبراً ، وتقيم الارض من الارض القصور والبروج « والهياكل ، وتنشئ الارض من الارض الاساطير والتعاليم والشرائع ... » ثم يراود نعاس الارض اجفان الارض ، فتنام نوماً هادئاً ، عميقاً ، ابدياً . » دونكم خاتمة تلك المقالة : « انت انا ، ايتها الارض ؛ انت بصري « وبصيرتي ، انت عاقتي وخيالي واحلامي ؛ انت جوعي وعطشي ، انت المي « وسروري ، انت غفلي وانتباهي ! انت الجمال في عيني » ، والشوق في قلبي ، « والخلود في روحي ! انت انا ، ايتها الارض ؛ فلو لم اكن ، لما كنت . »

قد بلغ به الكفر والجنون الى حد ادعائه ان النواميس النفسية ولا سيما الشرائع الدينية التي تسيطر على روح الانسان ، لا تختلف عن نواميس العالم المادي ، فقال في « ايتها الارض » : « علمت ان منزل النفس فضاءك ، ورغائبها « في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك ، وسعادتها في الغبار الذهبي الذي تنثره « النجوم على جسدك ... علمت ان نظام البشر نظامك ، وناموسهم ناموسك ، « وسنتهم سنتك ... »

انكر جبران وجود الله ، وادعى ان الكون المادي ازلي غير مخلوق ، وان البشر من مواليد تطوره الدائم ، فعد الدين والفضائل التي يفرض ممارستها كلمات باطلة فارغة ، تدل على اوهام وخرافات غير لائقة باهل القرن العشرين . اسمعوا استهزاءه بالدين واصحابه :

(١) قد ذكرنا اقوال جبران على علاقتها مع ما فيها من الاغلاط اللغوية .

والذين في الناس حقل ليس يزرعه غير الاثلي لهم في زرعه وطرب؛
 من آمل بنعيم الخلد مبشر ، ومن جهول يخاف النار تستعر .
 فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا رباً ، ولولا الثواب المرتجى كفروا ،
 كأنما الدين ضرب من متاجرهم ؛ ان واضربوا ربحوا ، او اعملوا خسروا .
 هاكم رأيه في الفضيلة الذي ابداه في مقالته « يا صاحبي :

« انت تعشق الحق والجمال والفضيلة ، وانا لاجلك اقول انه يليق
 « بالانسان ان يحب هذه الاشياء ، ولكنني اضحك في قلبي من حبك . . . »
 في نظر ذلك المادي الكافر ، الذي عده آلاف الشرقيين من نوابغ
 المفكرين الفلاسفة ، لا فرق اصلاً بين الراهبة التي ضحت باعظم الخيرات
 المحللة لتقتدي بقداسة السيد المسيح وتساعد على تخليص ربوات النفوس ،
 والمومسة المصرة على جعل جسمها ونفسها العوبة زهيدة الثمن تحت تصرف
 العاهرين . قال في « القشور واللباب » : « قد تنظر من نافذة منزلك ، فترى
 « بين عابري الطريق راهبة تسير يميناً ومومساً تسير شمالاً ، فتقول على
 « الفور : ما انبل هذه وما اقبح تلك ! ولكنك لو اغمضت عينيك واصغيت
 « هنيهة ، لسمعت صوتاً هامساً في الاثير قائلاً : هذه تنشدني بالصلاة وتلك
 « ترجوني بالالم ، وفي روح كل منهما مظلة لروحي ! »

العفاف الذي يرفع الانسان الى مقام الملائكة ، والعهارة التي تجعله
 ادنى من الحيوانات ، هما سيان على رأي جبران . لذلك يعد الزواج الشريف
 مع واجباته الصعبة واعبائه الفادحة حماقة محضة ، اذ يلجم الشهوات السافلة
 الجالحة ، التي يريد مدعي اصلاح البشر التمتع بملذاتها بلا مانع ولا رادع .
 فلا يخجل من قوله « لا يحترم الناس الامومة الا اذا جاءت مرتدية باثواب
 شرائعهم » ، مصرحاً بان الولد الشرعي والولد النعل سيان في نظره ، ومناقضاً
 بوقاحة فاحشة الوصية الالهية السادسة وقوانين جميع الحكومات وآراء كل
 الشعوب حتى المتوحشة . قد اعلن مراراً عديدة احتقاره للزواج وتفضيله

الحب الحر ، الذي هو في الحقيقة حب حيواني محض ، لا حصة فيه للعقل الرشيد ولارادة المتسلطة على الحواس العمياء . قال في « حفّار القبور » ان شبحاً قد تراءى له وسأله : « امزوج انت ؟ » فاجابه : « نعم ، وزوجتي امرأة حسناء وانا كلف بها . » فقال الشبح : « ما اكثر ذنوبك ومساوئك ! » انها الزواج عبودية الانسان لقوة الاستمرار ؛ فان شئت ان تتحرر ، « فطلق امرأتك وعش خالياً . . . ما حياة المرء بين زوجته واولاده سوى « شقاء اسود مستر وراء طلاء ابيض . »

ذلك الحب اللحمي الدنس ، الذي يرذله كل ذي عقل سليم وقلب نبيل ، قد اتقح جبران وسماه الهاً ؛ ولا بدع بهذا التأليه فان جبران قد ضحى له بنفسه وجسمه تضحية كاملة . « على باب الهيكل » حاوية التعبير الجلي عن ايمانه بمعبوده وحبه الحار له ، فقد قال : « اي بشري لا يحرق نفسه » بخوراً امام اله (اله العهارة^١) يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته ؟ » في ختام تلك المقالة يقول : « فدخلت الهيكل اذ ذاك وسجدت راکعاً ، مصلياً ، هاتفاً : اجعلني ، يا رب طعاماً للهب (يعني لهيب الشبق^١) ؛ اجعلني ، ايها الاله ، مأكلًا للنار المقدسة ! آمين . »

من خص بصلاته وبخوره صنم الخلاعة ، فلا مندوحة له عن الاستخفاف بالصلاة المرفوعة الى عرش الاله الواحد خالق السماء والارض ؛ ذلك ما نراه مراراً في مؤلفات جبران . في « الكلب الحكيم » يقول قط كبير لرهط من مجانسيه : « ايها الاخوة المؤمنون ، الحق اقول لكم ؛ انكم اذا صليتم بحرارة وايمان مبتهلين ، يُستجاب دعاؤكم وتمطر كم السماء فرائنا . » في « الجبارة » يسأل الملحد المتحدلق ذاته ماذا يطرأ على العالم من التقلبات بعد ختام الحرب العالمية الاولى ، فيقول : « هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ؟ » لكنه لم يكشف لنا سر ذلك

(١) تأويلنا هذا اكيد ومنضج من سياق كلام جبران .

الرقص الغامض .

قد جعل الارض ولذاتها الحقيرة فردوساً لنفسه ومرتعاً مُشبعاً لشهواتها ، فلا يطمع بسعادة ابدية بعد الموت في جوار اله قد نفى وجوده ووضعه على هامش حياته . **اسمعوا - وامتنعوا** عن الضحك ، اذا استطعتم - ما يقوله استاذ الكفر والمادية في رثائه للكاتب اللبناني الشهير جرجي زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ : « اذا كان زيدان قد انتقل الى احدى السيارات « السابحة في بحر الانهاية ، فهو الآن مشغول بنفع سكانها ، منهمك بجمع « معارفها ، مأخوذ بجمال تاريخها ، منصب على درس لغاتها . » ما يشفع بعض الشفاعة عند قارئ ذلك الرأي الغريب ان صاحبه لم يتجاسر على تأكيده ، بل ابداه بصيغة شرطية .

قد صرح جبران في « حفار القبور » تصريحاً كاملاً بهاديته المطلقة وتأليهه نفسه وكل اميالها حتى اقبحها ؛ ولكي يخفف نخس ضميره ، قد ادعى ان جميع بني آدم شركاؤه في تلك العبادة الوثنية . في المقالة المذكورة يسأله شبح مترا : « ما دينك ؟ » فيجيب : « اومن بالله واكرم انبياءه واحب الفضيلة ، ولي رجاء بالآخرة . » فيقول له الشبح : « هذه الفاظ رتبها « الاجيال الغابرة ، ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . اما الحقيقة المجردة فهي « انك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ، ولا تهوى غير اميالها ، « ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ، ولكنه يلقيها « باسماء مختلفة باختلاف امياله وامانيه ، فتارة يدعوها البعل ، وطوراً المشتري ، واخرى الله . »

من ابغض الله - عز وجل - الى حد انكاره ، وضم الاديان الى العاديّات التي اكل عليها الدهر وشرب ، اقتضى منطق الكفري ان يكون عدواً ازرق لرجال الله والدين . والحال ان جبران قد جاهر مئة مرة بتلك العداوة الظالمة الشرسة ، فلا تقوته فرصة سانحة للظمن في اعضاء الاكليرس

والرهبان ؛ يتعمى عمداً على عين عن قداسة آلاف مؤلفة منهم ، ويعزو اليهم جميعاً اشنع الرذائل والجرائم . يقول في « البحر الاعظم » : « هوذا المتصوف (يعني الناسك) الذي يقيم في اوهامه صنماً ليعبده ؛ فلندعه وشأنه . » في « العاصفة » يزور جبران ناسكاً خيالياً ، سماه يوسف الفخري ، فيقول له هذا ما يوضح انه من اتباع زائره ، لا من تلاميذ السيد المسيح : « اما « التنسك - وهو قهر الجسد وامانة رغبته - فسألة لا مكان لها في ديني ، لان « الله قد بنى الاجسام هياكل للارواح ، وعلينا ان نحافظ على هذه الهياكل « لتبقى قوية نظيفة ، لاثقة بالالوهية التي تحل فيها طلبت الخلوة لان « نفسي تعبت . . . من الكهان الذين يعطون الناس بما لا يتعطون به « ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم . »

كل رؤساء الاديان بلا استثناء هم في نظر ذلك الفيلسوف السامي الفضيلة (؟) خطأة مراءون ، يتاجرون بالدين ويخدعون السذج لاختلاس احترامهم ومحبتهم وعلى الاخص حصّة وافرة من اموالهم ، فيذرف على فسادهم وإضالهم الدموع السخينة ويقول : « ان كان هناك من يريد ان « يُبدل نوحى بالضحك ، ويحول اشمزازي الى الانعطاف ، وتطرفي الى « الاعتدال ، فعليه ان يربني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ، « ورئيس دين يعمل بما يعلم ، وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه . »

لم يحظ قط بتلك المشاهدة المعزية لقلبه الطاهر (؟) الدائم الحزن والنوح على آثام اخوته البشر ، ولا سيما رؤساء الاديان ، فيجول في انحاء العالم ، لعله يجد في احدى زواياه الخفية ما يُخمد او يخفف نار لوعته . هيات ! شتان ما بين مئى جواب الآفاق الملتهب غيرة على اصلاح الناس (؟) واصرارهم على الانهماك في قضاء نهباتهم الدنيئة ؟ فيعود بخفي حنين متأوهاً يائساً ، ويقول في « العبودية » : « دخلت القصور والمعاهد والهياكل ،

« ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ،
« والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ،
« والملك عبداً للكهنة ، والكاهن عبداً للصنم ، والصنم تراب جبلته
« الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الاموات . »

واهاً على خيبة رسول التوحيد والفضيلة ! (؟) بما ان رئاسة الاديان
مرادفة على رأيه للسقوط الى اسفل دركات الخبائث والغش ، يسأل قارئه في
« العهد الجديد » : « أأنت رئيس دين يحوكم من سداجة القوم برفيراً
« لجسده ، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه ، ويدعي كره ابليس
« ويعيش بخيراته ، ام تقني ورع ، يرى في فضيلة الفرد اساساً
لرقي الامة ؟ ... »

يقول في « يوحنا المجنون » ان هذا الرجل « اذا ما ذهب الى الكنيسة ،
« عاد مكتئباً ، لان التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي
« يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي
« تكلم عنها يسوع الناصري . » زه ! زه ! ما اعظم غيرة جبران على اخراج
كل الناس انجيل المسيح الى حيز العمل !

في هذه القصة الخيالية يُظهر بعض الرهبان بمظهر القساوة الفظيعة
نحو راع رعت عجوله بضع ساعات في اراضي ديرهم . رئيسهم يطالب الراعي
بثلاثة دنانير تعويضاً عن الضرر ، فيصيح به صاحب القطيع : « هكذا
« تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب (يعني الانجيل) ، ايها المراؤون ؟ هكذا
« تستخدمون اقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة . فويل لكم اذ يأتي
« ابن البشر ثانيةً ويخرب اديرتكم ويلقي حجارته في هذا الوادي ، محرقةً
« بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم ! ... تلتذذون بشمار الحقول وخمر
« الكروم ، فلم تزرروا مريضاً ولم تتفقدها سجيناً ، ولم تطعموا جائعاً ، ولم
« تؤاووا غريباً ، ولم تعزوا حزيناً . وليتكم تكشفون بما لديكم وتقتنعون بما

« اغتصبتم من جدودنا باحتيالكُم ، فانكم تمدون اياديكم كما تمد الافاعي
« رؤوسها ، وتقبضون بشدة على ما وقترته الارملة من عمل يديها وما ابقاه
الفلاح لايام شيخوخته ! »

قد رذل جبران الله تعالى خيره الاسمي ، الينبوع الوحيد للسعادة في
الحياتين الفانية والباقية ، فلا تزال نفسه المفصولة عن مصدر كيائها وغبطتها ،
فريسة الحزن الدائم . قد باح لنا مراراً بذلك الداء العضال وصاح في
« حرقة الشيوخ » :

وغدت ايامنا قيد العذاب في وجود بالمسرات بخيل !
« بالامس » حاوية اقراره الاليم بان ملذات الحب الشهواني اضغاث
احلام السعادة ، لا غير :

وسرور الحب وهم لا يطول وجمال الحب ظل لا يقيم ،
وعهود الحب احلام تزول عندما يستيقظ العقل السليم ! ...
شاخت الروح بجسمي وغدت لا ترى غير خيالات السنين ، ...
والتوت مني الالامني وانحنت قبل ان ابلغ حد الاربعين !
يعبر عن ذلك المعنى عينه في « يوم مولدي » حيث يقول : « في الخامس
والعشرين سنة قد احببت السعادة مثل جميع البشر ... فكنت استيقظ كل
يوم واطلبها كما يطلبونها ... ولما فتحت قلبي لكي ارى السعادة ، وجدت
« هناك مرآتها وسريرها وملابسها ، لكنني لم اجدها . »

حين يصحو من نشوة ضلالاته وعهارته ، يشعر شعوراً اليماً ببطلان
المال والملذات والمجد ، وبعطش نفسه المضني الى سعادة حقيقية ، سامية ،
دائمة ، لا يمكنه ادراكها الا بعد اجتياز نفق الموت المظلم الهائل ؛
« يا نفس » تعبير جميل عن ذلك التوق الشريف :

يا نفس ، ما العيش سوى ليل ، اذا جئ ، انتهى
بالفجر ، والفجر يدوم !

وفي ظما قلبي دليلٌ على وجود السلسيل
 في جرة الموت الرحوم !
 يا نفس ، ان قال الجهول « الروح كالجسم تزول » ،
 وما يزول لا يعود » ،
 قل لي له : « ان الزهور تمضي ، ولكن البذور
 تبقى ، وذا كنه الخلود ! »

في فترات الصحو المشار اليها يخامر جبران الشك في صحة فلسفته
 الموهومة السطحية ، فيلجأ الى الاقرار الدليل بجهله ؛ ذلك ما فعله
 في « الشهرة » :

كتبت في الجزر سطرًا على الرمل ،
 اودعته كل روي مع العقل ؛
 وعدت في المد اقرا واستجلي ،
 فلم اجد في الشواطئ سوى جهلي !

ان كان يعترف بجهله ، فباي حق جعل ذاته فيلسوف جيله واستاذ
 الشرقيين الاعلى ، فلا يزال ينفخ بضجة مزعجة في بوق اصلاح اضاليلهم
 وردائهم ، ولا سيما انه على يقين من كون اكثرهم يعدونه - كما هو في
 الحقيقة - مختل العقل ، مشعوذاً يحاول اغواءهم وافسادهم بنظرياته الطفلية
 الفارغة ، المستترة بحلى العبارات اللبقة الرنانة والخيالات المبتكرة الجوفاء ؛
 قد ابدى هو ذاته في « المخدرات والمباضع » رأي الناس فيه : « هو متطرف
 بمبادئه حتى الجنون . هو خيالي يكتب ليفسد اخلاق الناشئة . لو اتبع
 الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج ،
 لتقوضت اركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية ، واصبح هذا العالم
 جحيماً وسكانه شياطين ! قهراً عما لاسلوبه الكتابي من الجمال ، فهو من
 « اعداء الانسانية ! هو فوضوي ، كافر ، ملحد ؛ ونحن ننصح لسكان هذا

« الجبل (يعني لبنان) المبارك بان ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته ، لئلا يعلق
« منها شيء على نفوسهم ! قد قرأنا له « الاجنحة المتكسرة » ، فوجدناها
السم في الدسم . » ثم يضيف جبران : « هذا بعض ما يقوله الناس عني ،
« وهم مصيبون ، فاني متطرف حتى الجنون . اميل الى الهدم مبلي الى البناء ،
« وفي قلبي كره لما يقدره الناس وحب لما يأبونه . ولو كان بإمكانني استئصال
« عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم ، لما ترددت دقيقة . »

قد شهد هو ذاته على جنونه وكفره واكبابه على هدم صرح الدين
المسيحي الذي وُلد ونشأ فيه ، وقد نسي او تناسى ان منشئه الالهي ، سيدنا
يسوع المسيح ، قد اسسه على صخرة صماء ، لا تستطيع كسرهما قوى الجحيم ،
ولو حالفها ملايين من الكفار امثاله . بمؤلفاته المشحونة إضلالاً وافساداً قد
قتل آلافاً من النفوس البشرية ، بعدما استأصل منها الايمان المسيحي ، بل
الدين على وجه التعميم ؛ وقد حكم على ذاته بكونه من اعظم المجرمين اذ
قال في « العدل » :

وقاتل الجسم مقتولٌ بفعلته ، وقاتل الروح لا تدري به البشر !
ان كان الناس قد جهلوا آثامه ، فقد دانه عليها الديان الرهيب حين
خروجه من هذا العالم الفاني .

قد اوضحنا في الصفحات السابقة انكار جبران لوجود الله تعالى خالق
البرايا ومولاها ، وادعاءه ان الانسان من مواليد الكون المادي وخاضع
لنواميسه ، وان الدين والفضيلة والسعادة او التعاسة الابديتين من الاوهام
الجديرة بالاستئصال . مع ذلك نعتز بان لذلك الكافر المادي ، في بعض
مقالاته وقصائده التي لا علاقة لها بالدين وفلسفة الحياة ، افكاراً سديدة
وعواطف نبيلة . « لستم لبنانكم ولي لبناني » من اجمل نفثات قلمه ؛ يبين فيها
على اسلوب شعري فتان التضاد المحزن لوطنيته الحارة بين جمال جبال لبنان
ونفوس اهاليه الذين لم تفسد اخلاقهم الموروثة من الجذود جرائم التمدن

الكاذب ، وشناعة رذائل فئة اخرى من سكانه ، اعتمدتهم الاثرة وصلبت قلوبهم ، فصاروا جلادي مواطنيهم ومدمري صرح رقي بلادهم :

« هم الذين يضجون كالضفادع قائلين « لقد تملصنا من عدونا الطاغية « القديم » ، وعدوهم القديم الطاغية ما برح يختبئ في اجسادهم . . . هم الذين لا يعرفون المجاعة الا اذا كانت في جيوبهم . فاذا ما التقوا بمن كانت مجاعته في روحه ، ضحكوا منه وتحولوا عنه قائلين : « ما هذا سوى خيال يسير في « عالم الاخيلة . » هم اولئك العبيد الذين تبدل الايام قيودهم المصدأة بقيود « لامة » ، فيظنون انهم اصبحوا احراراً مطلقين . هؤلاء هم ابناؤ لبنانكم . « فهل بينكم من يشبه العزم في صخور لبنان ، ام النبل في ارتفاعه ، ام العذوبة « في مائه ، ام العطر في هوائه ؟ هل بينكم من يتجرأ ان يقول « اذا ما مت ، تركت وطني افضل قليلاً مما وجدته عندما وُلدت » ؟

في « العهد الجديد » نجد وصفاً شائقاً للصراع الناشب في لبنان بين الانانيين الانتفاعيين ومن يبدلون النفوس والنفائس لاعلاء شأن بلادهم . يسأل جبران احد مواطنيه :

« تعال واخبرني ما انت ومن انت . اسياسي يقول في سره « اريد ان « انتفع من امتي » ، ام غيور متحمس يهمس في نفسه « اتوق الى نفع امتي » ؟ « ان كنت الاول ، فانت نبتة طُفيلية ؛ وان كنت الثاني ، فانت واحة في « صحراء . . . اصحني يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخاسين ، وينمو « ويتعرعر على ما يفرزه الاجتماع من اخبار المصائب والويلات ، ونظير « الشوكة الجائعة لا تهبط الا على الجيف المنتنة ؟ ام معلم واقف على منبر من « منابر المدنية ، يستمد من مآتي الايام مواعظ يلقيها على الناس ، بعد ان « يتعظ بها هو نفسه ؟ ان كنت الاول ، فانت بثور وقروح ؛ وان كنت

(١) نصوص جبران التي نوردها من الآن فصاعداً لم نقتبسها كلها كالسابقة من « البدائع والطرائف » بل من عدة مؤلفات .

« الثاني ، فدواء وبلسم . احاكم يتصاغر امام من ولاه ويستصغر من تولى عليهم ، فلا يحرك يده الا ليضعها في جيوبهم ، ولا يخطو خطوة الا لمطمع له فيهم ؟ ام خادم امين يدير شؤون الشعب ، ويسهر على مصالحه ويسعى الى تحقيق امانيه ؟ ان كنت الاول ، فانت زؤان في بياذر الامة ؛ وان كنت الثاني ، فانت بركة في اهراثها . »

« احب من الناس العامل » نعتها ايضاً من الفرائد الادبية ، فقد اوضح فيها جبران بكثير من الملاحظات الصائبة والخيالات المبتكرة سمو وظيفة العامل في المجتمع مع حقارة مقامه في عين الناس :

« احب الرجل الذي يتناول الاخشاب الجافة المهمة ، فيصنع منها مهداً للاطفال او قيشارة حبل بالانعام . واحب الرجل الذي يقيم من الصخور التماثيل والمنازل والهياكل . . . احب الحداد الذي ما انزل مطرقته على سندانه الا وانزل معها قطرة من دمه . واحب الخياط الذي يخطط الاثواب باسلاك مشتبكة باسلاك من نور عينيه . واحب النجار الذي لا يدق مساراً الا ودفن معه شيئاً من عزيمته . احب اصابعهم المغموسة بعناصر الارض . احب وجوههم بما عليها من سيماء الصبر والتجلد . احب جبهاتهم المشعشة بجواهر الاجتهاد . »

« مات اهلي » متأججة بنار وطنية جبران . يقابل بين طمأنينته ورفاهيته في الولايات المتحدة ، ابان الحرب العالمية الاولى ، وما قاساه فيها اهل جبله العزيز من فظائع الجور واهوال المجاعة ، فيرثي لفرط شقاؤهم باقوال تكاد تلهب الماء وتبكي الجماد :

« لو ثار قومي على حكامهم الطفافة وماتوا جميعاً متمردين ، لقلت ان الموت في سبيل الحرية لاشرف من الحياة في ظلال الاستسلام ؛ ومن يعتنق الابدية ، والسيوف في يده ، كان خالداً بخلود الحق . لو اشتركت امتي بحرب الامم واقترضت على بكرة ابيها ، لقلت : « هي العاصفة الموجهة ،

« تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ؛ والموت تحت اقدام
« العواصف لاشرف منه بين ذراعي الشيخوخة . » ولو زلزلت الارض
« زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدرأ ، وغمر التراب اهلي واحبائي ، قلقت :
« هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر ؛ فمن الجهالة ان
« نحاول ادراك اسرارها وخفاياها . » ولكن لم يمت اهلي متمردين ، ولا
« هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فماتوا مستسلمين . مات اهلي
« على الصليب ؛ ماتوا واكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب ، وعيونهم
« محدقة بسواد الفضاء ؛ ماتوا صامتين ، لان آذان البشرية قد اغلقت دون
« صراخهم ؛ ماتوا لانهم لم يجبوا اعداءهم كالجبناء ولم يكرهوا محبيهم
« كالجاحدين ؛ ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين ؛ ماتوا لانهم لم يظالموا الظالمين ؛
« ماتوا لانهم كانوا مسالمين ؛ ماتوا جوعاً في الارض التي تدر لبناً وعسلاً ؛ »
قد ذكرنا ببعض الاسباب اربعة نموذجات من اجمل ما كتبه جبران ،
بيد ان نزاهة النقد تضطرنا الى التصريح بان نظريته المادية الجوفاء في نشأة
الانسان وغاية حياته ، ومن جهة اخرى خلوه من عقل كامل الرشاد و ارادة
كافية القوة لكبح جماح مخيلته القديرة وشعوره الدائم الجيشان ، قد افضيا
به الى تأليف عدد كبير من المقالات والقصائد العادمة الجوهر ، المشحونة
بانواع السفسطات والاضاليل ؛ فهي ثروة فارغة ، رنانة كالطبول ، لا
سداد فيها ولا تلاحم منطقي ، موشاة بمئات من الخيالات التي لا ينخدع
بالوانها الساطعة الا ذوو الثقافة السطحية . يسهل علينا ايراد عشرات الامثال
على تلك المصنفات التي سداها ولحمها الخطل والهذيان ، بحيث يصعب على
قارئها عدم الايقان ان صاحبها من غير المجانين او الشيوخ الخرفين ، بيد ان
ضيق المقام يقسرنا على الاكتفاء ببعض الامثلة ، وهي برض من عد .
في « صراخ القبور » يحاول يبراهين اوهي من خيط العنكبوت ان
يثبت ان الحكم لا تجوز لهم معاقبة المجرمين ، وان الشريعة التي تقتضي

ذلك القصاص العادل ، وهم محض :

« ما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من اعماق السماء ؟
« واي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟ وفي اي جيل من الاجيال
« سار الملائكة بين الناس قائلين : « احرموا الضعفاء نور الحياة وأفنوا
« الساقطين بحد السيف ، ودوسوا الخطاة باقدام من حديد ؟ »

زه زه ! ما اعمق فلسفة جبران الاجتماعية وما ارق شففته البلاء على
القتلة والصوص والزناة وسائر الاشرار ! على رأيه يجب ان تطلق لهم
الحكومات الحرية ليتهضموا ، ما طاب لهم ، اقدس حقوق الناس . ولا شك
عندنا في انه يبادر الى شكائهم الى الشرطة والمحكمة اذا تعدوا على حياته او
ماله او شرفه .

« كلنا يصلي » هذان محض ، فان جبران يحدد الصلاة تحديداً خيالياً
كاذباً ، يأباه المسيحي ، فضلاً عن اليهودي والمسلم والوثني ؛ وكل تحذلقه
وإجهاد تخيلته لتأييد نظريته في الصلاة دليل واضح على كفره وسخافته :

« الصلاة في ملتي كل رغبة في البقاء ، وكل شوق الى الحياة ، وكل
« عزم محدود ينزع الى عزم غير محدود . فما اول صرخة تخرج من صدر
« الطفل سوى صلاه الغيوبة في مسمع اليقظة ، وما خجل الصبية ليلة عرسها
« سوى صلاة الامل المستوحد نحو ذلك الكيان العلوي المزدوج الذي
« ندعوه الامومة . . . الازهار تصلي قبل ان ينبها الربيع من رقادها .
« والاشجار تصلي ، والخريف ينثر اوراقها الصفراء على اديم الارض . . .
« الطير يصلي قبل التغريد وبعده . والحيوان يصلي ساعياً الى القوت . . .
« الجبال تصلي واشعة الغروب تودعها ، والادوية تصلي وضباب المساء
« يغمرها . الصحراء تصلي . . . والعقبات تصلي . . . والكواكب تصلي . . .
« والهاوية تصلي . . . وليست الصلاة وظيفة من وظائف المتمدنين (يعني
« جبران المتدينين) ، وليست بتلك الآيات القديمة المرتبة ، يستظهرها الناس

« ويكررونها متوهمين انهم يحصلون بواسطتها على عطف الله وبركاته . . . »
 « على باب الهيكل » رواية خيالية ، يسأل فيها جبران المارين به عن
 جوهر الحب ، فيجده عشرة منهم تحديدات ليست سوى كلمات فارغة
 مصفوفة وخيالات جوفاء منمقة . فلا يوضح بطلانها الكاتب المدعي انه من
 اعظم فلاسفة عصره ، بل يختم مقالته بحماقة تفوق بلاهة الذين استفهمهم :
 « ولما جاء المساء سكنت حركة العابرين ، وسمعت صوتاً آتياً من
 « داخل الهيكل يقول : « الحياة نصفان ، نصف متجلد ونصف ملتهب ؛
 فالحب هو النصف الملتهب . . . »

ذلك التحديد الصادر من الهيكل يُضحك الشكلى ، وقد حاول جبران
 ايضاحه في « المحبة » ، فعجز عن ذلك وبلغ من الهراء شأواً لا يجاريه فيه
 مُتَجَار . يُسِيل قلمه وابلاً من التعابير المبهمة في وصف مفاهيم المحبة ،
 بدون ان يفهمنا كنهها :

« المحبة تضمك الى قلبها كإغمار الحنطة ، وتدرسك على بيادها لكي
 تُظهر عريكم ، وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم ، وتطحنكم لكي
 تجعلكم انقياء كالثلج ، وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا ، ثم تُعَدِّمُ لنارها
 المقدسة ، لكي تصيروا خبزاً مقدساً يقدم على مائدة الرب المقدسة . »

يا للعجب ! كيف ابدى ايمانه بالرب - وقد فعل ذلك مراراً - بعدما
 اخبرنا بتكرير مجاهرته بهاديته المطلقة !

من اوضح الامثال على عبث جبران في معالجة اسمى المواضيع ، وشعوذته
 المضحكة بالخيالات الفارغة الطنانة كالنقود الزائفة ، ما كتبه عن « السكال » :
 « يسير الانسان نحو السكال عندما يشعر بانه الفضاء ولا حد له ، وهو
 « هو البحر بدون شواطئ ، وانه النار المتأججة ابدأً والنور الساطع ابدأً ،
 « والارياح اذا هبت او اذا سكنت ، والسحب اذا ابرقت وارعدت
 « وامطرت ، والجداول اذا ترنمت او ناحت ، والاشجار اذا ازهرت في

« الربيع او تجردت في الخريف ، والجبال اذا تعالت ، والاودية اذا
 « انخفضت ، والحقول اذا اخصبت او اجذبت . اذا شعر الانسان بكل هذه
 « الامور ، بلغ منتصف طريق الكمال . اما اذا شاء بلوغ محجة الكمال ،
 « فعليه ان يشعر بكيانه ، ان يشعر بانه الطفل المتكل على امه ، والشيخ
 « المسؤول عن عياله ، والشاب الضائع بين امانيه وغرامه ، والكهل الذي
 « يصارع ماضيه ومستقبله ، والعابد في صومعته ، والمجرم في سجنه ، والعالم
 « بين كتبه واوراقه ، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره ، والراهبة بين
 « ازهار ايمانها واشواك وحشتها ، والموسم بين انياب ضعفها ومخالب حاجتها ،
 « والفقير بين مرارته وامثاله ، والغني بين مطامعه واذعانه ، والشاعر بين
 « ضباب أمسائه وشعاع اسحاره . اذا استطاع الانسان ان يختبر ويعلم جميع
 « هذه الامور ، يصل الى الكمال ويصير ظلاً من اظلال الله . »

« يا صاحبي » على هذه الشاكلة ؛ سلسلة افكار وخيالات ليس فيها
 ذرة من الحقيقة والطبيعة ، فهي اقوال معنوه يقر فيها بعنايته :
 « يا صاحبي ، حين تصعد انت الى جنتك ، انحدر انا الى جحيمي .
 « وحتى في جحيمي اسمعك تناديني من وراء الهاوية الهائلة التي تفصلنا قائلاً
 « يا صاحبي ، يا رفيقي » ، فاجيبك هاتفاً « يا رفيقي ، يا صاحبي » ، لاني اذن
 « بجحيمي من ان يقع عليه بصرك ، واخشى من لهيبه ان يلتهم النور في
 « عينيك ، ومن دخانه ان يسد منخريك . . . »

في خاتمة هذه المقالة يشهد جبران على ذاته بالجنون ، ولا يصعب
 علينا تصديقه :

« يا صاحبي ، انت صديق وحكيم ومترو ؛ لا بل انت كامل . وانا
 « احاول ان اخطبك بحكمة وترو ، غير اني مجنون منجذب عن العالم الذي
 « تقطنه انت الى عالم غريب وبعيد . لكنني استر عنك جنوني ، لاني افضل
 « ان اكون مجنوناً وحدي . »

قد ابدينا رأينا في المواضيع التي عالها جبران ، و خلاصته ان الجواهر
 بينها قليلة بين اكوام من الخرز الزاهي الالوان بقدر حقارة قيمته . اما تعبير
 الكاتب فمن اكبر مميزاته وفرة الخيالات بدرجة لا نكاد نجدها في غيره .
 مراراً عديدة نراها مزدانة بالابتكار والطبيعية ؛ ها كم بعض نماذجها منها
 في « العهد الجديد » : « اذا ما انشد الربيع اغنيته ، بعث مصروع الشتاء » ،
 « صُحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النحاسين » ، « انت زؤان في بياذر
 الامة » ، « بلدة مزركشة » ، « نفس صحت من مخدرات محيطها » ، « هبط
 الى حفرة النسيان » ، « ابناء الامس يمشون في جنازة العهد الذي وجدهم
 واوجدوه » ، « ابناء الغد نادتهم الحياة فاتبعوها » ، « نواة شقت قشرتها
 بعزم لبابها » .

بيد ان مئآت من الخيالات مشينة بالجوف او التصنع ، فهي عادمة
 المعنى المعقول او بعيدة عن الطبيعية بُعد الثريا عن الثرى . قد ضربنا امثلة
 عديدة على الجوفاء منها ؛ ها كم غيرها على التكلف : « امرأة واقفة وقوف
 الظل بجانب الحقيقة » ، « لو لامست شعلات تنهيداتي اشجار ذلك الحقل ،
 « لتحركت وتركت اماكنها وزحفت كتائب كتائب » ، « لبسني كما
 يتسم الذهب » ، « الالوان هي ساحرة تذيب الجواهر » ، « ذبول زهرة
 نبتت فوق الغيوم » .

التضاد غريب جداً بين كثرة خيالات جبران ، التي تُحصى بالآلاف ،
 وقلة وضوح انشائه . اقواله في عشرات مقالات اشبه بالالغاز الغامضة منها
 بكلام جلي المعنى ؛ وقد اوضحنا في الصفحات السابقة سبب ذلك الابهام الذي
 لم يفقه فيه احد ادبائنا المعاصرين ، وهو من اكبر عيوبه .

الحشو ايضاً غير يسير تحت قلمه ؛ دونكم ما وجدناه منه في « الوحدة
 والانفراد » ، وهي مقالة في صفحتين ونصف قد شين عنوانها بذلك العيب :
 « المراكب والزوارق » ، « الاساطيل والعمارات » ، « الى المعازل الحصينة

والى المستحركات المنبعة » ، « مجهولة بأسرارها وخفاياها » ، « النجوم والكواكب » ، « الظواهر والمظاهر » .

اما الاغلاط اللغوية فانها تُعد بالئات ، فنكتفي بذكر شيء منها مع بيان التعبير العربي المحض بين قوسين : بل ونسي (بل نسي) ، منذ فجر شبابي وانا ارى طيف امرأة (يجب حذف الواو) ، لا ادري ما اذا كنت بشراً (لا ادري هل انا بشر) ، اتفرسك (اتفرس فيك) ، احدثق به (المعنى يقتضي : احدثق اليه) ، يحيك (يحوك بمعنى حياكة النسيج) ، مخر البحر (مخر فيه) ، قش (تبن او موص) ، ارتاح (المقصود استراح) ، تنهيد (تنهد) . بعد ايضاحنا المفصل لخطورة شوائب المعاني والمباني في مؤلفات جبران ، لا يسعنا البتة ان نعهده من نوابغ ادبائنا المعاصرين ، مهما كثرت نقثات يراعه ومهما راع ذوي الثقافة الدنيا وشي آلاف خيالاته ، فان جُل بضاعته الادبية من نوع اللؤلؤ البهرج ، لا من الدرر اليتيمة .

راجي الراعي

في « قطرات ندى »

يخرج كل يوم من مطابعتنا قناطير من الكتب والصحف التافهة ، التي ليست سوى ورق مسود بالخبر ؛ ويا ليمته بقي على بياضه الناصع ! تقلب صفحاتها بشهوة الجائع ، فلا نكاد نعثر فيها على فكر منير او خيال مطرب او عاطفة منعشة . اما « قطرات ندى » التي رأت النور في نيويورك سنة ١٩٢٥ ، فقد جاءت في كثير من عناصرها المتنوعة مطابقة لاسمها الشعري ، مماثلة لآخواتها في الطبيعة ، ينعكس في صفائها ضياء فكر ثاقب وبهاء تخيلة مبتكرة مع لهيب شعور نبيل . في النصف الاول منها مقالات عديدة لا يتجاوز

أكثرها نحو خمس صفحات ، وهي من ثلاثة أنواع . الأول يحتوي دروساً نفسية ، دقيقة التحليل ، جديدة الموضوع ، قلما تصف الحياة الشرقية العربية ، فإن مادة معظمها الروح البشرية العامة .

في « الأعمى » يغبط راجي من اغمض العمى عينيه عن مشاهد الدنيا الباطلة ، فأحد نظر نفسه الى باطنها ، ذلك العالم الروحي الحافل بأنواع الجمالي الرائعة .

في « النشاط الضائع » يتأوه على آلاف الجهود الاليمة العقيمة التي يبذلها ملايين من بني آدم ، الفجار ، الملاكون ، المقامرون ، السجناء وغيرهم ، فيصبح بملء الاسى والرأفة انها كلها قوى ضائعة ؛ لو بُذلت لخير الفرد والمجتمع ، لكان كل منهما ارقى جداً منه الآن .

« عشرة ابطال يقبّلونني في جيني » تمثل لنا بخيالات قشبية فرط شقاء النوايح ، الى حد حرمانهم الحاجيات ، وذلك لعمى اخوتهم البشر او تعاميمهم عن عبقريتهم وخدمهم الجليلة . فينحي عليهم المؤلف باللائمة هاتفاً : « ايها الناس ، ان ابطالكم يموتون جوعاً وبرداً وعرياً وهزءاً ، وهم عناوين امجادكم ومفاخر توارىخكم ! »

في « احد المنتحرين » يبين لمقترف ذلك الاثم الفظيع فيلولة رأيه في معنى الحياة وغايتها ، ويرفع النقاب عن الشهوات السافلة التي تطوع لحمل نيرها الباهظ ، فساقته مرغماً الى مهواة اليأس ، ثم يجود عليه بهذه النصيحة الرشيدة : « انت تنجو من نفسك ، لا من الحياة ؛ فاصلح نفسك تُصلح حياتك . . . اذا كان لا بد لك من الانتحار ، فمت على الاقل شهيداً في سبيل مبدأ كبير او امة مظلومة ! »

« الناس رجلان ، رجل رأسه في جيبه ورجل رأسه في قلبه » نرى في عنوانها انموذجاً من خيالات راجي ، التي كثر ما تزدان بالحدة والطبيعية . في هذه المقالة يفصل لنا مآسي الحياة العديدة الفاجعة ، ثم يحرض شهودها

على الرحمة ، لا القلبية فقط فانها باطلة ، بل العملية المحركة كل ساكن لتفريج الكروب ، فيغدو الانسان بتلك التضحية الشريفة رجلاً رأسه في قلبه ، لا اناثياً رأسه في جيبه .

« حديث ذو شجون » يخاطب به الراعي احد الاغنياء مصرحاً بانه لا بد ان يكون قد اثرى على سبيل الوراثة او الاتفاق او الجريمة او الزواج او الجهد الشخصي . ثم يجاهره بانه لا يحق له حفظ ماله الا اذا اكتسبه بالواسطة الاخيرة ، ويؤكد في الختام ان « قطرات الجبين قل ان تأتي بالثروة الضخمة » . لا يختلف اثنان في كون هذه النظرية موصومة بمبالغة فاحشة ، وان انطوت على شيء من الحقيقة الحرية بان يُبرزها الكاتب منزهة عن شوائب الغلو ؛ والا لما رضي هو ذاته ان يعمل بها على علاقتها .

نرى مثل ذلك الشطط في « حزب الشباب » ، حيث يلخص جوابه لهذا السؤال الموجه الى مواطنيه : « متى نعظم الاقدام (يعني إقدام الشبان) » قبل الحكمة (يقصد بها حكمة الكهول والشيخوخ) ، لان الحكمة سلبية عقيمة ، والاقدام ايجابي مُنتج ؟ « خير الامور اوسطها ؛ الصواب ، في هذا الشأن ، على رأينا ، استثمار إقدام الفتيان مع كبح جماح ما قد يفسده من التهور بفطنة رجال اكبر سنّاً واوفر خبرة » .

في « تلك الحكاية القديمة » يقول ان الحب - يعني الحب الشهواني - هو ثورة القلب المحصور ردىحاً من الزمان في سجن الحكمة والفضيلة ، او بعبارة اخرى « هو عودة قهرية الى الطبيعة التي هجرتها طويلاً وهي لا تُقهر » . لا نوافق الراعي اصلاً على ذلك السلطان القسري الذي ينسبه الى الغريزة الجنسية ، وان كانت اشد الغرائز النفسية حروناً وتمرداً على سيطرة العقل السديد والارادة الصالحة . كل انسان لم يطفئ الانهماك في العبارة آخر جذوة من ضميره ، موقن اتم الايقان بمقدرته على مقاومة الشبق والانتصار عليه . فاذا استسلم اليه كجندي جبان يُلقى سلاحه ، بكتفه

ضميره تبيكيتاً اليماً على سفالته وعبوديته للحواس . لا مرء في كون صاحب
« القطرات » يواطئنا على وجوب سيادة قوى النفس العقلية على ثورة الغرائز
العمياء الهوجاء ، فانه يرشد قارئه هذا الارشاد العسجدي : « خير لك ان
« تطلق تلك القوة (يعني قوة العواطف الجاحمة) في سبيل غاية سامية ، من
« ان تطلقها بين عيني المرأة ، فتديها بدموعها في ساعة قصيرة ، لا تلبث ان
« تزول ، دون ان تُبقي لها أثراً لا يزول ؛ واللذة الحقيقية انما هي في
« الخلود ، لا في الوجود ، في النجمة ، لا في الدمعة ! » التناقض بين ذلك
النصح النبيل وتحديد الكاتب للحب الحيواني واضح لكل ذو عينين .
في « الشاعر » تتجلى امامنا المهمة السامية التي يقوم بها نحو بني قومه
ناظم الشعر الحقيقي : « يضيء طريقك بصاعقه ان تسكت في الظلمة ،
« يحارب فيك الحيوانية كلما غزت بك بجيوشها الكثيفة ، يطير بك الى الافق
كما ازعجتك الارض . »

« بيني وبين فتاة » على شكل حديث ؛ تقترح احدى الصبايا على الراعي
ان يتزوج بها ، فيفتح عينها بتواضع على ما التصق به من العاهات والوصمات ،
وهي لا تزال مصرة على اتخاذ شريكاً لحياتها . ثم يتملص من الحاحها
المفرط مصرحاً لها « بان الزواج الشمعي (يعني الديني) بدعة بشرية لا تعرفها
« الطبيعة ، التي لها من انوارها ما يغنيها عن الشموع . » لا يمكن تأويل
هذا الكلام بسوى مجاهرة الكاتب باستحسانه المبدأ السافل الذي حاول
أتباعه في مشارق الارض ومغاربها ان يبرقعوا رجاسته باسم الحب الحر ، فلم
تجنز حيلتهم على احد العقلاء الصالح ، فنعتوه جميعهم بالفسق الحيواني .
اننا لنستغرب جداً وجود هذه الحمأة المنتنة بين « قطرات ندى » .

« مسكين الحق » يفصل فيها راجي مظاهر الخداع والظلم في الحاكم ،
ثم يصف العلاج لهذا الوباء القتال : « الحق لا يفوز في القضاء بسلاح الشريعة
« والقانون ، فهو سلاح ضعيف ؛ وانما يفوز بسلاح التربية الاجتماعية اذا

غلت قدرها ونضجت في صدر الامة . »

النوع الثاني من مقالات راجي مولود من الاول حيث عرض لنا كثيراً من رذائل البشر ؛ فلا بدع بكونه مفعماً بالتشاؤم بالحياة والشك في فائدتها وجدارتها بان تُعاش . هذه الافكار الدكناء الفاسدة هي لُحمة « ماذا قال الجنين ؟ » وسداها . في « المرأة » ينهى الراعي اخوته البشر عن امعان النظر في عيوبهم ، لياسه الكامل من قدرتهم على اصلاحها ؛ فيصيح للمرأة ، وهي رمز واضح لفحص الضمير : « ان البشر ليسوا بحيث يجوز ان يروا وجوههم ؛ انهم معتلون مشوهون ، يتألمون . فما لك وازعاجهم ؟ دعيهم في ويلاتهم ونكبتهم ! »

في « العام الجديد » يستقل ظل السنة الآتية الينا من مراحم الله ، فيود لو انها ترجع على اعقابها الى الديار الابدية ، لايقانه انها لا تحمل الى الناس سوى انواع الشرور والنكبات . ثم يُفرغ كنانة لومه المر على الدهر : « اما تعب الزمان في تمثيله ؛ اما سئم دوره الواحد ، يعيده للنظارة في كل مكان ؟ ... تتعاقب الاعوام والغريزة البشرية واحدة . »

لا بدع بان يرى الكاتب رأيه هذا المتشائم الفائل في الحياة ، وهو يرذل الزواج الحاوي التضحيات المثمرة والافراح الطاهرة ، ويطلق العنان للآثرة ولذاتها اللحمية التي لا ينجم عنها سوى فضوب ينبوع الحياة والسرور . فما احزاننا بان نعيد له نصحه لمحاول الاتبحار تخلصاً من رزايا الدنيا : « أصلح نفسك تُصلح حياتك ! »

النوع الثالث من « قطرات ندى » هو الوطني المنحصر في مقالتين . الاولى هي « نحن والقائد سراي » يمكن اختصارها في قول الراعي : « ان عصبية الامم اعتبرت ان جرائم تركية لا تزال في دمائنا ؛ فهي ، رحمة بنا ، الى ان تزول تلك الجرائم ، اقامت علينا سراي واعوانه . فنحن كلما

(١) موريس سراي Sarrail (+ ١٩٢٩) مفوض فرنسة في لبنان وسورية .

« اجتهدنا في قتل تلك الجرائم ، خطونا نحو استقلالنا التام الحقيقي . »
ثم يشير بآداة اهل تلك الميكروبات : « المحسوبة » كما يقول ، الحزبية
الشخصية ، الامية ، المهاجرة ، قصف الاغنياء المفرط واهمال الاقتصاديات .
المقالة الوطنية الثانية هي « عودة المهاجرين ونداء الى المهاجرين » .
يبين فيها حنين المهاجر الاليم الى وطنه ، ويصرح بأنه لا يعود اليه خشية
ألا يجد فيه ضماناً كافية لحياته ، حريته ، امواله وسائر حقوقه . مع ذلك
يحرّضه على استثمار المواهب التي اكتسبها في المهجر لاصلاح بلاده وانماء
مواردها ، فانه اجدر من غيره بتلك المأثرة الجليلة . خلاصة المقالة في هذه
الفتوى : « عودة المهاجرين افضل علاج لعلتنا القتالة ، فعنها ان نصف
البلاد اعيد الى نصفها الآخر . »

تلك محتويات القسم الاول من « قطرات ندى » فضلاً عن مقالة
فكاهية محضة في صدر الكتاب ، وعنوانها « كيف القيت الطبعة الاولى من
كتابي في البحر » . اما القسم الثاني فمؤلف من حكم او نكات لا يتجاوز
اكثرها سطراً او سطرين او ثلاثة ، لا تلاحم بينها ، بل تتوارد على
الصفحات تواردها في قريحة الراعي .

نجد في هذا المتحف الغريب افكاراً عميقة صائبة ، مثل هذه :
« رجل الساعة ليس بالرجل ، وانما الرجل الحقيقي هو رجل الساعات ،
« رجل الاجيال ، مهما تنوعت — كلما ارتقت الناس قلت الزعامات في العالم —
« ينام الانسان والحيوانية فيه ابدأ سهرانة يقظانة — الحسد نار تأكل
« نفسها — كم نابغ لم يعلن نبوغه للناس الا فقير الموت ! — لا يصطلي المغرمون
« الا بنيران اكبادهم — كلما اتف المفسر كتاباً مثل دور الخالق . »

بعض هذه الافكار مصبوغ بتشاؤم صاحبها ، وكثيراً ما يُنقص
سداده او يذهب به ، كما نرى في هذه الامثلة : « اذا شئت ان تبكي ، فاذهب
« الى الشرق — لا يستريح الحب الا لهث عياء الا في الزواج ، ولكنها

« راحة الموت — يجب ان يُظلم النابغ لكي يظهر نبوغه — البياض في رأسك انما هو فجر حياتك التي تعاقبت ليلاتها ، فكانت ليلاً واحداً »
« مستمراً — الجنين وليد الحاجة التي اتخذت لها مظهر الحب — التضحية
« هي المرأة الوحيدة الناظرة الى الغد دون سائر النساء . »

نعترا ايضاً بين آونة واخرى على خيالات محضة ، منها المبتكر الطبيعى
ومنها الغريب المستهجن ؛ من الصنف الثانى « الضباب فكرة غمضت في دماغ
الطبيعة » و « الفجر سيف يخرج من غمد الليل » .

يتضح من التحليلات السابقة والامثلة المذكورة من انشاء الراعى ان
كتابه الشديد التنوع في مقالاته واقواله المنفردة ، هو خلاصة ملاحظات
واختبارات كثيرة ، وثمرة صدر جائش بالافكار والعواطف . اجل ان
بعض آرائه قد طاش سهمها ، على ان كثيراً منها سديد نبيل ، من شأنه ان
يسمو بنفس القارئ الى المثلى العليا في الحياة ، ولو كان تشاؤم الكاتب
يحول دون امله ان يصيب ذلك المرمى .

اما تعبير صاحب « قطرات ندى » فان اكثره يضارعهما في الصفاء
والشفوف ، يزيد جماله الانسجام مع وفرة الخيالات المبتكرة الى حد قلما
نصادفه عند الشعراء المعاصرين ، فيخيّل المطالع ان الفكرة لا تنبثق من
روح الراعى الا متشحة بذلك الوشي المتنوع الرسوم والالوان ، وإن شابه
احياناً شيء من التصنع والغرابة مع بعض الاسقاط . فلا مندوحة لنا عن
الاقرار على وجه الاجمال بان هذا الكتاب كثير الحسنات ، قليل السيئات ،
خليق بان يُحصى بين الذمار نثرنا في القرن العشرين .



سلمى صائغ

في « النسيمات »

لا مرأى في ان سلمى صائغ ، السكاتبة اللبنانية المولودة في بيروت سنة ١٨٨٩ ، من طليعة ادبياتنا العصريات اللواتي نفضن عن انشأتهن اسماء التقليد والابتذال ، ناحيات بكل الجسارة منحى الابتكار في المعاني والمباني ، فخدمن بذلك ادبنا الناهض خدمة تسجلها لهن الاجيال الآتية باخص الشكر والافتخار . قد نشرت سلمى مقالات عديدة ، شديدة التنوع ، في عدة صحف ، ولا سيما المجالات النسائية المتكاثرة في عصرنا ، فتجد نقفات قلمها السيل في « الحسنة ، مينرفا ، الفجر ، الخدر ، المرأة ، البرق ، المعرض ، « السائح ، الشعب ، لسان الحال ، مجلة سركيس » ، وتقضي العجب من سعة اطلاعها وسداد آرائها في عدة شؤون ، بل تضحي مفتوناً برقة عواطفها النبيلة ولباقة انشائها البديع .

قد عني مواطنها الشهير جرجي باز ، الجدير كل الجدارة بلقب نصير المرأة اللبنانية ولا سيما الادبية ، بضم شتات كثير من مقالاتها ، فاضاف الى خدمه العديدة لادبنا النسائي ماثرة طريفة يستحق اوفر الثناء عليها . وقد احسن باطلاقه على تلك المجموعة الصادرة في بيروت من نحو ثلاثين عاماً ، اسم « النسيمات » ، فانه كامل الموافقة للمسمى . وايم الحق ليست مقالات سلمى سوى انفس روحها العالية الرقيقة ، بل خفقات قلبها الذائب حناناً على آلام البشر وبلاياهم .

تلك العاطفة متأصلة في اعماق فؤادها بدرجة نادرة ممتازة ، وقد اقلت نارها الوهاجة على معظم مقالات « النسيمات » ، بل ولدت كثيراً منها . قالت صاحبته في « اعطوا يعطكم الله » : « نفسي ، منذ وُجدت ، تبكي على

الجائعين والمتروكين والمحرومين ، ، ويؤكد صحة ذلك التصريح رثاؤها
 المتواتر لانواع الكوارث التي يئن آلاف بني آدم تحت ثقل وطأتها . في
 « اغاني الجنود » تطنب بعين دامعة وقلب كسير في وصف بعض التضحيات
 العظيمة التي جاد بها طوعاً جنود الحرب العالمية الاولى على اوطانهم . ها كم
 شيئاً من الشكوى المرة التي جعلتها على لسان الجندي الفتى : « انا شاب
 » جررت الى الخنادق وكتلت حصد النفوس ، خصدت وخصدت
 » وخصدت ! خصدت حقولاً اغراسها شبان وفتيان ! خصدت شبيبة قوية ،
 » نشيطة ، منظمة ، عالمة ، متفنتة ! كل ما في اوربة من الجمال والقوة والعلم
 » والفن ، كله مر امام الآلة التي خصدت ولم ترحم ! خصدت البستان تلو
 » البستان تلو البستان ! كأنه سباق بين الامهات ومعامل كروب (Krupp) ؛
 » هذه ترمي الوف القنابل ، وتلك حبات القلوب ! خصدت وخصدت حتى
 » ذابت حشاشتي من منظر الدم ، فصرخت : رباه ، اما للجور قاهر ؟
 » ارجعوني الى بيتي ، فارى عروسي الصبية وطفلي الصغير ! هل عرف
 » رجل قبل اليوم معنى ابتسامة المرأة وقبلة الولد في الصباح والمساء ؟ »
 احوال الهيجاء وسيول الدماء والدموع التي تُفيضها ذات وقع شديد
 حتى في القلوب العادمة الرقة ؛ اما قلب سلمى فانه يذوب توجعاً على كل
 ضروب آلام البشر ، ولو خفيت عن انظار العامة او لم تحك في صدورهم .
 في « مي تنهد » تصف لنا الكاتبة طفلة مريحة ، اسمها مي ، شرعت تذوق
 مرارة الحياة اذ رأت صديقةً لامها محمولة في نعشها الى القبر ، وعلى الاخص
 حين بليت باخت حديثة الميلاد ، كادت تستأثر بعناية والدتها ، فصاحت
 قانطةً : « يا لذلي ! ليس لي ام ! »
 تشفق سلمى على « الغريب » ، وقد نعتت هكذا الزوج التاسع الذي

(١) الفرد كروب (+ ١٨٨٧) الالماني كان من نوابغ صناعة المعادن ، وقد
 اشتهر بصنع مدافع من الفولاذ دعت باسمه .

فقد محبة امرأته . اعتمتها الاثرة عن تقدير اتعابه وتضحياته لتفريه عيشتها ،
 فسالت عنه الى من يفوقه بمزايه المادية او الادبية ، وهو يتأوه قائلاً :
 « سرعان ما حلق الحب بعيداً ! سرعان ما اخذت مكاني مشاغل الحياة العالمية
 « العوجاء ! فالعطور والاثواب والقبعات ، حتى الاحذية ، اقرب اليها مني !
 « ولكل من الرجال اسبقية والمعية وافضلية : هذا نبيل ، وهذا موسيقي ،
 « وهذا شاعر . ذاك يتكلم بثلاث لغات ، وذاك له سيارة ، وهؤلاء يلعبون
 « البوكر (poker) لعب الكبار ، واولئك رجال صالونات ، وهذان يرقصان
 « بلباقة ورشاقة . وانا وحدي لا فضيلة لي اغبط عليها ولا مزية احب
 من اجلها ! »

« الغريبان » حاوية مثل ذلك التصوير لتجاني روحين مع تقارب
 جسديهما . نجد هنا فتاة لبنانية هام بها شاب مصري ذو ثروة وافرة وبراعة
 في فن النحت ، فتزوج بها وما لبث ان نبذها نبذ النواة ، بعدما تيمه حب
 كثيرات غيرها : « لم هذا الجفاء ؟ لم هذا السكوت القاتل والبرودة الخرساء
 « والنظرات المظلمة التي تقع على كل شيء وتهتم بكل شيء الا بها . عبثاً جربت
 « ان تعلم ، فلم تعلم سوى ان الرجل الذي اختارته رفيقاً وصديقاً وركناً
 « تستند اليه ، نبذها في زاوية بيته كاحدى الاثريات التي جاء بها من الشرق ! »
 رثت سلمى ايضاً لشقاء الحياة الزوجية في « حكاية هيفاء الديرانية »
 التي هاجر بعلمها الى اميركة بُعيد اقترانه بها ، وقد ترك لها ابناً صغيراً .
 فلم تمض بضعة اعوام حتى انقطعت عنها اخباره ودراهمه ، ثم عرفت بلوعة
 فادحة انه قد تزوج بغيرها وله عدة اولاد لن يدعوها امهم !

« تذكارات يتيمة » تصور لنا نوعاً آخر من آفات الزواج : فتاة
 فُجِعت بامها ، فعقد ابوها زواجاً ثانياً ، ثم اراد ان يتخلص من هم اعالتها ،
 فزوجها قسراً برجل غني من ابناء جيله ، قد عاد من المهجر الى وطنه
 لبنان . فدمي قلب اليتيمة الحديث الجرح ، وزاد آلامه اضطرابها الى هجرة

جبلها المحبوب بصحبة زوج لم تختره ولا تهواه !

تلك مشاهد البؤس التي مثلتها سلمى امام عيوننا تمثيلاً حياً آخذاً
بمجامع القلوب . لها ايضاً في « النسبات » عدة مقالات لا تصف فيها شقاء
الناس مباشرة ، على انها ذات صبغة حزن تُشبعها ، لان نظر سلمى يميل
ميلاً غريزياً الى مجالي التعاسة في كل ما يقع عليه من حوادث الحياة . هكذا
وصفت لنا « الامومة » وصفاً يثير فينا الاسى الشديد في اكثر اجزائه .
تخاطب بنتها الطفلة صائحةً بها : « يا لبلاغتك عندما تقيدني عنقي بذراعيك
وتسأليني : « امي ، لماذا انت نحيلة وصفراء ؟ لماذا لا تبسمين ؟ امي تعب
لأنك تستغلين . ثم ينتفض جسمك ويختلج فؤادك وترتجف شفثاك
وتسيل دموعك ! آه ! كيف تجثو نفسي عند قدميك متوسلة اليك ان
« تكفي عن البكاء ! وكيف اود لو ادخل ذا كرتك الغضة ، فازيل منها صور
« البؤس واضع مكانها صور الهناء ! كم تتسابق دموعي حناناً لحنانك وحباً
« لحبك ، فاضحك الي حاسبة انني اضم كنوز الارض ! . . . تفقد المرأة
« ابها وامها واخاها واختها ، فتتألم نفسها وتبكي عيناها ، ولكن موت الولد
« يؤلمها جسدياً ، فتتوجع كمن فُتئت عينه او بُترت يده او شُتت كبده ! »
في « اجراس العيد » تتوقع وصف مظاهر الافراح ، فنعثر على ذكر
احزان ونكبات عديدة ، طال رقادها في اعماق روح سلمى ، فايقظتها فجأة
رنة الاجراس : « ذكرينا ، ايها النواقيس ، بتلك الايام السود والصحائف
« السود ؛ لقد نسينا وما اكثر ما ننسى ! ذكرينا بايام كان لرينك فيها دوي
« اصم كالهواية وبارد كال موت ، يوم كانت حشرة المائتين ولعنات المصلوبين
« تقطع انينك ، فتسمعنا صوت مناحة لبنان يبيكي خلف الجنازة الكبرى !
« ذكرينا بالعيد يتلو العيد ، والشعب يدخل الكنائس منكسر الرأس ،
« ويخرج منكسر اقباب والنفوس وكافراً ، لان الجوع كافر ! ذكرينا بهم
« كلهم ، بالمنفيين والمصلوبين ، بالجائعين والمضطهدين ! ذكرينا بهم قبل ان

« نسي ، لان على جماجمهم وعظامهم قام الوطن الجديد ! »
« يا بلادي » فيها وصف فتان لجمال جبل الارز ، وطن سلمى ، ذلك
الجمال الفائق الذي جعله على توالي العصور هدفاً عزيز المنال لمطامع الفاتحين ،
وقد فنيت جحافلهم الغازية ، واحد بعد الآخر ، وبقي لبنان حتى الآن حياً
مجيداً على آثار سطوتهم المضمحلة . في موضوع كهذا لا نرى مجالاً يفسح
للكآبة ، على ان سلمى تراه بعينها القرحة من فرط البكاء على تعاسة بني آدم ،
فيهتف قلبها النبيل في خاتمة تلك المقالة الرائعة : « اريد بلادي عريضة منيعة .
» اريدها متشعبة من كل ما اندثر فيها من المدينيات ، ومفرقة على العالم دروس
« العلم والحكمة . وكما تأملت الامومة الجريحة في قلب راحيل ، فصرخت
» بمرارة الى يعقوب « اعطني ولدًا وإلا اموت » ، هكذا وقفت نفسي الجائعة
« على اطلال بعلبك ، فصرخت صراخاً الهياً كالآلهة وعميقاً كالهواية : يا ابناء
» بلادي القريين والبعيدين ، يا ابناء بلادي ، اعطوني وطنًا والا اموت ! »
« تعبتُ من المدينة » من ابداع المقالات التي دبجها يراع سلمى . تبوح
لنا فيها نفسها الرقيقة الرحيمة بتباريحها الفائقة التحمل ، لدى مشاهدتها
ما بدا وما خفي في بيروت من ضروب الفقر المدقع والمظالم والمفاسد ، مع
مواكب الاحزان والبلايا الملازمة لها . لقد ضاق صدرها الرحب العطوف في
ذلك المحيط المشبع بابخرة الانانية الخنثافة ، فاستعاذت منها بقوم لبنان المكلفة
بالتلوج ، الساطعة بالانوار ، حيث يتسنى لها ان تتنشق هواءً منعشاً نقياً ، يشرح
صدرها ويخمد سعي اسها الشريف : « تعبت من المدينة ، من صراخ
» الناس وخير العربات وحشجة السيارات واختلاج المائتين تحت دواليها !
« تعبت من المدينة ومن اصنامها وهياكلها ومذابحها ! تعبت من كل ما يعمي
» ويضم ويخنق الالهية في الكائن المصنوع على مثال الله ! تعبت نفسي من
» المدينة ، ونفسي ، منذ وُجدت ، تسير بين الناس وتتفوس في عيونهم ، عليها
» تجد رسماً او شبه رسم للطابع الاسمي ؛ ولكن ما اكثر ما رأت نفسي من

« المسوخ ! ... تعبت نفسي من المدينة ، وكم في المدينة من بيوت تنهار
« واطفال تئن ! تعبت من انين اطفال ومن نزع ضعيفات تمزقهن اظافر
« الرجال والسنة النساء ! ... تعبت من المدينة ، فذهبت الى جبل الرب ...
« ففعلوا انتم ، ايها التعبون ؛ تعالوا في الصيف والشتاء والربيع والخريف ؛
« تعالوا ، طهروا نفوسكم بخيوط الشمس وضياء القمر ! تعالوا الى اقدام
« ام الاله ، واسمعوا نشيد البحر القديم ، حيث رقصت قديماً قلوب المحبين ،
« وحيث تُسكب اليوم نفوس المتعبدين ! »

قد اتضح لدى القراء ان اوتار قلب ساهى سريعة الاهتزاز ، شديده ،
كلما ادركها انين البؤساء ، مهما كانت اشخاصهم واسباب شقاؤهم ؛ وقد اوحى
اليها حنانها العام بنحو نصف مواضيع « النسمات » ، فبرزت من اعماق فؤادها
الطروب متأججة بليب عطفه على كل القلوب الدامية . على ان الكتابة لا
تمتاز برقة شعورها النبيل فقط ، بل بحصافة عقلها ايضاً ، كما نرى في الشطر
الثاني من مجموعتها النفيسة ، فقد وثقت على المباحث الفكرية ، وفيها من
سداد الرأي واناقة التعبير ما فيها . يجول قلمها البليغ في ميادين السياسة ،
الاقتصاد ، الثقافة والنقد الادبي جولات قصيرة ، بيد انها غير سطحية ،
تشف عن اطلاع واسع ونظر ثاقب ووطنية حارة نشيطة ؛ فلا مندوحة لنا
الآن عن تحليل ذلك النوع الثاني من مقالاتها .

في « ما نرى وما نسمع » و « بابل في سورية » تصف لنا وصفاً دقيقاً ،
مملحاً بالفكاهة ، اختلاف اللبنانيين والسوريين في شأن مصير بلادهم بعد
الحرب العالمية الاولى . في « الحاكمة الوطنية » ترى وجوب تعيين حاكم
وطني للبنان ، ولو تحتم عليه الخضوع للدولة المنتدبة . في « حياتنا الاقتصادية »
تزعم انه يليق بالمرأة اللبنانية الاهتمام بالاقتصاديات ، وتبائع بقولها ان الحرية
الاقتصادية هي الاصل الذي يتفرع منه الاستقلال السياسي ، بيد انها
تصرح بعدة حقائق راهنة ، ولا سيما بضرورة زيادة إنتاج وطنها لتقويم

حالته المالية .

لا تترتب في مضار السياسة والاقتصاد ، لقلة ميلها اليهما ، على انها
تلتذ بمعالجة الشؤون الثقافية على اختلاف انواعها ، فقد منحها الله من مواهب
العقل والقلب ما يؤهلها للزعامة على بنات جنسها في كل ما يؤول الى رفع
مستوى التمدن اللبناني .

في مقالاتها « على ذكر اللغة العربية » تنادي بوجوب ترقية لساننا
العريق في القدم والبديع بالجمال ، وتذكر انجع الوسائل لادراك ذلك المأرب .
انها لغة الشعب ترجمان افكاره وعواطفه ومُنذيع مساعيه ومطامحه ، والصحافة
من خير المنابر التي يعتليها للقيام بوظيفته الحيوية . فلا بدع بان نرى سلمى
تعظم في « احجار الزاوية » شأن الصحافة العربية في توسيع نطاق الحضارة
اللبنانية . اما همها الاكبر في هذا الامر الخطير فهو ترقى المجالات النسائية ؛
وقد عبرت عنه في « مينرفا واخواتها » ، حيث تشير على مؤازرات تلك
الصُّحف بالاكباب على درس العلوم لرفع مستوى ما ينشرن فيها من المقالات :
« لتبادر نساء سورية ولبنان الى تعزيز نهضتهن ، واسها الصحافة ، لان
« المرأة ، في صحيفة لها خصوصية ، تبث من روح التجدد النسائي ومن روح
« التقدم النسائي ما لا يمكن مئة جريدة من جرائد اسيادنا الرجال ان
« تفعله ، فضلاً عن ان المباراة تُرهف القوى وتثير النزعات الطيبة في
« النفوس . فلا يمضي زمن الا ولصحافتنا النسائية قوة تنضم الى سائر قوى
« الامة ، عندما يجيء وقت العمل الجدي ، العمل المثمر الهادىء المتين . »

ثم توجه الكلام « الى جامعة السيدات » البيروتية ، حاثّة بنات جنسها
على ترك ميدان السياسة للرجال وحصر جهودهن في العلوم والاخلاق وسائر
الامور العقلية . في الختام تنصح لهن بضم قوى الجمعيات النسائية لتوحيد
مساعيها وتقوية نفوذها .

من اقوى العوامل لترقية الثقافة اللبنانية والسورية ، وفقاً لرأي سلمى ،

تشويق الاهالي ، على الاخص بواسطة المتاحف ، الى معرفة ما خلفه اسلافهم
الاقدمون من جليل الآثار الفنية . قد بسطت ذلك الرأي الصائب بلهجة حارة
في « مستقبل الآثار في سورية » ، حيث تراثي لعدم اهتمام شعبها بجمع تلك
التحف السنية ، مع شدة سهولة الامر وعظيم فائدته :

« الآثار هي عنوان مجد البلاد ، لانها تظهر اننا اصحاب مدنية مضى عليها
« الوف السنين . والمتاحف التي تضم هذه الآثار هي لوحة يتعلم فيها الولد
« بزيارة او بزيارتين مُجمل تاريخ بلاده . المتاحف هي واسطة كبرى
« لتحسين ذوق الناس ، اذ تعرض فيها مصنوعات ابناء الفن ، من متقدمين
« او متأخرين ، وهي عامل كبير لايجاد موسم سياح يزورون البلاد خصيصاً
للتفرج على آثارها . »

تري سلمى - ونعم الرأي - ان قوام التنقيف الوطني هو انهاء روح
التضحية بالمصالح الفردية ، ولا سيما السافلة ، سعياً وراء الخير العام السامي .
قد كتبت في « التربية القومية » صفحة بديعة ، ضربت فيها امثالا على انواع
التضحية اللازمة لانهاض الوطن من وهدة شقائه ؛ هاكم نموذجاً منها :

« لتضح كل نساء الامة من عبادتهن للمستحذات الغربية ، فان
« الاموال التي نرسلها الى اوربة ثمن جوارب وازرار وخزعبلات هي دماء
« الامة ، بل ماء جبينها ، بل هي ثمن صريح للسلاسل التي تزداد حلقاتها
« كل يوم . لتضح الام بساعة ، فتعلم ولدها لغة الاجداد بنفسها ، فن العار
« ان نرمي المعاهد الاجنبية بهذه الحجارة كلها نظرننا الى ذلنا . انظروا الى
« الشعب اليهودي المشتت في اقطار الارض منذ الف سنة ، كيف حافظ على
« لغته وتقاليده ، وقولوا لي بعد هذا ان المعاهد الاجنبية هي المسؤولة عن
« كسلنا وعارنا . »

من جملة الترهات التي تطالب سلمى بنبذها لترقية الوطن ، المقامرة
الوخيمة العواقب للفرد والعائلة والمجتمع . في « صوت الام » تحتج باسم ربات

العائلات احتجاجاً شديداً على الحكومة لفتحها مصراعي باب القمار ،
بحجة انها تجني منه دخلاً وافراً تنفقه في سبيل مصالح البلاد :

« لنفرض ان ايراد القمار بلغ العشرين مليوناً ، تحولت كلها الى تحسين
الطرق . فنحن قوم قانون بشوارعنا الضيقة القذرة ، ولا نريد اصلاحاً
« وقتياً وطلائعاً لما عاً يجيئنا من فضلات موائد القمار ، التي يبيع عليها رجالنا
« ضمائرهم وصحتهم وسعة صدورهم وعقولهم ، فيكون ربحنا ، نحن النساء ،
« الشقاء الدائم والحرمان الاليم ! »

بجانب تلك المباحث الثقافية التي حللناها بكل السرعة ، نجد في
« النساء » مقالاتين تقديتين لذيذتين : « مي وكتابها » - يعني ذلك العنوان
مي زياده ، اشهر ادبيات لبنان ، ومؤلفها الجميل « باحثة البادية » - و « كتاب
باز » ، وهو « اكليل غار لرأس المرأة » بقلم جرجي نقولا باز . نجد ايضاً
مقالة شائقة في « وديع صبرا » اشهر الموسيقيين اللبنانيين المصريين ، حيث
تبين سلمى ما بذله من الجهد لاختراع البيان الشرقي ، القادر وحده على
ابرار ادق الالحان الشرقية . وقد ذكرت في تلك المقالة شهادة الاستاذ
الفرنسي لافينياك (Lavignac) ، الذي درس عليه وديع صبرا في باريس ،
على نبوغ تلميذه في الموسيقى الشرقية والغربية .

لسلمى في الالحان الشرقية رأي نجده على اتم السداد ، وقد ابدته في
« موجة السرور الكبرى » . ترى ان معظم نعماتها هائجة للحزن ، ولو كان
موضوعها بعيداً عن عوامل الاسى ، فتقول : « شعراؤنا ينشدون القصائد
« الحماسية ، واطفالننا في المدارس يغنون القدود الوطنية ، ولكن طابع الحزن
« القديم لا يزال في مكانه ؛ فهو من هذا القبيل لازم الوجود . » سلمى موقنة
ان ذلك الحزن الشامل يزيد هممنا الضعيفة وهناً ، بعكس الفرح ، فانه ينعش

(١) البيان بكسر الباء كلمة وضعها يجمع نؤاد الاول للغة العربية في القاهرة للدلالة
على ما ستمه العامة بيانو (piano) .

القلوب ويشد اوتار العزائم . فله درها اذ فاهت بهذه الاقوال الجامعة عمق
الافكار وجمال الخيالات الشعرية المبتكرة :

« اجل اننا في حاجة وجيعة الى السرور والطرب ، ولكن كيف
نطرب ، وكل من حولنا يبكي ؟ لقد تعالى بكأؤنا ، فغطى بنعيبه كل اصوات
« الطبيعة الضاحكة حولنا دواماً . فهذه السماء الزرقاء ، والاشجار المخضلة الى
« مديد من الايام عديد ، وهذه الزراوير المصفرة في اعالي الصنوبر ،
« والطيور المشددة فوق دوالي العنب واغصان التين ، والغدير المهمهم بين
« الاعشاب ، والشلال الصارخ فوق الصخور ، وامواج الهواء المهيمنة في
« الغابات ، كل هذه تنشد انشودة الحياة زاهية طربة ، ونحن وحدنا نبكي !
« ولآدابنا العربية ، بما يتبعها من شعر وموسيقى وانشاء ، اليد القاهرة في
« تكييف نفوسنا على الحزن والانين . ولا عجب ، فآداب الامم صورة حية
« رُسمت فيها مشاهد حياتها على توالي العصور ؛ وهل في حياتنا ، منذ عدة
« مئات السنين ، سوى مشاهد الاسر والذل والفقر والحرمان ؟ »

في « النساء » مقالة تأبين موجهة « الى روح ابي امين » ، وهو احمد
مختار بيهم ، نصير المرأة المسلمة وواضع حجر الزاوية في صرح النهضة
النسائية الاسلامية . قد اعظمت سلمى مآثره الغراء التي اقدم عليها بجسارة
مدهشة ، ثم لامت بعض المفكرين من ابناء دينه ، لكونهم تركوا تلك
الحركة التي انشأها بين اشد المصاعب تموت بموته .

ينتهي ذلك الكتاب الجميل بصيحة حارة ، تحث بها سلمى اهل لبنان
وسورية على السعي النشط والتفاهم الودود ، لترقية الوطن ؛ وهي خير خاتمة
لمقالاتها المشتعلة بنار الوطنية : « اشتغلوا ، اشتغلوا ! الطبيب في طبه ،
« والمهندس في زراعته ، والاديب في ادبه . وعندما نرتاح من اشغالنا ونأوي
« الى بيوتنا ، لنذكر غرسة صغيرة زرناها معاً . . . تلك غرسة التفاهم
« والمحبة . لنسقى من دموعنا ، من دموع فقرنا وجهلنا وذلنا ، ولنحلمها

« في مرتفع لائق ، منظور ، حتى نراها في كل آن ونسمعها تقول :
تفاهموا واتحدوا ! »

تلك مواضع « النسبات » ، جامعةً بدرجة نادرة دقة الوصف ، اصالة
الرأي ، نبل العواطف ، اخلاص الوطنية ، مع تنوع شهبي في المواد ، يزيد
القارىء حرصاً على مطالعتها بحذافيرها .

اما تعبير الكاتبة فهو ممتاز ، على وجه الاجمال ، بما فيه من الوضوح
والانسجام ولا سيما الطبيعية التامة المقرونة بالابتكار الشديد التواتر ؛ ولا
يخفى على الخبراء ان اتحاد تلك المزايا من المعجزات الادبية التي لا يضطلع
بحمل اعبائها سوى النوابع . نكاد نجد ابتكار الخيالات في كل صفحة من
« النسبات » . قد مر بالقراء كثير منها في المقتطفات السابقة ، فنضيف اليها
امثلة اخرى تفكهة لهم : « البحر الغضوب الوثوب اللعوب » ، « الراكضون
وراء الرغيف » ، « الحببات المتمرغة في الوحول » ، « العيش المبطّن بالحريير » ،
« من العناق ما هو خنّاق » ، « الكتب هي الواحات المخضلة وسط صحراء
الحياة » ، « متى ارتفع جبين الفرد ، ارتفع جبين الامة » .

بيد ان صدق النقد يوجب علينا التصريح بان الخطأ اللغوي كثير في
« النسبات » : اغراب بمعنى غرباء ، طابق البيت عوضاً عن طبقة ، كوي
بدلاً من كي ، مهاب وصوابها مهيب ، صالح بمعنى مصلحة ، « العدمية
واللاوجود » المقصود بهما العدم . فضلاً عن تلك الكلمات غير العربية ،
نجد عشرات التراكيب الفاسدة ، من امثال « يمكن للمرأة » ، « تأكد
الامر » ، « ائمن من فلان » ، « اعطوا يعطيكم الله » ، « يتكلم ثلاث لغات » .
مع ذلك العيب نوافق كل الموافقة على رأي جرجي نقولا باز ، الذي
ابداه في مقدمته « للنسبات » ، وهو ان في انشاء سلمى « ريشة مصور ، نغمة
موسيقى ، خيال شاعر ، معرفة عالم ، ادب كاتب ، رأي مفكر » .

القسم الثاني
مقالات عامة على ادبنا العصري

اجمل انواع شعرنا المصري

ان الشعر في كل عصر ومصر - نفي شعر العاطفة النبيلة والفكر السامي والخيال المبتكر الجميل ، لا مجرد الكلام الموزون المقفى - هو اعلى درجات سلم الادب ، بل اشمخ قمم الفنون الجميلة جمعاء ، فيسوغ اتخاذها مقياساً لحضارة الشعوب ، لانه افصح التراجمة عما يختلج في صدورهم .

اجل ان شعرنا الراقي ، الذي يحق لنا ان نفاخر بصفوته اكبر الامم ، لم يكد يلج دور شبابه ، بعد جموده طول القرن التاسع عشر تقريباً في سبات التقليد والانتحال ، وهو مكبّل بالافراط الرنانة الفارغة ، ومحصور في مضيق الغزل التافه والمدح او الرثاء المبتذلين . مع ذلك لقد نبغ بين اظهرنا طائفة من الشعراء المفلّحين ، تدفقت اسمى الخواطر والعواطف من صميم قلوبهم تدفق السيل الجارف من اعالي الرواسي ، فسال الشعر من اقلامهم منسجماً ، حاراً ، طبيعياً ، شديد التأثير ، كأنه فلذة من فؤادهم قد استحات كلمات ساحرة ، او قطعة من حياتهم قد تقمصت الحاناً مطربة ؛ فهم وحدهم جديرون باسم الشعراء ، ومن سواهم نظامون متطفلون .

سندكر في هذه المقالة اهم انواع قريضنا التي فاز فيها بعض المعاصرين بقصب السبق . من جملتها الامثال على السنة الحيوانات ؛ ولا يخفى عن القراء ما قد حواه ذلك النوع من المواعظ اللطيفة والنكات الشائقة ؛ وكلها قريبة الى العقول والقلوب ، لان الانسان مطبوع على الكبرياء ، ينفر اشد النفور من ذم الرذائل في شخصه ، بينما يستحسن التنديد بها في بني جنسه ، وقد مُسخوا حيوانات بكاء بدت فيها بغاية الحيوية عيوب نظائرها الناطقة . من اطول شعرائنا باعاً في ذلك الفن احمد شوقي ، وقد حاول ان ينافس لافونتان (la Fontaine) ، نابغته الخالد الذي لم يترك فيه زيادة لمستريد . اسمعوا مثل شوقي في الاسد ووزيره الحمار :

لليث مُلك القفار
 سعت اليه الرعايا
 قالت : « تعيش وتبقى ،
 » مات الوزير ؛ فمن ذا
 قال : « الحمار وزيري ؛
 فاستضحكت ثم قالت :
 وخلفته وطارت
 حتى اذا الشهر ولى
 لم يشعر اليث الا
 القرد عند اليمين
 والقط بين يديه
 فقال : « من في جدودي
 » اين اقتداري وبطشي
 فجاء القرد سرّاً
 » يا عالي الجاه فينا ،
 » رأي الرعية فيكم
 وما تضم الصحاري .
 يوماً بكل انكسار ؛
 يا دامي الاظفار ؛
 يسوس امر الضواري ؟
 قضى بهذا اختياري .
 » ماذا رأي في الحمار ؟
 بمضحك الاخبار ،
 كليلة او نهار ،
 وملكه في دمار :
 والكلب عند اليسار ،
 يلهمو بعظمة فار .
 مثلي عديم الوقار ؟
 وهيتي واعتباري ؟
 وقال بعد اعتذار :
 كن عالي الانظار ؛
 من رأيكم في الحمار .

خليف بان يذكر بجانب شوقي ، بين مُجيدي الامثال الشعرية ،
 محمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨ . كان من وزراء الخديوي توفيق باشا ،
 وترجم بتصرف امثال ايزوب اليوناني في كتاب « العيون اليواقظ في
 الامثال والمواعظ » . ثم جاء ابراهيم العرب ، وهو اديب مصري معاصر ،
 ففاقه بابتكار المواضيع فضلاً عن عروبة الانشاء وانسجامه ، في مجموعته
 « آداب العرب » ، التي وقع عليها اختيار حكومة بلاده لمدارسها الابتدائية .
 في لبنان قد عرب الاب نقولا ابو هنا الخلصي امثال لافونتان نظماً ، وعلّق
 عليها شروحات لغوية وتاريخية وميثولوجية ، فجاء تعريبه تحفة من تحف

العروبة والبقاة . في فلسطين نشر الشاعر المشهور اسكندر الخوري البيتجالي سنة ١٩٣٨ كتاب « المثل المنظوم » للمدارس ، فاضاف به درراً جديدة الى ذلك النوع من القريض .

الشعر الوصفي الحديث اوسع مجالاً ، اذ لا حد لما يمكن وصفه من الخلائق . مع ذلك لا نرى اربابه ، حتى النوايع ، يتوسعون في تصوير مشاهد الطبيعة مثل زملائهم النثرين . ان في ذلك النقص لعجباً ، فان في جبال لبنان ونيل مصر وصحرائها من بديع المناظر ما قد تبارى في رسمه ائمة شعراء الغرب ومصوريه ؛ فعسى ان تُسد تلك الثمة الشائنة في مستقبل قريب ! على كل حال قد ابدع فريق من شعرائنا في وصف ملامح الاشخاص الجسدية والروحية ، ودقائق الاشياء ولا سيما الحوادث .

كان اسلافهم في القرن التاسع عشر دونهم بمراحل في ذلك الفن العسير . قلما يصفون لنا محيطهم الحافل بانواع الغرائب ، او يصفونه وصفاً سريعاً سطحياً ، او يرونه في تخيلتهم بعيون الاقدمين وبقليتهم ، فلا يصورونه لنا كما هو في حقيقته الواقعة تحت الحواس ، بل بما يقاربه من مشاهدات العرب الذين سبقونا بالف سنة ونيف على سطح الغبراء ، ويعبرون عنه باقوالهم ، وعلى الاخص بتخيالاتهم واستعاراتهم البالية ، الفاتحة منها روائح الانحلال الكريهة .

اما نوايع الوصف الشعري في عصرنا فقد مالوا عن ذلك الانتحال المييد للادب في جوهره ، الى الادب الحي المبني على الحقيقة ومشاهدتها . رأوا ما وصفوه بعيونهم ، لا بعيون غيرهم ، بل قد اطالوا النظر الى تفاصيله ، فأتى وصفهم على جانب كبير من الدقة والطبيعية ، تزيده جمالاً رنة الشعر العربي الموسيقية المطربة . في طليعة اولئك المجددين خليل مطران ، احمد شوقي ، حافظ ابراهيم ، عباس العقاد ، ولا سيما شعرائنا الامير كمين المفلحين ، من امثال ميخائيل نعيمة ، ايليا ابو ماضي ، رشيد ايوب ، ندره حداد ، رشيد

سليم خوري ، نسيب عريضة ، الياس فرحات ، امين مشرق . ها كم وصف
 الياس فرحات لالعا به « بين الطقولة والشباب » ، وهو من القرائد :
 تُرجعني الذكري الى الكساره^١ ، الى مقر الحب والطهراره ،
 الى اجتماعي ببسات الحاره ، نلعب طوراً بالحصى وتباره
 يُشغلني معهن بالصنّاره .
 نقيم فيما بيننا الافراحا ، فنأكل الرمان والتفاحا ،
 ونملاً الكؤوس والاقداحا ماءً طهوراً ، رائقاً ، قراحا ،
 نصبغه حتى يحاكي الراحا .
 وطالما جعلني عريساً واختن احداهن لي عروساً ،
 ثم يُزيّن لها الملبوسا بالريش حتى تشبه الطاووسا
 وتُطرب العيون والنفوسا .
 يصنعن لي شوارباً من صوف يجزّزنها من ألية الخروف ،
 ويتدثّن بالغنا اللطيف والرقص والنقر على الدفوف ،
 وكلها من تنك معروف .
 اما متى اجتمعت بالصبيان ، فشأننا اذ ذاك شأن ثان :
 نقلد الفرسان في الميدان ، لكن على خيل من القضبان
 ملجّمة باوهن الخيطان .
 نسلب طوراً راحة الفراش ، وتارةً نعبث بالاعشاش ؛
 وقبل ان نأوي الى الفراش ، نستطو على الضفدع والخفّاش
 بمدفع من الحصى رشاش .
 وعندما تقلد الافراننا ، نملاً ذلك الفضاضا دخانا ،
 اذ نحرق الاخشاب والبلانا وكل قش جاور المكانا ،
 فنرعب القرية والسكّانا .

(١) اسم ضيعة في لبنان .

ولست انسى شجر الاجاص ، طاعت لنا اثماره العواصي ؛
نمطرها الاحجار كالرصاص ، ولا نبالي قط بالقصاص ،
فالطفل لا يابه المعاصي .

من الذانواع الشعر الوصي واقربها الى العقول والقلوب النوع
الرمزي ، الذي لا يصف لنا الكائنات ، ولا سيما احوال الناس ، مباشرة ،
بل يتدرع برموز طبيعية جميلة مبتكرة ، فتجلي حقيقة المرموز اليه متوجة
بهالة فتاة من الخيالات ، وتمتزج بالاذهان امتزاج الماء بالراح . يسوغ اذاً
عد الشعر الرمزي استعارة مطولة ، ومن ثم يستثمر الى الدرجة القصوى
الفائدة الجوهرية المقصودة من الاستعارة ، نعي الباس الافكار المجردة ،
البعيدة المنال لاكثر البشر ، ثوباً موشى بخيالات عديدة الاشكال والالوان ،
تجعلها شبه مادية حسية ، فتفتح امامها باب العقول بمصراعيه . حسبنا الآن
قراءة قصيدة « الحجر الصغير » التي نظمها ايليا ابو ماضي ، لنقيس طول
الخطوة التي خطاها شعرنا الحديث في ذلك الميدان الجديد :

سمع الليل ذو النجوم انيناً ، وهو يغشى المدينة البيضاء ،
فانجني فوقها كمسترق الهمس ، يطيل السكوت والاصغاء ،
فرأى اهلها نياماً كاهل الكهف ، لا جلبية ولا ضوضاء ؛
ورأى السد حوله مُحكم البنيان ، والماء يشبه الصحراء .
كان ذاك الانين من حجر في السد يشكو المقادر العمياء :
« اي شأن ، يقول ، في الكون شأني ؟ لست شيئاً فيه ولست هباء !
« لا رخامٌ انا فأنجحت تمثالاً ، ولا صخرةٌ تكون بناء .
« لست ارضاً فارشف الماء ، او ماءً فاروي الحداثق الغشاء .
« لست درّاً تنافس الغادة الحساء فيه المليحة الحساء .
« لا انا دمةٌ ولا انا عينٌ ؛ لست خلاً او وجنةً حمراء .
« حجرٌ اغبرٌ انا وحقيرٌ ؛ لا جمالاً ، لا حكمةً ، لا مضاء ؛

« فلاغادر هذا الوجود وامضي بسلام ؛ اني كرهت البقاء ! »
وهوى من مكانه ، وهو يشكو الارض والشَّهْب والدجى والسماء .
فتح الفجر جفنه ، فاذا الطوفان يغشى المدينة البيضاء !
لعمري ان الشعر بحذافيه لمن الكليات ؛ اما الفكاهة وثمراتها
الشهتان ، الضحك والابتسام ، فمن الحاجيات التي لا مندوحة عنها لكل
سالكى طريق هذه الحياة الوعر ، ليسلوا بها مرارة آتاعهم واشجانهم . لم
يزدهل رهط من اكبر شعرائنا عن تلك الحقيقة الراهنة ، فشحدوا قرائحهم
لتفككة بني جنسهم ، فضلاً عن افادتهم ، ولا سيما بوصف الاخلاق السافلة
الذميمة وصفاً متبلاً بملح المزاح اللطيف ، مما يثير شهوة القراء ، فيزيدهم
اقبالاً عليه واتعاضاً به .

نرجح ان الشاعر اللبناني اسعد رستم قد فاز بقصب السبق في هذا
المضمار ، وان شان نظمه احياناً كثيرة التعبير الركيك وفرط استعمال كلمات
عامية من لهجة بلاده . هاكم قصيدته « شيخ سوري وسورية
حاملة كشة^(١) » :

قد كان سوري جليل زائراً ،	اصحابه وبانسهم يتمتع ،
فاذا برية كشة سورية	جاءت وباب البيت قامت تقرر .
هذا ولما الشيخ ادخلها ، وقد	عرضت بضائع كالآلىء تسطع ،
شرعت ، وقد حسبته شيخاً اجنبياً ،	بالسباب وبالشتائم ؛ فاسمعوا .
نسبت اليه كل امر منكسر ،	واليه قد ساق كلاماً يوجع .
قالت له : « يا صاحب الوجه الذي	هو من قفا السعدان حقاً اشنع ،
يا ابن التي عملت وسوت ، يا ابن من	قد كان وادي القرن قبلاً يقطع ،
في كشتي ما ربما تحتاجه ؛	هذا بديع الشكل ، هذا ابدع .

(١) الكشة كلمة من لهجة لبنان العامية ، اصلها لفظة caixa البرتغالية ، وهي تعني صندوق البضائع الصغيرة ، كالابر والخيوط ، التي يجول بها البائعون الفقراء في الشوارع .

لعن الاله اباك ؛ لِمَ لا تشتري
 قد كان ذاك الشيخ يسمع قولها ،
 حتى اذا لم يبق في امكانه
 فمضى لغرفته وعاد وانما
 فغدا يكسرها عليها قائلاً :
 « اني لسوري نظيرك ، عارف »
 قالت : « ايا مولاي ، رفقاً ؛ اني
 وتألمت بالضرب حتى انها
 ان لم تجد احداً لقولك فاهماً ،
 مني فتسعفي ، وماذا يمنع ؟
 لكنه من داخل يتقطع ،
 صبرٌ عليها ، حار في ما يصنع ،
 معه عصاً من سندان تُشبع ،
 « هذي تضرك ثم هذي تنفع !
 في ما حكيت ، ومنك فيه ابرع ! »
 كل الذي قد قلته استرجع .
 لم يبق فيها للسلامة موضع .
 فالله يفهم ما تقول ويسمع .

قد اجاد ايضاً كثير من نوايع شعرائنا نظم الروايات الشعرية ، وفي
 مقدمتهم خليل مطران ، بشارة الخوري ، شبلي الملائط ، معروف الرصافي ،
 الياس فياض . كاد آخر المذكورين يدرك اوج ذلك الفن في « الوفاء عند
 العرب » ، حيث يروي لنا هيام نجل ملك من الامويين على وجهه في التقفار ،
 بعد سقوط ابيه من العرش ، ثم تعريجه على الكوفة ونزوله في قصر احد
 اعيانها ، وايقانه بعد ايام انه قاتل والد مُضيفه الكريم :

عجيباً ساقه القضاء الى بيت الد الخصوم والاعداء !
 كرهت نفسه الحياة ، وقد ضاق بعينيه رحب ذاك الفضاء !
 قال : « يا هذا ، ان حَقَّ عندي واجبٌ بعد هذه الآلاء ؛
 فانا مرشدٌ خُطَاكَ الى خصمك ، اقضي بذاك بعض الوفاء . »
 قال : « من ذاك المرء ؟ » قال : « انا القاتل ؛ فأنارُ واسفك بعدل دمائي . »
 ضحك الشاب ؛ قال : « ويحك ! هل تسأم من طول النأي والاختفاء ،
 فاشتيت الردى ؟ » اجاب : « بل الحق الذي قلته ، ورب السماء . »
 واقام الدليل حتى جلا الشك عن السامعين كل الجلاء .

(١) قد جعل الشاعر اول همزة في « اختفاء » همزة قطع لضرورة الوزن .

فاستشاط الفتي بغيظ وصارت مقلتهاه كالجمرة الحمراء ؛
 هم يقضي عليه في الحال ، لكن حال امرؤ احم دون القضاء .
 قال : « كن ما تشاء ؛ انك ضيفي ، وهو عندي من اقدس الاشياء !
 » لست ، والله ، ناقضاً ذمتي معك ، وقد نلت من طعامي ومائي .
 » ان تكن والذي قتلت ، فعند الله تلتقي الجزاء يوم الجزاء ؛
 » غير اني ارجو ابتعادك ، اذ اخشى من النفس ثورة الاهواء ؛
 فانصرف آمناً . » واعطاه من اوصله سالمأ الى البيداء .
 تلك آباؤنا ، وذاك ثراث المجد منهم بق الى الابناء :
 شرف في سماحة ، وذكاء في وقار ، وقدرة في وفاء !

اما نوع الشعر الذي بلغ فيه المعاصرون اوج التفوق ، فهو الغنائي
 الذي يعده ارقى الشعوب زبدة القريض وحده الاقصى في الجمال ؛ ولا بدع
 بذلك ، فان غايته الافصاح عن عواطف النفس البشرية ، وعلى الاخص
 اسمائها ، فهو اذاً اقدر من غيره على هز نياط القلوب . ليست كالة المذباح ،
 تعيد الاهتزازات الصادرة عن قلب عال شريف ، قد آتاه الله موهبة اثاره
 مجانسيه والسيطرة عليهم ؟ يسرنا التصريح بان شعراءنا الغنائيين قد وفقوا
 الى التعبير الصادق عن كل عواطف النفس وهزوا كل اوتار عودها .

ان الله تعالى ، خالق السماء والارض بكل عجائبيها ، ذو كمال غير
 محدود ، فائق لادراك اسمى العقول ؛ فلا غرو من محاولة بعض اعظم شعرائنا
 الترنم بجلاله المهيّب وجماله الفتان . قد ذكرنا في هذا الكتاب ابياتاً رائعة
 لميخائيل نعيمة^١ ولاحمد شوقي^٢ في هذا الشأن . ها كم ايضاً بعض ادوار من
 القصيدة « الله » للاديب السوري الشهير خليل مردم ، وهي من ابداع ما
 نُنظم لتعظيم الرب القيوم السرمدي :

(١) اعد مطالعة البيتين الذين في آخر الصفحة ١١١ والصفحتين التاليتين -

(٢) اعد قراءة الصفحة ١٢٤ من السطر الثامن الى الثاني عشر .

سبحانك ، اللهم ؛ انك اكبر
حار اليبس وزاغ منك المبصر ،
من ان يحيط بكنهك المتفكر ؛
ورمى فاختطأ سهمه المتدبر ؛
اقصى مدى للعقل فيك تحير ؛ . . .

من شأنك التصوير والانشاء :
هذي السماء صحيفة زرقاء ؛
الفجر حاشية بها حمراء ،
والبدر فوق جبينها طغراء ،
والنيترات على الصحيفة اسطر .

خرت لك الشمس المنيرة تسجد
والبحر مسجور الجوانب مزبد ،
ومن الخشوع جبينها متورد ؛
والموج مصطخباً به يتنهّد ،
امسى يُقيم لك الصلاة ويذكر .

زُحَلْ بقُل الرق عان مُقْمَحْ ،
والبرق طرفٌ للذُجْنَةِ يلمح ،
والرعد يجأر بالدعا ويسبَحْ ،
ومن الغمام له دموع تسفح ،
والرياح من وجد تئن وتزفر .

ديوان شعرك مستفيض بالغُرر ،
الجسم لفظٌ من نشيد مستمر ،
جم القلائد ، من فرائده البشر ؛
والروح ، ان الروح معنى مبتكر
ما زال يستهوي العقول ويهر ؛ . . .

لقد اجاد ايضاً رشيد ايوب كل الاجادة بوصفه في القصيدة
« دُوق ، يا قلبي » انعكاس بعض اشعة جمال الله تعالى في الخلائق ، وشدة توق
النفس البشرية ، الرازحة تحت عبء آلام الحياة ، الى التمتع الابدّي بذلك
الجمال القادر هو وحده على اشباعها :

خلق الرحمان هذه الكائنات
ما ترى الانجم ترنو غامزات ،
وحباها بعض حب ازلي ؛
وهي لولا حباها لم تفعل ؛
وجمال الله فيها ينجلي ،
ذكر الاوطان والعهد اتقديم ؛
شبّت الاشواق فيه كاللهيب
بعدها اضرمها الحب المقيم !

ان عين الحب ليست ترقد ، فهي عين الله بارينا القدير !
هي في الشمس التي تنقد ، وذرى الافلاك منها تستنير .
قلت ، والامواج حولي تنشد ، والسواقي تمنى بالحرير :
« دق ، يا قلبي ؛ فان جاء الاوان » ودعانا الله من بعد الممات ،
« سوف نحيا عنده طول الزمان ، فلنا بعد الردى الف حياة ! »

اذا كان الله تعالى ، بكنهه الفائق الادراك وبكالاته غير المحدودة ،
اسمى موضوع عاجله شعرنا الغنائي العصري ، فالنفس البشرية المخلوقة وحدها
على صورته البديعة ، في هذا العالم الهيولي ، هي ايضا قبله انظار شعرائنا
المفلقين . يحاولون في قصائدهم العديدة المبتكرة ازاحة طرف الستار عن سر
كيانها العجيب ونزعاتها المتناقضة بل المتصارعة على الدوام ، من طموح نبيل
الى السعادة الابدية والفضائل العسيرة المؤدية اليها في معارج وعرة ، كثيرة
الاشواك ، ومن هيام سافل بحطام الخيرات الارضية ، ولا سيما اللذات
الحسية السريعة الزوال كسحابة صيف ، فلا تثروى للانسان غليلاً ولا تُغني
عنه فتيلاً . قد دخل ذلك الميدان الرحيب صفوة شعرائنا ، ولا سيما
الاميركيين ، على ان اكثرهم لم يفهموا كنه النفس ، اذ تدهوروا الى
اقصى دركات المادية الكافرة ، فزعموا ان الانسان ما هو الا الدرجة العليا
في سلم تطور الحيوانات ، وان قواء الروحانية المحضة ليست سوى اسمى
وظائف الدماغ ، فلا تمتاز امتيازاً جوهرياً عن مظاهر ذكاء بعض طوائف
البهائم ، ولا سيما القروء . وان لم يضلوا كلهم ذلك الضلال الفاحش ، فانهم
يفرقون في لجج الارتياب المتحذلق في شأن روحانية النفس ، واهمين انه
اجبى الدلائل على سمو ثقافتهم ، وناظرين شزراً الى من رذل
نظريتهم الفائلة .

نجد بينهم من لا يزلون مذبيين بين المذهبين المادي والروحي ،
منتقلين من هذا الى ذاك بتأثير تقلبات حالتهم النفسية ؛ وفي مقدمة اولئك

الارتياحين الشاعر الشهير ميخائيل نعيمة^١ .

قد ابدع نسيب عربيته ، الشاعر المحصي المهاجر الى اميركة ، في
قصيدته « امام الغروب » ، بالترنم بروحانية النفس وخلودها :
كفأك عنا ، يا فكر^٢ ؛ تعبت بلا طائل ،
فما نحن الا اثر^٣ على الرمل في الساحل .
سنبقى قليلاً هنا الى المد حتى يعود^٤ ،
فيمضي سراعاً بنا الى البحر بحر الخلود^٥ !
اشمس الحياة اغربي ولا تمهليني لغد^٦ ،
فما في الدنيا مطلبي ، ولو عشت عيش الابد^٧ !
اشمس الحياة ، اسرعي^٨ وغبي ، فاذت خيال^٩ !
اشمس الخلود ، اسطعي^{١٠} ؛ اليك اليك المال^{١١} !

نظرب لمثل تلك الالهجة الحارة ، لهجة التوق المضني الى السعادة
الابدية ، التي خلقنا الله لاجلها ، في « الوطن البعيد » من نظم شاعر البرازيل
وشيد سليم خوري ؛ اليكم آخر ابياتها ، وهي اجملها :

ما البرازيل مهجري ؛ ليس لبنان^١ لي حمى ،
ان نفسي غريبة^٢ تشكي البعد فيهما !
انا ما دمت في الثرى وبعيداً عن السما ،
مهجتي كلها جوى ؛ كبدي كلها حنين^٣ ؛
نازح^٤ اشتكي النوى ، دأبي النوح والالين^٥ !

فضلاً عن التغي بروحانية النفس البشرية وعدم ارتوائها من مناهل
اللذات الزائلة ، وعطشها الاليم الى السعادة الدائمة ، قد عبّر نفر من اكبر
شعرائنا تعبيراً بديعاً عن الحرب العوان بين الجسد المنتقاد لشهواته الدنيئة
والنفس التواقفة الى اسمي الفضائل ؛ ولعل فوزي المعلوف صاحب قصب

(١) راجع مقالتنا عليه في الصفحة ١٠٩ وما يلها - (٢) في هذا الفعل همزة وصل .

السبق في هذا المضمار ؟ ها كم قصيدته « عبد وحرّة » :

بين روحي وبين جسمي الاسير كان بُعدُ ذقت مُرَّةً ؛
انا في الترب ، وهي فوق الاثير ؛ انا عبدٌ وهي حرّة !
انا عبد الحياة والموت ، امشي مُكرهاً من مهودها لقبورهِ !
عبد ما تحتوي الشرائع من جور يخط القوي كل سطورهِ
بيراغ دم الضعيف له حبرٌ ونوح المظلوم وقع صريره !
انا عبد القضاء ، عبد هناء وشقاء ، بشيره ونذيره !
عبد عصر من التمدن ، نلهو ضلّةً عن لبابه بقشوره ،
عبد مالي ، اسعى اليه فاحظي بعد طول العنا بوطة نيره ؛
عبد اسمي اذيب نفسي وجسمي طمعاً في خلوده وظهورهِ ؛
عبد حي ، جعلت قلبي مأواه ، فاحرقت اضلي بسعيره ؛
ان جسمي عبد لعقلي ، وعقلي عبد قلبي ، والقلب عبد شعوره ؛
وشعوري عبد لحسي ، وحسي هو عبد الجمال ، يحيا بنوره !
كل ما بي تحت العبودية العمياء في ذا الوجود ، بين شروره ،
غير روحي ، فانها حرّة ، تمشي بروض الخلود بين زهورهِ !

يطول بنا تفصيل الكلام على سائر ضروب شعرنا الغنائي العصري ،
بيد اننا لا نستطيع السكوت عن نوع من اجمل انواعها ومن اسحرها
للقلوب ، الشعر الوطني . انه لنجم جديد ، بديع السطوع في سماء قريضنا
القومي . قبل الحرب العالمية الاولى كادت سيادة سلاطين تركية في انحاء
الشرق العربي تحبس العاطفة الوطنية في اعماق الصدور ، فتمنعها عن
السريان ، بسرعة الكهرباء وقوتها ، الى الاسنة والاقلام . ولكن بعدما
وضعت الحرب الضروس اوزارها ، وكسرت تلك الاقطار نير العثمانيين
الباهظ لها منذ مئات السنين ، وتكونت في مصر ، لبنان ، سورية ، العراق
وشرق الاردن شعوب ودول مستقلة بدرجات متفاوتة ، قد اندلعت نيران

الوطنية من خفايا القلوب . فنشأت آداب وطنية محضة ، عديدة الالوان
والنزعات ، وللشعر فيها مكانة سامية ، تكفلها له رنته الموسيقية المطربة
وسرعة الهابه لافئدة السامعين والقراء ؛ دونكم شيئاً يسيراً من فرائده .
ينشد الياس فرحات معظماً لبنان في قصيدته « موطني » :

موطني يمتد من بحر المياه^١ مُسمِعاً شرقاً الى بحر الرمال^٢ ،
بين طوروس^٣ وبين التيه تاه^٤ بجمال فائق حد الجمال^٥ !
ذكره يُغري فتاه^٦ بالمالي^٧ ؛
انا لا ارضى سواه^٨ ، فهو مالي !

ويصيح ميخائيل نعيمة من مهجره الاميري باخيه اللبناني ، الثاوي في
ارض الحدود ، وقد اهلكت الحرب والمجاعة آلافاً من ابنائها من سنة
١٩١٥ الى ١٩١٨ :

اخي ، قد تم ما لو لم نشأه نحن ، ما تبا ،
وقد عم البلاء ؛ ولو اردنا نحن ، ما عما !
فلا تندب ، فأذن الغير لا تصني لشكوانا ،
بل اتبعني لتحفر خندقاً بالرفش والمعول ،
نواري فيه موتانا !

في « وقفة على البحر الميت » يحاول الشاعر اللبناني انيس الخوري
المقدسي اثارة الوطنية في قلوب اهل بلاده بهذه الصيحة الشديدة :

الى كم نحن اموات^١ ؟ فشح^٢ ذليل^٣ او طلول^٤ دارسات^٥ ؛
كأن الارض لم تثبت رجالاً^٦ ولم تظهر عليها المعجزات ،
وفيها الذين سعوا نعيم^٧ وجنّات^٨ زواه طيبات !
تجلبب غيرنا بالخز فيها ، ونحن لجللنا ابدأ عُرارة ،
كسالى ، راخون لكل خسف ، يطيب لنا التراخي والسبات !

(١) اسم سلسلة جبال واقعة في جنوب تركية .

قد اقتدى به رشيد سليم خوري في ختام القصيدة التي وصف بها فتح
الجيش الانكليزي للقُدس سنة ١٩١٨ :
ان الالى سجد الملوك لبأسهم سجدوا بسوريا امام قبور^٢ !
عجبا لسوري يحقّر نفسه ، والخلق يسجد للتراب السوري !
اذا القينا نظرة شاملة على اجمل انواع قريضنا العصري ، وجدنا فيها
من بدائع الامثال ، الوصف ، الرموز ، الروايات والشعر الغنائي ولا سيما
الوطني ، ما يدل على ان اصحابها النوابع قد فاقوا اكثر اسلافهم في فهم كنه
الشعر الحقيقي ، كما ادركه ارقى الشعوب القديمة والحديثة ، فصاغوا من
قلائده ما خلد اسماءهم في تاريخ الادب العربي وفتن بجماله آلافاً من
اهل اوربة^٣ ناشري التمدن في كل انحاء العالم .

اجمل انواع ثمرنا العصري

يحول ضيق مجال القلم دون الاحاطة باطراف موضوع واسع كهذا ،
يقتضي استقصاؤه كتاباً غزير المواد . فلا مندوحة لنا عن "حصر الكلام في
دائرة ضيقة ، بذكر بعض الانواع الممتازة من ثمرنا العصري ، التي شرع
يجاري فيها آداب ارقى الشعوب على حدائثه عهده . وايم الحق انها لنهضة
يبشرنا فجرها المنبلج بمسمة بل مجيد ، وقد لفت انتظار فئة من علماء
الغرب المستشرقين .

المواضيع الثرية التي برز فيها ادبنا الحديث هي على الاخص وصف
الاخلاق البانعة منتهى الدقة ، بل التحليل لخفايا النفس البشرية ، ثم

(١) قد عد الشاعر فلسطين من اقطار سورية - (٢) اقدس تلك القبور قبورا . السيد
المسيح والعنراء مريم والدته - (٣) سيتضح ذلك للقراء في آخر مقالة من هذا الكتاب .

الخطابة ، ولا سيما الدينية والوطنية ، النقد الصحيح ، الشؤون الفكرية
او الاجتماعية مسبوكة في قالب الخيالات والعواطف لتقريبها الى
اذهان العامة .

قد اخذ ادباء جيلنا عن زملائهم الغربيين عادة الملاحظة المتواصلة
الدقيقة لحركات الناس وسكناتهم ، ثم اقدموا على سبر غور النفوس لتعليل
ظواهرها بالبوطن السكينة ، فكشفوا لنا شيئاً من اقصى خفايا الروح
البشرية ، بما انطوت عليه من افكار واشواق وشهوات ، ومن آمال وجهود
وآلام ، بقدر ما يتسنى لضعف الانسان ان يغوص في لجة كيانه السامي .

بما انه يعسر التوغل في اعماق النفس ، ويسهل وصف مظاهرها
المتنوعة ، البادية لكل ذي عينين ، لا بدع بان نرى في الفن الاصعب عدداً
اقل من النوايع . على كل حال قد مهدوا خلفائهم طريقاً وعرة ، تؤدي بهم ،
ان شاء الله ، الى ذروة ذلك الفن المحدود من اوعر انواع الادب مسلكتاً .
دونكم نموذجاً من وصف يوسف غصوب للبناني المتفرنج :

« المسيو لبنان يلبس القبعة الافرنجية من آخر طراز ، آتية رأساً
« من باريس . يشد وسطه بصُدرة مخصورة ، ويرسل على اعلى صدره من
« جيب الصدرة طرف منديل حريري ، ويحمل خيزرانة يثبتها في المعصم
« بشراية او قد من جلد ناعم . المسيو لبنان يُحفي شاربيه ولا يدع منهما
« الا اثرأ خفيفاً فوق شفة قد يطلّ عليها بالحمرة . يضع على اعلى انفه نظارتين
« ذهبيتين لغير ما اضطرار ، ويرفع رأسه ويجري سريعاً . واذا لقي صديقاً
« في طريقه ، اخى ظهره مراراً ، وادار هامته يميناً وشمالاً ، وقلب عينيه
« وتبسم وضغط يد صاحبه ، واندفق في الآه (ah !) والايه (eh !) ؛
« والسلام باللغة الفرنسية يرسله عالياً ، وقد يلثغ في حرف الرء كما يلثغ
الباريسيون على زعمه . »

حسبكم هذا المثال شاهداً جلياً على دقة تصوير الاديب العصري لما يراه

في محيطه من غرائب الاخلاق . نجد مثل ذلك الاتقان في تحليل الطبائع البشرية عند سليمان البستاني ، انطون الجميل ، جرجي باز ، داود بركات ، الآنسة مي ، نجلا ابي اللمع وغيرهم .

كما اجاد اولئك تصوير ما تسوغ تسميته وجه النفس ، قد ابدع سواهم ، وان اقل عدداً ، في رسم داخل ذلك الهيكل الختفي وراء سحجوف اللحم الكثيفة ، ذلك الهيكل الرائع ، الذي يحوي ، مع ظواهر صغره وحقارته ، الاله الجليل خالقه ، من ضاقت السماوات والارض عن عظمته . لقد وفق نفر من ادبائنا الامثال الى دخول ذلك المعبد ، فوصفوا لنا بعض ما شاهدوه في ظل حناياه ؛ وفي مقدمة هؤلاء النوابغ ولي الدين يكن ، ابراهيم المازني ، امين مشرق ، فليكس فارس ، نقولا فياض ، سلمى صائغ ، مي زياده ، لبينة هاشم . اليكم شيئاً من وصف سلمى لعواطفها الوالدية نحو طفلتها الخارجة من ظلمات حشاها الى غياهب هذه الحياة الخافلة بالمتاعب والرزايا :

« يا حلاوتك عندما دببت وعندما شببت ، بل قبل ان وُلدت ! عندما تمللت لأول مرة قرب فؤادي ، فاحدثت في نفسي ثورةً قلبت بلحظة كياني وحولتني من ولد خلي طيار الى كائن مثقل بالحنان والحب . »
« وعندما وثبت الى الحياة ببيديك الورديتين وعينيك المغمضتين الجاهلتين معنى الحياة والوجود . وعندما اتوا بك اليّ ، فاخذتك الى صدري ، على نور الزيت الضئيل ، ناظرة الى عينيك وجبينك وفك وانفك وخديك وكل اعضائك المتناهية في الدقة والليان ، وقائلةً في نفسي : « هي لي ، هي لي ! » »
« وعندما كنت اسقيك مذوّب قلبي ، وارك تمنين يوماً فيوماً بما تمتصينه من ماء حياتي . كم تلذذت في تلك الساعات الطويلة ، وسكنت نفسي امام هيكلك حبك ، متمنيةً لو اعطيتك كل ما في نفسي من قوة وكل ما في كياني من حياة ! وعندما فطمت فبكيت صدري ، فلمست اول هموم الحياة ! »

ها كم وصف فليكس فارس ما هن نفسه من الافكار السامية
والعواطف النبيلة بين خرائب هيكل بعلبك الشهير :

« قبالة هذه الآثار المتهمة اقف كل يوم لاستقبل الشمس ، وهي
« تضيف على الاعمدة الثابتة قبلة جديدة الى الملايين التي لثمت بها جوانبها
« من قبل . بازاء هذه الجدران الهائلة اقف مودعاً كوكب النهار ، وهو
« يموه احجارها بنوره المصفر . عند هذا الهيكل ، ابن الاعصار الطوال ،
« اقف انا ابن الامس ، وكلانا نشخص امام عوامل الطبيعة ، وهي تتابع
« سيرها بنظام واحد وبحركة واحدة ، على الحي المنهزم امام السنين والجماد
« الراسخ في وجه العصور . يلذ لي ان اناجي هذه الاطلال البوالي ، فاستعير
« لها نفساً من انفس الشعوب التي فنيت بظلمها ، واخطب رسمها العافي باشرف
« ما يخاطب الانسان بالانسانية والشاعر بالشعور . اخطب بالذكر والتأمل
« ذلك الجرم الغفير الذي اصبح عفرأ تطأه الارجل ، وقلمنا ينبض لذكره
« قلب ! كثيراً ما وقفت على تلك الآثار المبعثرة المكسرة ؛ كثيراً ما احنيت
« الرأس متأملاً في تلك الذرات المبددة ، وما هي الا رماد العصور البعيدة ...
« لقد وُصف البناء من قبل هندسةً وقياساً ، وقد كُتب كثيراً عن تاريخه
« ايضاً . اما انا فألج باب هذه الفخامة المدمرة ، ليس كالمهندس الحامل
« مقاييس وحبالاً ، ولا كالمؤرخ ، تحت ابطه كتاب افتراضات غيره ، بل
« تحليقة تعرف حقارتها امام عظمة الكون ومفاعيل الزمن . ادخل بنفس
« تحب ان تمجد خالقها لدى آثار الزوال السكابتة على العفر « وهو الباقي ! »
« ادخل بقلب خفقاق ونفس تريد ان تشعر ، فاقف امام الخرائب كالحياة
« المتجددة امام الموت الشامل ؛ امر امامها كمرور الاجيال امام هيكل الحب
« الذي اخلفته الايام ولم تدمره ! تأمل في كل سرداب وباحة ورواق ، فلا
« افتكر بطول هذه ولا بعلو تلك ، بل اقابل ما بين هذا البنيان والطبيعة
« الجامدة ؛ اقابل بينه وبين الجبال والامواه والاشجار . اقيس بمقياس

« التأمل بين كلمة الخلق ومحاولة البشر . اقابل هذه الضخامة بحقارة من شيدها وزال . . . »

اما وصف الاشياء ، ولا سيما مشاهد الطبيعة ، بما يقارب دقة التصوير ، فلا يزال نادراً عندنا . مع ذلك قد برع فيه خليل مطران ، عباس العقاد ، فليكس فارس ، لبينة هاشم وغيرهم . ها كم وصف مطران للمكس :

« هي إحدى ضواحي الاسكندرية ، قليلة المساكن حقيرتها ، تمتد « سلسلة ابنتها مستطيلةً بين شاطئ البحر والرمل . الهواء فيها جاف بقي « والبحر شديد الخفوق ، لا يمل من مداعبة الصخور بمثل خشونة « الضواري في تداعبها . والمنظر على الجملة بديع في مطلع الشمس وفي مغربها ، « وللشمس فيها تجليات باهرة خلال الغمام ، وللغمام تشكل وتلون فانتان ، « وللأفق تألق عجيب في ترتيب قدر المنطقة التي يتحزم بها ، وابرازها في « ابداع زينة ، بين الوردي فالبنسفي فالفسقي فالزمردي فالازوردي « فالسجابي فما بينها من الألوان التي تلطف اجتماعها وتزيده بهاءً على « التنويع . ومن محاسن المكس ان الحكومة مهمتها ، فهي من اجل هذا « لم تزل قطعة من الطبيعة يعيش فيها الانسان كما يحب ان يعيش المجتمع طالب « الراحة . فاذا مر في طريق ، فالطريق غير ممهدة ولا مستقيمة ولا محفوفة « بصفين من الشجر يحجبان النظر ، كما تحجب عيون الخيل التي تجر « المركبات . بل هي ضيقة فواسعة ، صاعدة فمنحدرة ، ومليئة فجرجية ، « محتدة فمنعطفة ؛ فيها للسائر ما لا يألفه ، فيستجده في كل آن ؛ وفي ما حولها « من المسافات المفتوحة ما ينطلق معه النظر على مدى البحر الفسيح تارةً ، « وعلى مدى الرملة الوعساء طوراً . . . »

« اما الامر الثاني الذي استوقفني وشجاني فهو ما رأيته ، على كتيب « ممتد شبه القتب بين البحر وبين طريق الترام^١ ، من المدافع القديمة ،

(١) قد عني السكاتب بهذه السكامة الحافلة ، التي سماها الفرنسيون tramway او tram .

« ادوات الدفاع عن مدخل الثغر . تدل مراكز هذه المدافع على انها كانت
« منصوبة وراء القتب كما تنسّق الابر في ورقتها . وكلها من الطراز الضخم ،
« اذا اقبل عليها الناظر من بعيد ، ظنها بعض الوحوش الضارية من اسد
« ونمر وفهد . فاذا دنا منها ، لم تزُل مهابتها من قلبه ، ولكنه رأى الموت قد
« مد عليها كفناً من اشعة النهار وانداء الليل ، ثم طبع عليها اصابعه ، فهي
« منقطة بنقطة صفراء نحاسية وخضراء طحلبية على قشر عاتم صايد .
« ومنها ما انكسرت له ساق فانقلب على جانبه ، ومنها ما اصابت به ضربة في
« شفته فانشقت والتوت ، ومنها ما ادلى بعنقه الطويل الى التراب ، كأنه
« يعضه في احشائه . منظر موت وخراب وعار ! دنوت من هذه الاشياء ،
« وانا اسيف ، ارسل النظرة الى الغيب ، فارى بها امم الشرق كلها مجمعة ،
« تدب دبيب الحشرات ، لاصقة الجباه بالارض من الضعف والجبن ودناءة
« المطالب . واطلق الزفرة من صدري ، فأؤبن بها مجداً عظيماً ملاً العالم زمناً ،
« ثم دفنه ذووه في بعض زوايا الترك والاهال ، ووكلوا الى الذين ابتلوا به
« قديماً امر البحث عنه وجلاء آثاره التي غالها الصدأ وغشها نبات التسيان ،
« حتى نخرها الى الصميم . واذرف العبرة فابكي سماء انطوت تحت الجلباب ،
« ونجوماً غارت في التراب ومعالماً عامرة صارت الى تباب ! »

من فروع وصف الاخلاق والحوادث الروايات القصصية والتمثيلية .
اكثرها معرب بتشويه الاصل في الغالب ، كتعريب مصطفى المنفلوطي لبعض
روايات برنردان ده سان بيار (Bernardin de Saint-Pierre) وادمون
روستان (Rostand) . اما الموضوع منها في لغتنا فلا يصور معظمه اخلاق
اهل الشرق العربي المعاصرين ولا حوادث جيلنا ، كأنه على هامش حياتنا .
مع ذلك نرى تباشير نهضة ذلك النوع من الادب في مؤلفات بعض النوابع ،
ومن ابرعهم محمود تيمور المصري ، الذي نجد في رواياته القصصية العديدة
وصفاً دقيقاً لاخلاق اهل بلاده .

ترقي العلوم الاجتماعية في الشرق العربي ، ولا سيما في مصر ، قد اغرى فئة من نوابغ النائرين بمعالجة مواضيعها ، ليس على الطريقة العلمية ، القائمة بسرد الافكار المجردة الجافة ، بل على اسلوب الادب ، الذي يستعمل الخيالات والعواطف بصفة اجنحة رشيقة ، تطير باسمي الافكار وابعدها منالاً الى عقول عامة القراء ، فتلجها من اقرب ابوابها .

ان اختلاف العناصر الجنسية والدينية والطائفية في الشرق الادنى ، مع دوام تصادم مصالحها ، وافتاق الطبقات المتوسطة بل السفلى من سباتها العميق الذي دام عصوراً ، قد اسفرا عن مشاكل اجتماعية ، شديدة الكثرة والتعقد ، فهبت لحلها طائفة من المفكرين اغنت ادبنا العصري بنوع جديد من اغزر انواعه وافيدها المجتمع . وان تضاربت آراؤهم في هذا الميدان الذي قلما خاض اسلافهم معامعه ، فان نور الصواب هو ، كشرار الضوان او الكهرباء ، وليد الاحتكاك . في طليعة الممتازين بذلك الفن القشيب داود بركات ، سليمان البستاني ، جرجي زيدان ، عباس محمود العقاد ، فليكس فارس ، فيليب حسي ، نقولا فياض ، الياس الايوبي ، فكري ابازة ، محمود ابو العيون ، امير بقطر ، سامي الجريديني ، توفيق حبيب .

من اصعب المشاكل الحيوية التي حاول حلها الادباء الاجتماعيون ترقية المرأة الشرقية ، ولا سيما المسلمة ؛ وقد وقف المفكران المقدامان قاسم امين وجرجي نقولا باز صفوة مواهبهما وجهودهما على نشر تلك الحركة النسائية ، وكان لبعض اشهر الادبيات قسط وافر في رواجها السريع ، ومن زعيماتهن ملك حفي ناصف وهدى شعراوي المصريتان وليبية هاشم اللبنانية .

اليك نموذجاً بديعاً من ذلك الادب الاجتماعي الحديث ، وهو صفحة لفيليب حسي ، من نوابغ مفكري الشرق العربي ، يعلل فيها عدم اتحاد اهل سورية تعليلاً جامعاً عمق الفكر وطلاوة التعبير ؛ قد غنى بكلمة سورية

سورية الحامية ولبنان وفلسطين ، لانه كتب هذه المقالة قبل الانقسام
السياسي الحاضر :

« بفضل موقع البلاد الجغرافي بين القارات التي انشأت التمدن القديم ،
« ولانها موطن الديانات اليهودية والنصرانية والاسلامية ، اصبحت سورية
« مسرحاً للقتال وجسراً مرت عليه جيوش الغزاة الفاتحين ، من تحوتمس
« المصري ونبو كدنصر البابلي الى الاسكندر المقدوني وبومباي الروماني
« وتيمورلنك التتري ، فريموند الصليبي و نابوليون الفرنسي . ولذلك تعددت
« فيها الشعوب والمذاهب وتبلبلت الانس ، ففويت الروح الفردية وضعف
« الميل الى التعاضد والوثام ، ولم تتمكن الاممة من مماشاة الامم الحديثة
« والسير بموجب مقتضيات التمدن الحديث . تلك هي المعضلة التي يجب على
« كل طالب ان يدركها ويسمى ، متى كبر ، حلها . فان لم تعود احترام رأي
« الغير ، ونحن صغار ، ونتمرن على الاشتراك في العمل والخدمة الاجتماعية ،
« فلا امل لنا ، ونحن كبار ، بالقدرة على التعاون والرغبة في خدمة المجتمع .
« ان لم نتعلم في المدرسة وفي العائلة امثلة التضحية في سبيل الغير والخير
« العام ، فلا يُرجى منا ذلك ، ونحن كبار . »

هاكم الآن قسماً من محاضرة في غاية التربية ، القتها الكاتبة
الاجتماعية الشهيرة ليبة هاشم في الجامعة المصرية في القاهرة :

« نعم ان من الامراض ما هو موروث كبعض المناقب والشوائب ،
« لا يمكن شفاؤه بمجرد العناية الجسدية ، على انه كثيراً ما يكون مرض
« الاطفال وموتهم مسببين عن جهل الامهات قوانين الصحة ، فانه يُستدل
« من الاحصاء الرسمي ان عدد الوفيات يزداد في الاطفال زيادة مطردة على
« نسبة تأخر الاممة وجهلها قواعد التربية الجسدية . ويسوءنا القول ان
« معدل موت الاطفال في القطر المصري اكثر منه في سائر اقطار العالم ،
« وفي ذلك دليل واضح على ان فن التربية مجهول عندنا تماماً . ولا غرو ،

« فنحن نرى فتياتنا وشباننا يقدمون على الزواج ، وكلهم 'يجهل' الواجبات
 « الوالدية تمام الجهل . فالشاب المتعلم لا يعرف سوى العلوم التي التقطها في
 « المدرسة ، او الصناعة التي يشتغل بها للقيام باوده ؛ والفتاة اما ان تكون
 « امية جاهلة ، او عارفة بالتطريز والعزف على البيانو والتكلم بلغات الاعاجم .
 « فاذا ما رزقا اولاداً ، حاراً في كيفية تهذيبهم واخذاً يخبطان في تربيتهم
 « خبطاً قد يودي بحياتهم ويفسد اخلاقهم ، حتى اذا مات احد منهم ، قالوا
 « هذا عمره » ، ومن عاش مسقوماً ، سيء الخلق ، رديء السيرة ، قالوا
 « تلك قسمته » . وهكذا يقتل الآباء والامهات اجساد اولادهم ونفوسهم
 « وآدابهم ، لقلّة اختبارهم وتعرضهم لمهنة لم يسبق لهم علم بها ولم
 يستعدوا لها . . . »

من اصعب المشاكل الاجتماعية التي لا تزال في انتظار الحل الجازم
 المرضى ، في كثير من اقطار الشرق العربي ، معضلة السيادة القومية المطلقة .
 وقد انتج اكباب نفر من اعلام ادبائنا على معالجتها فناً جديداً في ادبنا
 العصري ، وهو الخطابة الوطنية . لا مرأى في انها من مبتكرات حضارتنا
 الحديثة ، التي سمت بعقول المصريين ، السوريين ، اللبنانيين ، والعراقيين
 وغيرهم من الشعوب الشرقية الى ادراك معنى الوطن ، وبقلوبهم الى التضحية
 والاستماتة في سبيله . فنهض بينهم خطباء مفوهون ، من امثال مصطفى باشا
 كامل وسعد باشا زغلول المصريين ، يلقون على الخاصة والعامة خطبهم المشعلة
 في الصدور حب الوطن والتوق الحار الى التهاك على رفع شأنه ؛ وقد سجل
 التاريخ ان هذين البطلين قد وضعوا بفصاحتها الرائعة وعزمهما الفولاذي
 اساس استقلال ارض الفراعنة ذات العز التالذ والطريف . ها كم نموذجاً
 من بلاغة مصطفى باشا كامل الآخذة بمجامع القلوب ، كأنها نيران منداعة
 من فوهة بركان :

(١) في هذا التعميم مبالغة واضحة .

« مهما قال القانطون اني اعرض نفسي للدمار في سبيل امة لا يُرجى لها النجاة ، وان الخطيب بين المصريين انما يخطب في الصحراء ، لا يُسمع له قول ولا يُجاب له نداء ، فاني ارى ان اليأس من مستقبل مصر »
« ضرب من ضروب الجنون ، واعتقد ان الامة المصرية لم تُخلق عبثاً في الوجود ، واعلم ان الوطنية الحقيقية تقضي على صاحبها ان يعمل لامته في وقت شقائها اكثر من عمله في وقت عزها ورخائها ، وان يضحي بكل نفيس لاجل سعادتها ، لينال الشرف الحقيقي في حياته والمجد الابدي بعد مماته . ولذلك عاهدت نفسي امام الله وامام الناس ان اجعل حياتي هبة »
« لبلادي ، وان ابذل في سبيل سلامة هذه الديار قصارى الجهد ، مهما لاقيت من المتاعب وصادفت من المصاعب . ويعلم الله انه ، لو انتقل فؤادي من الشمال الى اليمين ، او تحولت الاهرام من مكانها المكين ، لما تغير لي مبدأ »
« ولا تبدل لي اعتقاد ، بل تبتقى الوطنية رائدي ونبراسي ، ويبقى الوطن كعبي ، ومجده غاية آمالي . . . نأخذ من المدينة الغربية زينتها وزخرفها »
« ونترك الوطنية ، وهي اساس تقدمها ودعامة حياتها ووجودها . انترك فضائلنا الاولى وتنسى مبادئ ديننا ، ونطوي صُحف التاريخ بما فيها من الحكم الباهرات والعظات البديئات ؟ اتكون مصر وطناً لنا ، واللغة العربية لغتنا ، والاسلام ديننا ، ونكون آخر الامم واحط الشعوب ؟ . . . »
« لقد آن لكم ، يا بني مصر ، ان تهبوا من رقدتكم وتنبهوا من غفلتكم »
« وتجمعوا كلمتكم وتضموا اصواتكم ، وتأخذوا بيد الوطن الذي يسألكم من عميق هاوية المذلة ان ترفعه الى اسمى مقام . اما ترون كيف يُعجب اهل الارض قاطبةً اشد الاعجاب باصغر الامم ، اذا اجتمع ابناؤها حول راية الوطن وصدوا عنه المعتدين ؟ . . . »

اسمعوا الآن هذه المقتطفات من خطاب سعد باشا زغلول ، عند عودته سنة ١٩٢١ من انكلترة ، حيث دافع اشد الدفاع عن دعوى استقلال وطنه

المصري العزيز :

« اريد في وسط هذه المظاهر الهائلة ان اوجه شكري وثنائي الى
« الذين اشتركوا في تأسيس مجدتنا وتوفير سعادتنا وانعاش آمالنا . اتوجه ،
« والخشوع يملأ جوارحي ، الى تلك الارواح الطاهرة ، ارواح اولئك
« الابطال الذين نادوا بالحق ، والحق مُنكر ، ففاضت ارواحهم ، والسنتهم
« تردد ذلك النداء ؛ فاضت وقد شرفونا باقدامهم ، والزموا الكل باحترام
« مصر واسمها ، وبيضوا وجوهنا ! والآن فليناموا هادئين ، فقد انبلج فجر
« الاستقلال مضمخاً بدمائهم ، وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء !
« يبيّض الله برحمته اجداثهم ، واسكنهم جنات العلاء ، وارضى عن اعمالنا
« ارواحهم ، واراوحهم بتحقيق آمالنا ! لله در الشبيبة ما فعلت ، فانها قد
« فتحت ما ضمت صدورها من كنوز الفتوة ، وملأت قلب البلاد عزّة
« وحماسة ، وملأت رؤوسها حكمة ، وملأت حرركاتها نظاماً . تلك الشبيبة
« التي هي عماد الحركة الحاضرة ومبعث انوارها الساطعة ، اشكرها شكراً
« جزيلاً ، وارتاح جداً لان المستقبل سيكون بيدها ، وهي يد ماهرة .
« اشكر العلماء والفقهاء الذين باتحادهم ابطلوا حجة في يد الخصوم ، طالما
« اتخذوها سلاحاً قاطعاً . ازالوا الفوارق واثبتوا ان الديانات واحدة تأمر
« بالدفاع عن الوطن ، وانه ليس لها تأثير الا في عبادة الخالق - جل وعلا -
« اما في الوطن فالكل سواء . واشكر ايضاً الامراء الذين حملهم ما ورثوه
« عن آبائهم من المجد والفخار ان ينزلوا الى صفوفنا ، وينضموا الى التاجر
« والصانع والزارع والعامل وكل من يخفي تحت تلك الثياب الزرقاء والبيضاء
« نفساً كريمة وقلباً ابياً . انضموا الى هذه الصفوف لاجل ان يستحقوا
« بعنوان آخر ذلك المجد الذي ورثوه عن الآباء ، فشكراً لهم ثم شكراً !
« والحق ان كل انسان من المصريين قد قام بالواجب عليه ، وكل نافس اخاه
« في القيام بهذا الواجب وزاد عليه ، ليكون ممتازاً على اقرانه بشيء في خدمة

« الوطن العزيز ؛ فكلكم شاكر وكلكم مشكور . ومن مجموع هذه المساعي
« سارت قضيتنا الى هذه النقطة الحاضرة ، فاننا لما قلنا ان الحماية لاغية ،
« اعلن الانكليز اليوم انها ليست باقية ، واطهروا استعدادهم لاستبدالها
« بعلاقة اخرى راضية . والفضل في هذا الفرق العظيم لسعيكم ، لا لسعيي ،
« ولتتمسك بالمبادئ السامية ؛ فاهنأوا بما نلتهم واثبتوا ، حتى تفوزوا
بالاماني الباقية ! »

بجانب ائمة الخطابة الوطنية قد نبغ بعض ادباء جيلنا ، من اعضاء
الاكليس الكاثوليكي ، بفصاحة مواعظهم الممتازة بعمق الافكار وكثرة
الخيالات وحرارة التقوى ، والمزدانة بحلية العروبة المحضة ؛ في مقدمتهم
الاسقفان الملكيان جرمانوس معقّد وغريغوريوس الحجار . اليكم صفحة من
عظة لاولهما على الموت :

« انظروا هذه الحفرة ، فهي مسكن زيد ، صاحب الاملاك الواسعة
« والاثروة الوفيرة التي تفاني في جمعها ، ثم تركها ورضي منها مكرهاً بقيد
« ذراعين ! اترون هذا اللحد ؟ فهو مأوى عظام رجل شرير مات قتيلاً .
« وامامكم قبر رجل قبيح السيرة ، فاجأته المنية وهو منغمس في حمأة
« الشهوات . وهناك رمس مثراب سلب كثيرين اموالهم بما اخذه منهم من
« الربا الفاحش ، ثم مات ولم يرد المسلوب وترك امواله لبنينه ، فانفقوه في
« وقت قصير على الملاهي والمسكرات . اترون ذلك الجذث الحقير ؟ فهو
« مسكن عظام رجل كان يعاقر المسكر ويلازم العشرة الرديئة ، فمات وهو
« سكران . انظروا تلك المدافن الضخمة ، فهي مأوى رفات الذين سادوا
« وشادوا ، وسلبوا ونهبوا ، وافرطوا في متابعة الشهوات واللذات ، ثم قضوا
« ولم يُقْضَ لهم وطر ! هذه ارماس السادة وهذه اجداث العبيد ، وكلهم في
« الفناء متساوون ؛ ساوى بينهم الردى والغى الموت الامتياز بينهم . إلتفتوا
« الى هذا اللحد المفتوح ، وشاهدوا هذه العظام النخرة البالية ، فهي ما بقي

« من ذلك الهيكل الانساني البديع ؛ فالى مثلها انتم صائرون ؛ فكيف
« تفرحون بالدنيا ولذاتها ، وهذا مصيركم ؟ وكيف تركضون في طلبها ،
« وهذا محط رحالكم ؟ افتحوا عيونكم ، ايها الغافلون ، وابصروا . فالى
« متى تتناسون الموت ، والموت يجري وراءكم ، وتظنون بهيداً ، وهو اليكم
« اقرب من الحاجب الى العين وادنى من قاب قوسين ؟ »

هاكم شطراً من العظة البديعة التي القاها الاسقف غريغوريوس
الحجّار في كاتدرائية الملكيين في رحلة ، يوم ٨ حزيران ١٩٣٩ ، بعد
ختام التطواف بالقربان المقدس في انحاء تلك المدينة :

« محبة الله تدفعه نحو خليقته الناطقة التي هي نحن ، لانه رأى فيها
« صورته واحبها ، كما قال الكتاب ، محبة ازيلية . وقد خلقنا نحن ايضاً
« للاتحاد به ؛ لذلك يرينا الكتاب المقدس البارئ - جل وعلا - يتحدث في
« الفردوس بكلام رمزي مع آدم قبل السقطة . ولما جاءت الخطيئة وفصلتها ،
« وحجبت الخالق عن خليقته ، بقيت الانسانية تتألم بوحشة هائلة ، وتعاني
« الم الجوع والظلم الى الهما ، وملأت الفضاء اينثاً وصياحاً نحو السماء لتمطر
« الصديق ، ولم يُضعف جوعها وعطشها مرور الايام وتوالي العصور .
« فلم تكن الوثنية على قبحها الا مظهراً من مظاهر تلك الرغبة الشديدة ، اي
« شهوة اتصال الانسانية بخالقها . فلما تجسد ذلك الاله المنتظر ، اتحد
« بطبيعتنا اتحاداً فردياً ، فاصبح لنا اخاً نأنس به . اتظنون ذلك كافياً لنا
« ولله ؟ ان حب الله لم يقل كلمته الاخيرة !

« تألم ومات على الصليب فداءً للانسان الذي احبه : « هكذا احب الله
« العالم حتى بذل ابنه الوحيد ! » افتثري الحب الالهي قال كلمته الاخيرة
« بذلك ؟ لا ، ايها الاخوة . ان الحب يريد اتصالاً اتم ؛ يريد الاتحاد بكل
« ما يستطيع الحب من الوسائل . فتصوروا الآن حباً غير متناه ، تخدمه قوة
« غير متناهية ، حباً يريد الاتحاد بمن يحب ، اي بنا ، وقوة تستطيع ان

« تمهد له كل سبيل وتذلل كل صعب . فهل من عجب ان تكتسح تلك القوة
 « كل شرائع الطبيعة بما تعجز عنه مدار كنا الضعيفة ؟ لذلك عمد الحب
 « الالهي الى تجسد آخر يزيد به تنازلاً ، مُفرغاً ذاته كما يقول الرسول ،
 « لا ليأخذ صورة عبد ، له جلاله وجماله وكمالاته وحر كاته الفتانة ، بل ليكون
 « جامداً ، لا حراك ولا مظهر له من مظاهر الحياة ! ففي ذلك العشاء السري ،
 « بينما كان بنو البشر يكيدون له المكاييد اللثيمة الخبيثة لكي يمتوه ، كان
 « هو يفكر بان يهبهم الحياة ويهبهم اياها يوفور اشد ، كما قال الكتاب وكما قيل
 « اريد حياته ويريد قتلي ! » لذلك عمد الى كسرة من الخبز والى قليل من
 « الخمر ، وبذلك الصوت وتلك القوة اللذين قالوا للكائنات « كوني » ، فكانت ،
 « امر بان يصير الخبز جسده والخمر دمه ، وشاء ان يبقى على تلك الصورة ،
 « ليذكرنا محبته الدائمة ، اذ قال : « اصنعوا هذا لذكري . »

النقد الادبي الذي لا يرتكز على اساس واه من التأثيرات الشخصية
 المختلفة باختلاف اذواق الافراد ، بل على قاعدة راسخة من اصول الادب
 الصحيح ، الثابتة بجوهرها عند كل الشعوب المتعدنة ، القديمة والحديثة ،
 ذلك النقد الجامع حقيقة العلم وجمال الادب لا يزال عندنا في دور الطفولة .
 مع ذلك قد برز فيه فريق من جهابذتنا المعاصرين ، وفي طليعتهم طه حسين
 وعباس العقاد وابراهيم المازني في مصر ، سليمان البستاني ، ميخائيل
 نعيمة ، انيس الخوري المقدسي ، انطون الجميل والآنسة مي بين ابناء لبنان ،
 قسطنطين الحصري وشفيق جبري و خليل مردم في سورية . ها كم صفحة
 نفيسة من نقد طه حسين لنثرنا في العصر الاخير :

« في الحق انك حين تقرأ هذا النثر الذي كان يكتب في الشرق
 « العربي في اول القرن الماضي ، لن تشعر بالفساد الفني الادبي وحده ،
 « ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ما تقرأ من المعنى القيسم وباعداد هذه العقول
 « التي يترجم عنها هذا النثر . وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه

« العقول وفقرها من الفساد الغني الذي يتصف به النثر العربي في كل العصور
 « التي ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية . لا يخدعئك ما ترى من هذه
 « الزينة اللفظية والبهرج البديعي والبياني ، من سمع وتكلف في الاستعارة
 « والمجاز ، وفي التشبيه والكناية والتورية وما إليها . فليس هذا كله الا
 « تكلف المعدم البائس ، يريد ان يظهر مظهر الغني المثري . انها مثل هؤلاء
 « الكتّاب الذين يتكلفون الوان البديع والبيان في غير فائدة ولا جدوى ،
 « مثل هذه المرأة ، اعوزها الجمال الفطري ، فهي تتكلف الزينة ، واعوزها
 « حُرّ الجُلَى ، فهي تتخدع الناس ببهرجة زائفة . ومن هنا تستطيع ان
 « تلاحظ ان النتيجة القيّمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي ، انها
 « هي اطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية . وهو لم يطلقه من هذه
 « القيود عبثاً ، وانما اطلقه منها ليمنحه هذا الروح القوي الذي مكّنه من
 « ان يستقل بنفسه ويستهيوي العقول والالباب قليلاً قليلاً . وهذا الروح
 « القيم الذي بث الحياة في النثر العربي ، والقي عنه هذه الفائض البالية التي
 « كانت تثقله وتوقه عن الحركة ، انها هو المعنى ، وهذا المعنى انها جاء من
 « الحياة العقلية التي انشطها العلم والفلسفة في القرن الماضي . وليس ادل على
 « صدق ما نقول من انك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته
 « من هذه الاغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجأة ، وانما كانا رهينين بوجود
 « الصلة ونموها بين الشرق والغرب ، اي بين العقل المعدم والعقل الغني . »
 إسمعوا الآن نقد قسطاكي المحصي المتبّل بالفكاهة لتقفية اكثر شعراء

جيلنا آثار اسلافهم النواخ في القريض ، بدون ادنى ابتكار وطبيعية :
 « ليس قصدي الخط من قدر الشعر القديم او طريقتة ، فذلك بما لم
 « يدثر في خلدي ، وقدره فوق ذلك ، غير انه من حقه ان يصبح كسائر
 « العاديات النفيسة ، فيحتفظ به وينافس فيه تخليداً لفضل قائليه وتأريخاً
 « لاحوالهم في تلك العصور . واما نهج منهاجهم بعينه وتحدي كناياتهم

« وتعبيراتهم فيها يمجج الذوق في هذا العصر . واقرب منه تكليفك احد
« الشعراء العصريين اللابس آخر زي من لباس اهل باريس البالغ منتهى
« الرشاقة ، ان يتزيا بزي البحتري مثلاً ، فيضع على رأسه عمامة كأنها
« غمامة ، ويلبس سراويل تسع جثة فيل ، ويرتدي جبة تدخل في احد
« اكمامها قبة ، اذ ما الفائدة او اللذة من اتيان الشاعر المصري او الحلبي
« بذكر الاظعان والموادج ، والتشبيب ببنت الحي وربها والتغزل بخمارها
« وخلخالها ، والبكاء على رسم طلولها الدارسة ، والشوق الى المياه والمناهل،
« وتذكر الاحبة عند خفوق البرق ، الى ما اشبه ذلك من الامور التي
ذهب زمانها . . . »

قلنا ان اجمل انواع ثرنا الوصف ، ولا سيما وصف الاخلاق وتحليل
بواطن النفوس ، المباحث الاجتماعية ، الخطابة الوطنية والدينية ، النقد
السديد الجسور . يلوح اول وهلة ان تلك الانواع لا رابطة بينها سوى
انتمائها الى الادب ، بيد ان من امعن النظر فيها لا يلبث ان يكتشف بينها
قاربة وثيقة . وهي كونها ، على اختلاف اساليبها ومراميها ، مركزة
كلها على مراقبة الاشخاص والاشياء والاحوال ، بقصد التعمق في فهمها
والتمييز بين خلوها وخمرها . وغاية ذلك التقصي هي واحدة ، نفي ترقية
مستوى الشرق العربي في احواله الدينية ، الخلقية ، الادبية ، الاجتماعية
والسياسية . فيسوغ التصريح بان الادب العربي دائب في عصرنا على اقتباس
مادته من صميم الحياة ليستطيع اصلاح الحياة ، بعدما ظل في دور الانحطاط
الطويل ميتاً ، ملفوفاً بكفن التقليد والانتحال للادب الحي القديم ؛ فحسبه
الآن مجدداً يشرنا بقرب قدوم دور ذهبي من اجمل ادوار آدابنا .

انحطاط النقد الادبي عندنا

قد بلغ فن النقد من عهد عهد اوج الكمال بين ارقى الشعوب الغربية ، فاصبح لآدابهم بمثابة رقص الساعة ، ينظم سيرها تنظيمًا مطردًا . فلا يظهر مؤلف ذو شأن الا تناوله الناقدون وحلوله تحليلًا موضوعيًا دقيقًا ، مميزين غثه وسمينه ، ومقدمين للجمهور نتيجة خفصهم في اشهر الجرائد والمجلات . على هذا الاسلوب يظل الغرب في مستواه الرفيع وتتوقف الناشئة المتأدبة تنقفاً قويمًا ، يؤهلها لاخذ قسطها في المستقبل من الادب العالمي العالي .

اما عندنا في الشرق العربي ، فلا يزال النقد وليدًا مقهطًا . ناقدونا البارعون من امثال ميخائيل نعيمة في لبنان وطه حسين والعقاد والمازني في مصر ، يكادون يُعدون على الاصابع ، بل كثيرًا ما نراهم كالصارخين في البرية ، فان معظم ادبائنا يُصمون آذانهم عن سماع انتقادهم السديد ، ناقلين عليهم احتقارهم للادب الزائف ، الكثير الرواج في بلادنا ، ورامين ايام بالتفرنج والتطرف والميل بالادب العربي البحت عن منهجه القويم الذي سلكه منذ اقدم العصور . انما الطامة الكبرى كثرة المتطفلين في مجالس النقد ومكاتبه ، المدعين التضلع من اصوله ، وهم يجهلون بها جهلاً مركباً ، الجامعين ذواتهم قضاة في دولة الادب ، وهم احري الناس بان يقفوا في محاكمها ناكسين رؤوسهم ، لسماع حكم الثقاة الجازم على عمايتهم .

ما الذي سبب للنقد العربي تلك العثرة الشائنة ، وبأي ذريعة يسوغ امل اقالته منها ؟ نرى ان علة هذا الزلل الجوهرية ضعف شديد مزدوج في العقل والارادة ؛ اليكم بيان ذلك ببعض الاسباب .

الضعف العقلي هو جهل اكثر ادبائنا العصرين ، حتى المشاهير ، قواعد الادب الصحيح ، التي خضعت لها ارقى آداب العالم المتحدين ، من اليونانيين والرومان القدماء الى اسمى الامم الحديثة حضارةً ، كالفرنسيين ،

الانكليز ، الالمان ، الايطاليين ، الروس وغيرهم . تلك القواعد ثابتة في جوهرها ، لا يمسهما انقضاء الزمان وتنوع المكان بادنى تغيير ، فهي من هذا القبيل شبيهة بنواميس الطبيعة التي سنّها وثبتها الخالق القدير . يسوءنا التصريح بان ادبنا المصري لا يزال في جُملته حائداً كل الحيداد عن تلك السنن الدولية القويمة ، بل منكراً ايها كل الانكار ، ومدعيّاً بسذاجة الاطفال المضحكة ان له سنناً اخرى مختصة به ، فيتقيد بها سائراً في طريقه بمعزل عن امدن الشعوب .

ما هو دستور هذا الادب الشاذ ، كأن اربابه من غير بني آدم ، بل جُبلوا جبلة وحيدة في نوعها ، فلا نظير لها على الكرة الارضية ؟ يسوغ لنا تحديده بكلمتين ، لا غير : ادبنا المصري على وجه الاحمال ادب لفظي ، تقليدي ، ولا مندوحة عن ايضاح ما انطوى في ذينك النعتين .

هو ادب لفظي . نغني بذلك ان جُل اهتمام اكثر ادبائنا محصور في تنميق جُملهم ، لا في سداد المعاني وجدتها وجمالها . حسبنا دليلاً على ذلك ان العدة التي يُعدونها لدخول ميدان الادب لا تقوم في الغالب الا بدرس النحو والصرف وعناصر اللغة ، فيتوهمون انهم على اتم التأهب لاحتراز قصب السبق في النثر والشعر . لم يدر كوا ان كل مقتناهم هو مادة الادب ، لا روحه ، فهو بمثابة الريشة في يد المصور او العود بين انامل العواد ، هيهات ان يغنيهما عن التضلع من اصول التصوير او الموسيقى .

ليت شعري من من اولئك الادباء اكب على درس قواعد الادب ، كما يفعل رصفاؤهم الغربيون في الكليات ، بل في المدارس الثانوية ، فقد وُضعت لتلاميذها مئات من الكتب النفيسة لتأقيفهم ، على اسلوب نظري وعملي ، اصول فن الادب العسير ؟ اما نحن فنجتزئ بتعليم طُلابنا في بعض المعاهد اصول البيان والبديع ، التي لا تكاد تتجاوز حدود المحسنات اللفظية ، فلا توقف الطالب على لباب الادب المغذي للنفوس ، بل على قشره الذي يروق

العيون بالوانه الزاهية .

فلا بدع ، وحالتنا هذه ، بان نرى كثيراً من ثُقادنا ينعمون النظر على
الاخص في المبني دون المعنى . ينتبهون كل الانتباه لصحة التعبير وحظه من
العروبة المحضة ، وقلما يميزون الرغوة عن الصريح في جوهر منتقداًتهم ،
نعني الافكار والعواطف ، المبادئ والنزعات ، كأنها جديرة بان تلتقي في
زوايا الاهمال . اسمعوا ما قاله ابراهيم عبد القادر المازني - وهو من ائمة النقد
في جيلنا - عن عبّاد صنم اللفظ اولئك : « اليس احدنا بمعذور ، ان هو
» صرخ ، وبه من سانح اليأس خاطر : يا ضيعة العمر ! اقص على الناس
» حديث النفس ، فيقولون « ما اجود لفظه او اسخفه » ، كأنني الى اللفظ
» قصدت ، وانصب امام عيونهم مرآة للحياة تريهم ، لو تأملوها ، نفوسهم
» بادية في صقالها ، فلا ينظرون الا الى زخرفها والى اطارها ، هل هو
مفضض ام مذهب . »

من ذلك الشغف المفرط باللفظ دون المعنى قد نجمت فيلولة آراء اكثر
الناقدين في تقديم . الكلمات البسيطة المأنوسة لا تروقهم مهما شقت عنه من
اسد الافكار واعمقها واجدّها ، او من اسمى العواطف واشدها وارقتها .
امارنة الالفاظ الحوشية بل المباشرة ، وان كانت افرغ من يد القابض على
الهواء ، فانها تشنف آذانهم وتسحر الباهم ، كأن كلمات اللغة قد وضعت
لذاتها ، لا لتأدية ضمير الكاتب الى القارئ على اوضح الطرق واسرعها ،
او كأن الكتابة الادبية المثلى ضرب من الالغاز الغامضة ، لا يدرك خفاها
سوى المتلغز .

يضلون ايضاً ضلالاً فاحشاً اذ يعدون الحشو بكل انواعه من اجل
حلي الانشاء ، جاهلين ان التعبير ثوب المعاني ، فلا بد ان يفصل على قدرها ،
بدون اطالة ولا تقصير ؛ لولا ذلك لبات الكلام الادبي ثرثرة باطلة ، مما لا
يطاق في الحديث اليومي المبثذل ، حتى بين الاميين . اليس عاراً كبيراً على

ادبنا التاهض ان يلتب مصطفى لطفي المنفلوطي بامير النثر ، وذلك في مصر ، مركز هذا الادب في العالم العربي ، مع ان انشاءه قد بلغ من فرط الحشو الحمل ما لا يترك زيادة لمستزيد ؟ فتحنا الجزء الثالث من كتابه « النظرات » ، لنورد برهاناً على صحة رأينا . وقع نظرنا على الصفحة ١٨ ، فوجدنا الحشو لمتها وسداها ؛ دونكم نموذجاً منه : « احب ان يمر بجميع الطبقات » ويخالط جميع الناس ، ويدوق مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء « وشقاء الاشقياء ، ويسمع باذنه انات المتألمين وزفرات المتوجعين . . . لتنمو » في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الاخ على الاخ ، « ويرحم المسكين رحمة الجسيم للحميم . » في بلاد الغرب لا يُغض النظر عن مثل هذا الذوق الفاسد في فرض تلميذ صف متوسط ، حتى في المدارس الابتدائية .

من اكبر الشوائب الناتجة عن ايشار الالفاظ على المعاني ، المبالغة الفاحشة في التعبير ، والحال ان اكثر ثُقادنا لا يرونها وصمة شائنة ، بل زينة فاخرة ، يُعجبون بها ويطرئون صاحبها ، مع انها كافية ، هي وحدها ، لتسقطه من عين ادباء الغرب ونقدتهم . ها كم بعض الامثلة على تلك المغالاة الطفلية في انشاء طائفة من اشهر كتابنا العصريين . قال حافظ ابراهيم في رثاء مصطفى باشا كامل ، منشئ الحزب الوطني المصري :

فيا نيل ، ان لم تجر بعد وفاته دماً احمرّاً ، لا كنت يا نيل جارياً !

يصف نجيب الحداد قطار السكة الحديدية هذا الوصف المستهجن :

فطيرٌ بلا جناحٍ وطودٌ بلا بقا وبرقٌ بلا جو وهاد بلا فكر .

يصور لنا مصطفى الرافي فرط حزنه منشداً :

ولي زفراتٌ لو تجسم حرها ، لاصبح شمساً في الفضاء ثنير .

لقد اوضحنا ان عامة نقادنا ، ما عدا بعض النوابع ، ينحرفون بنقدهم

(١) ليست هذه الكلمة بمعنى جناح كما توهم الشاعر .

عن مهبوع الصواب لان جوهر الادب في نظرهم هو اللفظ المزخرف ، المحض
العروبة ، لا المعنى السديد العميق المبسك الجميل . فضلاً عن ذلك يخطأون
خطأ كبيراً بزعمهم ان الادب فن تقليدي ، لا يحصى له عن التقيد المطلق
بأساليب ائمه القدماء في اللغة وانواع الادب و كيفية معالجتها . ذلك رأي
فائل عقيم ، ينكره جهابذة الغرب كل الانكار ، فانه يحول الادب الى
شبه مومياء محنطة ، فيقتله قتلاً ، مع انه في الحقيقة فن حي ، نام كسائر
الاحياء ، يتحتم عليه ان يماشي اهله في كل عصر ومصر ، ويترقى بترقي
حضارتهم ، ويتكيف بتكيف مميزاتها ، فيصبح صورة صادقة دقيقة ،
يستشف من ورائها الخلف ما اضمره السلف من افكار ، واهتمز به من
عواطف ، ورمى اليه من مقاصد .

بعكس ذلك الرأي الصائب في كنه الادب نرى اكثر نقادنا يُجولون
الاديب المقلد المنتحل ، الجاعل مثله الاعلى في حذوه حذو الاقدمين ، كأن
الادب ضرب من النسخ مع بعض التصرف الزهيد ، لا ابتكار في
المعاني والمباني .

عامة نقادنا يعتننون السكاتب العصري في شأن اللغة ، فلا يأذنون له
في زيادة ادنى شيء على عناصرها القديمة ، المسجلة في القواميس . يجهلون
- وبعض الجهل اثم - ان اللغة كائن حي ، يولد كبقية الاحياء ، ثم يتعرعرع
الى ان يبلغ اشده ، وفي الختام يشيخ ويهرم ، فيموت بموت الشعب الناطق
به او بغير ذلك من عوامل الزوال . لم يخطر البتة ببال اولئك الجامدين
المتحذلقين ان العرب ، الذين لا يفتأون يفتخرون بالانتماء اليهم ، لم يروا
رايهم هذا الفائل ؛ ولولا ذلك لما اغنوا لغتهم الاصلية بآلاف من
الكلمات والتعبيرات المبتكرة اللبقة ، فجعلوها من اغنى اللغات . اذا سلم
نقادنا - ولا مندوحة لهم عن ذلك - بما طرأ عليها من التطور الشديد في
القرون الحالية ، فبأي منطق يُنكرون عليها مثله في عصرنا ، وهو عصر

انبعاث ادبها وترقي حضارة العالم العامة الى مستوى لم يحلم به اسلافنا ؟
كيف يُجيزون العربي البدوي ، الذي عاش ومات منذ مئات الاعوام ، ما لا
يجيزونه لابن جيلنا من التصرف المعتدل في اللغة العربية ، مع المحافظة على
جوهرها وقواعدها ؟

قد احتج الغوي الشهير جبر ضومط على ذلك الضلال الشائن والتعنيت
المنكر بقوله ؛ ونعم القول : « الذين يحاولون ابقاء اللغة العربية على ما كانت
» عليه في الفاظها وعباراتها وهيئات تراكيبها ، لا يسمعون بزيادتها بوجه
» من الوجوه ، لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق ، هؤلاء ينادون بان اللغة العربية
» قد ماتت او شاخت . وان انكروا ذلك وسلّموا ، كما هو الواقع ، بان اللغة
» العربية لغة حية نامية ، فعدم رضاهم بزيادة مفرداتها ، لا بالاستعارة ولا
» بالاشتقاق ، تصريح واضح بانهم يسمعون بكل مُمكنتهم الى اماتها . ولا نعلم
» اذلك من محبتهم لهذه اللغة الشريفة ام من بغضهم لها . »

محافل الغرب الادبية واللغوية تُعنى اشد العناية بمجارات اللغة في
تطورها البطيء المتواصل ، فتجعل في معاجمها ، المتجددة طبعتها بين آونة
واخرى ، مكاناً رحباً لما جرى على السفة القوم او اسلات الاقلام الفصيحة
من مبتكر الالفاظ والتعبيرات ، وتعمل ما اضحى مُماتاً منها في انشاء النوايح .
اما مؤلفو قواميسنا الحديثة فانهم ، بعكس ذلك ، يحرصون اشد الحرص على
تدوين كل شوارد اللغة القديمة ، ولو اصبحت الآن نسياً منسياً - وفي ذلك
ما فيه من الفائدة لاستجلاء غوامض اقدم الآثار الادبية - على انهم لا
يراعون حقوق التطور ، فيأنفون من تسجيل العناصر الجديدة في لساننا ،
ولو حفلت بها مؤلفات خيرة كُتّابنا العصريين . اين الصواب من ذلك
التعنيت المفرط ؟ الم نُخلق في القرن العشرين الا لنحذو حذو القدماء ،
فيحظر علينا ان نتصرف في اللغة تصرفهم المعتدل فيها ؟
فضلاً عن حصر اللغة الحالية ضمن حدودها العبيدة ، يدعي اكثر نقدتنا

تقييد قرائح ادباء جيلنا بالوان الادب التي عالجها القدماء ، وذلك تضيق
بل اسر مذل ، يخنقها خنقاً . هنا ايضاً ، لو تبصروا في الامر ، لايقنوا
ان العرب كانوا ارحب منهم صدرأ ، فقد توسعوا في مذاهب الادب ،
وزادوا تفسحاً فيها بعدما خالطوا فئة من ارقى الشعوب ، فهدوا له عدة
مناهج جميلة لم يسلكها جدودهم قط . فلماذا ينقم النقاد على ادباء هذا العصر
إقدامهم الحميد على شق طرق جديدة لادبيهم ؟

نظم القدماء جمل شعرهم في المدح ، الرثاء ، الغزل ، الهجو ، الحماسة ،
الزهد ، الحكم وبعض انواع الوصف ، ونرى التطور بادياً للعيان في تلك
المواضيع وكيفية معالجتها . فبأي حق يقيد النقاد شعراء جيلنا بتلك الانواع
من القريض دون سواها ، غير آبهين لما طرأ على محيطنا وثقافتنا ، ومن ثم
على افكارنا وخيالنا وعواطفنا ، على اشغالنا وهمومنا ونزاعاتنا ، من
الطوارئ العديدة ، التي لا بد ان ينطبع ادبنا ، ولا سيما شعرنا ، بطابعها
الخاص ، ليكون ادباً مقتبساً من صميم الحياة ، لا من صفحات الكتب ،
بحيث ترسم فيه ، بكل الوضوح والدقة ، ملامح نفوسنا للاجيال المقبلة ،
كارتسام ارواح الغابرين في ادبيهم ؟

لقد بلغت العاطفة القومية الوطنية في الاقطار العربية ، على عهدنا ،
مبلغاً من الحرارة لا مندوحة عن ظهور اثره في آدابنا ؛ ذلك ما نراه في كثير
من قصائد فحول شعرائنا : خليل مطران ، حافظ ابراهيم ، عباس العقّاد ،
ميخائيل نعيمة ، الياس فرحات وغيرهم . افيئد ابتداع الشعر الوطني خروجاً
على الادب القديم ، ام بالاحرى تكملة له وتوسيعاً لمناهجه ؟

قد اهلل الاقدمون من ضروب الادب الرواية التمثيلية ، التي برع فيها
الرومان واليونانيون ، رواد التمدن الحديث وقادته ، فاقتفى آثارهم مئات من
صفوة ادباء الغرب في القرون الاخيرة . افيحول إحجام العرب دون طرقنا
هذا الباب من ابواب الادب الراقى ، مع ما فيه من جليل الفائدة لتثقيف

الاخلاق وبث المبادئ السديدة والعواطف النبيلة ، فضلاً عن كون تصويره
للشخص والحوادث بالغاً من الدقة والحيوية ابعد حدودها ؟
نكتفي بدينك المثلين لبيان شطط اكثر نقادنا في اصرارهم على تضيق
نطاق الادب العصري وحبسه في دائرة المواضيع القديمة ، فنباشر وصف
تعنيتم القاسي في شأن التعبير الادبي .

قد اعلن اولئك المحافظون الفلاة وجوب التقيد ، ليس بلغة الاقدمين
قط ، بل باساليب تعبيرهم ايضاً ، وعلى الاخص بما الفوه من ضروب التشبيه
والاستعارة ، فرموا الكلام على عواهنه ، وادعوا تحويل قريحة الكاتب
العصري الى شبه آلة نسخ او تصوير لما فاضت به قرائح اسلافه من آلاف
المبتكرات الرائعة في الافصاح عن مكنونات صدورهم بأنهم الحرية .

وصف النسيم بكونه عالياً هو بلا مراة ابتداع كاتب قديم ، شبه
ضعف هبة النسيم وبطء سيره بخور قوى مريض وتمله في مشيته ، فراج
ذلك التعبير الجديد اشد الرواج لما فيه من حسن الابتكار وكمال الطبيعية ،
فتداولته الالسن والاقلام ، ثم اندمج في مُعجم لغتنا ، ولم يخطر ببال
معتز متحذلق ان يعيب ذلك الكاتب الجسور لاضافته الى العربية تعبيراً
غير مألوف . من البديهي ان آلافاً من التعبيرات الشائعة عندنا منذ قرون ،
لم تكن حين نشأتها سوى موايد قريحة راو سريع الخاطر او كاتب ميّال
الى تجديد المعاني والمباني ، فراقت السامعين او القراء ، وامتزجت بسائر
عناصر اللغة امتزاج الماء بالراح . بذلك الابتكار الصادر عن المرأة وسلامة
الذوق قد اغنى اسلافنا القاموس العربي بآلاف التحف . فكيف يسوغ
لنقادنا الجامدين ان يوصدوا في وجهنا باب الابتكار بعصراعيه ، ويرمونا
بتهمة التفرنج الكاذبة ، اذا عن لنا ان نقول « النسيم الكسول او
الطائش او المرح » ، كما قال احد القدماء « النسيم العليل » ؟ نسبة الغلة الى
النسيم ما هي الا استعارة ؟ فلماذا لا يحق لنا ان نعزو اليه الكسل او الطيش

او المرح ، على الوجه ذاته ؟

الا يفهم النقدة ان الصاق العلة بالنسيم على الدوام دون سواها ، كأنها داء عضال او ضربة لازب ، يُفقد ذلك التعبير صبغته الادبية ويشينه بالابتذال ؟ اما حان لنا ، نحن ابناء القرن العشرين الموسوم بسمة اعجب الاختراعات كالطيران والاذاعة والتلفزة ، ان ننفخ نفخة الابتكار المنعش في آلاف من التعبيرات المبتذلة ، كالجمال الشاحنة ، الحداثق الغناء ، الزهور النضيرة ، الحلل السُّندسية ، الجرائد الغراء ومئات امثالها المحنطة البالية ؟ اما آن لنا الاعراض عن تشبيه المصائب بالسهام ، وعمل المنية بنشوب اظفار السباع ، والقامة الهيفاء بغصن البان ، والغواني بالبدر او الظبية او المهابة ؟

الا يرى نقادنا الطغاة ان جعل التقليد سُنَّة للادب ، تم انواعه وعناصر اللغة بل اساليب التعبير ذاتها ، هو الحكم المبرم على الادب بللموت الزؤام ؟ فله در شاعر النيل حافظ ابراهيم حين انشد في احتجاجه على جمود اكثر شعرنا - ورايه صائب ايضاً في شأن جُل ثرنا - هذه الابيات الجميلة :

حملوك العناء في حب ليلى	وسلّمي ووقفه الاطلال ،
وبكاء على عزيز تولى ،	ورسوم راحت بين الليالي ؛
واذا ما سموا بقدرك يوماً ،	اسكنوك الحال فوق الجمال ؛
آن ، يا شعر ، ان تفك قيوداً	قيدتنا بها دُعاة الحال ؛
فارفعوا هذه الكجائم عنا	ودعونا نشم ربح الشمال ؛

لقد اوضحنا ان اول عوامل انحطاط النقد عندنا هو جهل عامة اصحابه اصول الادب الصحيح ، التي تجاهر وتعمل بها ارقى الشعوب . يرون معظم ادبنا المصري لفظياً تقليدياً ، فيرضون عنه ويعظمونه ، عادين شينه زيناً وتقصه الفاحش كلاً . واذا تجاسر ناقد حصيف على دك صروحه المتداعية لانها مبنية على الرمل ، لا على الصخر الراسخ ، نسبوه الى التفرنج واوسعوه ذمّاً وشتماً . ذلك ما سميناه ضعف العقل ، والطامة الكبرى انه

يزيد في الغالب وبالأبقتانه بضعف آخر ، وهو ضعف الارادة ؛ اليكم بيان ذلك بغاية ما يُستطاع من الإيجاز .

إذا صح ان كل كاتب مقيّد بواجب سام ، وهو ان يقوت العقول والقلوب ويُنمي قواها الغريزية بغذاء صحي سائغ كامل ، فذلك الفرض المقدس اشدّ تحتماً على الناقد ، لان وظيفته تحليل تلك الاطعمة الروحية تحليلًا صائبًا دقيقاً ، يُبعد الجمهور عن فاسدها ويحثه على تناول اجودها . فهو يقترف اثماً كبيراً نحو عامة الناس ، اذا خان ضميره ولم يقيم بتلك المهمة سعيًا وراء مصالحه الشخصية السافلة .

يعز علينا التصريح بان مئات من نقادنا يرتكبون بتعمد تام وعلى سبيل العادة تلك الجريمة الشائنة ، لان غايتهم الوحيدة وكعبة مطامعهم ليستا رفع شأن الادب الحقيقي العالي ، وتأمين تغذية النفوس الجائعة الى الحقيقة الصرفة والجمال المحض ، بل المتاجرة بالادب ليربحوا وراء ستاره الركيك الشفاف كل ما يتسنى لهم ربحه من الاصفر الرّفان والشهرة الزائفة ؛ فبُنست التجارة كساد الادب في الشرق العربي - وهو من الامور الاكيدة التي لا يختلف فيها اثنان - يفضي بكثير من كُتّابنا الى حصر همومهم في المتاجرة باقلامهم . اما الناقد منهم فهو اشدّ زللاً في ذلك المزلق ، لان مادته في الغالب جافة ، مجردة ، قليلة الجاذبية لعامة القراء . فاذا كان رائده المال والشهرة ، سلّط على نقده الشهوة الجاححة العمياء ، لا العقل السديد والارادة الشريفة النزينة ، فجاء نقده مصاباً في جوهره بداء عضال ، هيئات ان يُرجى له شفاء .

مظاهر تلك التجارة النقدية عديدة ، فنخص بعضها بالذكر لكونها اوسع انتشاراً واوخم عاقبةً من غيرها . المظهر الاول هو الاكثار الى حد الافراط الفاحش من النقد السطحي ، الذي لا يقتضي وقتاً طويلاً ولا جهداً متعباً في فحص موضوعه والتمييز الدقيق بين غثه وسمينه . تلك الطريقة حيلة

يتذرع بها الناقد التجاري لايهام الجبال السندج ان علمه وافر وخطوره سريع ، بيد ان هذه الحيلة لا تجوز على الخبراء المتضلعين من اصول الادب المحض والنقد الصحيح .

اذا عمد الناقد التجاري الى نقد احد الادباء الاقدمين ، فانه يربأ بنفسه ان يقضي النهار ويحبي الليل طول عدة اسابيع في قراءة مؤلفاته وسهر غور معانيها ومبانيها ، بحيث لا تخفى عنه خافية من حسناتها وسيئاتها ، فيتسنى له ان يرسم للعامة ، فضلاً عن الخاصة ، صورة صادقة لمميزات ادب ذلك الكاتب . بل يكتفي بالمطالعة السطحية لجزء يسير من تلك المصنفات ، ربما لم يتجاوز عشرين ، ويُبدي رأيه في فن ذلك الرجل منتحلاً اقوال بعض الشرقيين او المستشرقين فيه ، مختاراً منها ما راقه ، اذا وجدها متناقضة ، فيأتي نقده سخيفاً ، مشوهاً ، بعيداً عن الحقيقة ، عاجزاً كل العجز عن انارة الازهان ورفع مستوى الادب الصحيح في اقطارنا .

اذا توخى نقد اديب معاصر ، فانه يتحاشى ايضاً عن الاكباب على مطالعة كتبه والتنقيب عن مزاياها ومعانيها ، لما في ذلك من وعورة المسلك وبذل الجهد المضني ، الذي لا يؤول به الى كسب مال اوفر ولا شهرة اوسع في نظر عامة الناس . فضلاً عن ذلك الكسل الذميم والاستخفاف بواجبه السامي ، يرى ان الاوفق لتأمين مصلحته الشخصية الدنيئة ، ان يتقيد برأي الاكثرية ، يميلقها ويحظى برضاها ، فيحذو حذوها جبناً وطمعاً ، ويلقب احمد شوقي بامير الشعراء ومصطفى المنفلوطي بامير النثرين ، مجاراةً للجمهور ، وان ثبت لديه انها بعيدان عن الجدارة بذلك التعظيم .

من جهة اخرى لا يتجاسر على كشف اكبر النقائص في مؤلفات اديب عصري ذي نفوذ وسطوة ، وان اختلفت فيه آراء الناس ، لئلا يكون عُرصة لسخطه وانتقامه ، فيصبح في موقف الجندي الملوغ ، الذي لا يجروء على مهاجمة عدو شاك السلاح ، بل يلوذ بالفرار من وجهه ،

مفضلاً الاستئساد السهل بازاء خصم بعيد او ضعيف ، لا يخشى منه ادنى ضرر او مقاومة .

ربما قسرتة جبانته التجارية ، في نهاية الامر ، على تقييد كل كتاب جديد والاعضاء على اكبر عيوبه ، من باب الاحتياط التام ، انقاء لما قد يجره عليه النقد الصادق الجسور من المضار ، ولا سيما ان هذا النوع من النقد الخليق وحده باسمه ، بضاعة شرعنا نستوردها من الغرب منذ نحو اربعين سنة ، وهي لا تزال نادرة وقليلة الرواج في اقطارنا . نستشهد على صحة قوائنا هذا ما كتبه جرجي زيدان عن ارباب الصحافة : « اذا ورد عليهم كتاب ، وان كان موضوعه تافهاً ، فانهم يشعرون بوجوب مدحه ، خصوصاً اذا جاءهم صاحب الكتاب بنفسه وحرضهم على مدح كتابه ، التماساً لرواجه . وقد يكتب اليهم في هذا الشأن ، يستحثهم ويستنهض همتهم لتقريظ الكتاب ، تنشيطاً للمؤلف . والغالب في الصحف ان « تجيب الطلب حياءً من المؤلف وتنشيطاً له وجرياً على عادة الجمالة في كل شيء . وقد عرف القراء ذلك ، فاصبحوا لا يعتمدون على اقوال الجرائد في تقريظ المطبوعات . وعذر ارباب الصحف في تلك الجمالة ان المؤلفين « لم يتعودوا الصبر على سماع الانتقاد ؛ واكثر ما يظهر من المؤلفات قابل للنقد « بالنظر الى حداثة عهدنا في التأليف . فاذا اراد صاحب الجريدة انتقاد كل كتاب يرد عليه ، ضاق وقته واثار عليه العداء ، حتى من اعز اصدقائه ؛ « وما من صاحب جريدة او مجلة الا وقد وقع في ذلك . »

قد تبلغ المداهنة وخيانة الواجب في الناقد التجاري حد التزلف المذل وتعفير الجبين امام اساطين عالم الادب او غيره ، لاستعطاء حمايتهم القديرة . ترويجاً لبضاعته الحقيمة وخدمة لمصالحه الشخصية التي تفوقها حقارة . فيأتمر بامرهم ويتقيد صاغراً بنهيمهم ، مضحياً برأيه ، بل بالصواب الساطع لعينيه وبحقوق الادب الصحيح ، مع ادعائه بذل ذاته في المناضلة عنها ،

منادياً كالبيغاء بما يروونه سديداً ، وان كان في نظره بعيداً عن السداد بعد
الثرياً عن الثرى .

نلك اشواط التزلف والتذلل الشائنين التي يجربها الناقد التجاري ،
لفرط حرصه على الاصفر الرنان والشهرة الزائفة ، واطناً تحت قدميه
الواجب المقتضي منه ان يكون في ميدان الادب رائداً يهتدى بهديه ونبراساً
يُستضاء بنوره ، وغير حافل بالآمال المعقودة عليه في هذا الشأن الخطير .
ولا بدع بذلك ؛ فكيف يستطيع عبد شهوتي المال والمجد الباطل ، الامارتين
بالسوء ، ان يقود الناس ، وهو هائم على وجهه في مجاهل الغواية ؟

قال السيد المسيح - عز وجل - ان الاعمى اذا قاد مثيله ، فكلالهما
يسقط في حفرة ؛ هذه الآية الكريمة قد تحققت في كثير من ققادنا . قد
عموا او تعاموا عن اصول الادب والنقد المحضين - وهذا ضعف في العقل -
ثم امالوا نظرهم عن واجبه العظيم الى إشباع اهوائهم الدينية المتهمة ؛ وذلك
ضعف في الارادة اشنع جداً من الاول . فاذا يتوقع الادب العربي المصاب
بتلك الداهية المزدوجة الدهياء ، من اوائك القادة العميان غير حمية آماله
المعلقة بالذين كان يحق له ان يرجو من مساعيهم التنزية الحثيثة اقالة عثراته
العديدة ورفع شيناً فشيناً الى مستوى ارقى الآداب ؟

واجب إبراز تحف أدبنا المصري للغرب

قد تشكى غير مرة بعض نوابغ المستشرقين الغربيين من كون أدباء الشرق العربي لا يهتمون البتة باطلاعهم على جواهر أدبنا الحديث . هاكم ما قاله في هذا الشأن العلامة الألماني الشهير كمبفماير (Kampffmeyer) سنة ١٩٢٨ ، في مجلة مدرسة اللغات الشرقية في برلين : « لا نكاد في بلادنا » نسمع أسماء مشاهير من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم . . . وكثيرين « غيرهم من أعلى قادة الرقي العقلي في الشرق العربي المصري ، على أن هذا « العالم العربي هو من زمن بعيد ، وبدرجة لا نقل عما هي عليه في ترقية ، « في تطور شديد ، مندفعاً إلى الامام ، وهو الآن على الاخص في اشد « اختبار ، في توتر وجهاد القوى القومية والحضارية التي تعبّر عن ذاتها في « الأدب أكثر التعبيرات تنوعاً وخطورة . ارى اننا نجد اوفر اللذة « والفائدة بالتمعق في درس تلك القوى وذلك الأدب ، في تفهم وتقدير تلك « النزعات الشديدة ، القومية والحضارية ، التي تنشئ عصرًا جديدًا . »

قال المستشرق المجري الذائع الصيت يوليوس جرمانس^١ المجري : « من « تتبع ما يُنشر اليوم من المؤلفات الأدبية باللغة العربية ، لا يسعه الا « التسليم بوفرة الثروة الأدبية التي اضافها أدباء هذا العصر - ومعظمهم من « المصريين - الى اللسان العربي . وكيفما قلبنا الطرف في المؤلفات الأدبية ، « نجد كلمات جديدة قد حلت محل الفاظ قديمة واخذت مكانها من اللغة . »

الا يجب علينا ، معاصر الناطقين بالضاد ، بعد الاصغاء الى هذه الاقوال التي فيها ما فيها من التعظيم لنهضتنا الأدبية الحديثة ، ان نأسف كل الاسف لكوننا قد اهملنا حتى الآن ايقاف أدباء الغرب وعلمائهم على شيء من بدائعنا ، لنرفع عندهم مقام الشرق العربي ولغته ، ونقوض اركان الوهم

(١) راجع جزء مارس (آذار) ١٩٣٤ من مجلة « الهلال » .

الراسخ في اذهانهم اننا عظاميون ، لا عصاميون .
في الحقيقة لا شهرة للشرق العربي في نظرهم سوى انه كان في ابعد
العصور مركزاً لا قدم المدينيات العالية ، وانه الآن بمثابة متحف عظيم
لآثارها . حتى من اقصى البلاد ، كالولايات المتحدة ، البرازيل ، الارجنتين ،
الهند ، الصين ، اليابان ، استرالية ، يتقاطر آلاف السياح لزيارة ذلك
المتحف العادم النظير ، فيقضون العجب من بدائعه التي لا يفي بها احصاء .
اما الذين لم يسعدهم الحظ بمشاهدة الشرق بعيني الجسد ، فقد رأته نفوسهم
بقراءة توار يخه او روايات جوايي الآفاق او مقالات الاختصاصيين
في الصحف .

كما جرت الامور في شأن حضارة الشرق الادنى عموماً ، هكذا
مجراها في شأن آدابه العربية خصوصاً . نعني ان الادباء الاوربيين
والاميركيين وغيرهم يعدون اقطارنا العزيزة متحفاً للعاديات ، لا غير . منذ
اعصار يطوف علماءؤهم المستشرقون في كل انحاءنا ، وبعد الابحاث الطويلة
المضنية قد اكتشفوا في ابعد زواياه ربوات من المخطوطات النفيسة ، الغائصة
عدة قرون في سبات عميق ، مخفية عن الانظار في رداثها الغباري الكثيف .
فقرأوها مراراً ، بل نشروها واعادوا طبعها مضيفين اليها حواشي ضافية ،
وترجموها ادق الترجمة الى اشهر اللغات ، فنرى وابلاً من تلك المصنفات
يتدفق بدون انقطاع من مطابع اوربة واميركة ، وفيها من الدقة والاتقان
ما يثير اعجاب الخبراء .

لا مرأ في ان شغف الغربيين بادبنا القديم مجد عظيم لشرقنا العربي ،
على انه لا يخلو من آفة وخيمة العواقب لنا ، وهي قلة اهتمامهم بدرس
ادبنا العصري والغوص على لآلئه الميتمة . خلاصة القول ان هيامهم بمآثر
اسلافنا قد شغلهم عن السعي وراء معرفة كنوزنا الحاضرة . بيد ان الصدق
يلجئنا الى الاعتراف بكوننا ، نحن اصحاب لغة الضاد ، حاملين عبء معظم

المسؤولية عن جهلهم ذلك الشائن ، فأنسا ، على وجه التعميم ، لم نحرك ساكناً لتعريفهم بعض جواهر ادبنا العصري الناهض . كيف يسهل عليهم الاهتداء اليها بدون مؤازرتنا ، وقد قال المثل السائر ان صاحب البيت ادري بما فيه ؟ ان الاعجاب الشديد الذي ابداه ائمة المستشرقين بالنثر اليسير الذي تسنى لهم العثور عليه من بدائع ادبنا الجديد ايشجعنا على بذل تلك المؤازرة السهلة . قد سئلت كهمفاير السابق ذكره عن رأيه في ذلك الادب ومستقبله ، فاجاب : « ان رأبي في الادب العربي الحديث كثيراً ما اوضحته في مؤلفاتي العديدة التي نشرتها على البلاغة العربية العصرية ، وعلى الاخص » في مقدمتي للكتاب Leaders in contemporary Arabic literature « اي » زعماء الادب العربي العصري » ، فان للامم العربية الحاضرة » نزعات راقية وقوى نفسية سامية ، ولادبها الجديد نهضة مباركة ، ولادباء » النساطقين بالضاد اليوم من ثمار سعيهم ما يجاري احسن ثمار الآداب » الغربية . انا موقن ان الادب العربي الحديث سيكون له رقي جديد ، » يعادل مجد الادب العربي القديم . ولا شك في ان مجد الادب العربي في » المستقبل لن يقام على الجديد ولا على القديم ، بل على اساس الصالح من » الجديد مقترباً بالصالح من القديم ؛ وما من صالح الا ما نفع الامة وطابق الفطرة التي جُبلت عليها . »

قصداً زمن بعيد تعريف الادباء في كل اقطار العالم المتمدن ، ولا سيما الاوربية والاميركية ، بعض المختارات الرائعة من شعرنا الغنائي العصري ، فترجمناها الى اللغة الدولية الايدية (Ido) ، وهي لسان اصطلاحي شديد الشبه للغات اللاتينية ، قد ابتدعه الماركيز ده بوفرون (de Beaufront) الفرنسي لتسهيل العلائق بين كل الشعوب المتعدنة ، فصار آلاف من ادبائها يفهمونه ويستعملونه في مراسلتهم للاجانب . قد طُبعت ترجمتنا سنة ١٩٢٦ في ستوكهولم (Stockholm) بهمة احد اصدقائنا من زعماء الناطقين

بالغة الايدية ، فما لبثت ان ذاعت آلاف نُسخها في الخافقين ، من اوربة الى الاميركتين ، بل الى اليابان في الشرق الاقصى . وكان لها صدى اعجاب شديد بنبوغ شعرائنا المفلّحين ، مع ان الكُتَيْب لا يحوي سوى ثلاث وثلاثين صفحة وترجمة اثنتين واربعين قصيدة ، ولم يكلفنا من العناية شيئاً يُذكر ، فضلاً عن كون ترجمة الشعر العربي الى النثر الايدي قد ازلت حتماً حصّة وافرة من جمال الاصل ، لما في اوزاننا المتنوعة وقوافينا من الموسيقى المطربة .

لم يمض ربح من الزمان على نشرنا تلك المجموعة الزهيدة الحجم حتى انتهات علينا رسائل التقريظ الحار لفرائد شعرنا المصري ، مخطوطةً باقلام عليّة الايديين في البلاد الآتية : فرنسة ، المانية ، ايطالية ، اسبانية ، روسية ، اسوج ، المجر ، فنلندة . بل قد ادرج المستشرق الروسي الشهير اغناطيوس كراتشكوفسكي (Kratchkovski) ، في مجلة المستشرقين الصادرة في ليننغراد ، مقالة طويلة على مجموعتنا ، فعبّر فيها عن شغفه الشديد بشعرنا المصري وصرح بأنه تكلف عناء درس اللغة الايدية ليتمكن من قراءة كُتَيْبِنا ، وقد ثار فيه التوق الى بدائع قريضنا الحديث .

يتضح اذاً مما سبق انه يجب علينا ، نحن ادباء الشرق العربي ، ألا نكفي بتعريب صفوة الآداب الغربية ، لنقتبس شيئاً من محاسنها الفاتنة ، بل ان نترجم الى اشهر لغات الغرب خيرة ادبنا الجديد النثري والشعري ، لرفع مكانتنا في عيون الافرنج ، فيوقنون ان الشرق العربي ليس متحفاً للعاديات فقط ، بل منجماً من مناجم الجمال الفني ، حديث الانتاج ، كثير الكنوز ، باهر المستقبل .

الفهرس الاول

الحاوي مقالات الكتاب وفقاً لترتيبها

القسم الاول : نقد بعض الادباء المعاصرين

٨٠	ايليا ابو ماضي	١	حافظ ابراهيم
٨٥	رشيد سليم خوري		احمد زكي ابو شادي
	نعمه قازان	٨	في « اطياف الربيع »
٩٢	في « معلقة الارز »	١٧	معروف الرصافي
٩٧	اسعد رستم	٢٥	سعيد ابو بكر
	ميخائيل نعيمة	٣٠	خليل مطران
١٠٣	ناقد الادب العربي المعاصر	٣٩	بشارة الخوري
١٠٩	ميخائيل نعيمة الشاعر	٤٧	شبلي الملائط
١١٧	احمد شوقي		حليم دموس
١٢٧	جبران خليل جبران	٥٢	في « الثالث والثاني »
	راجي الراعي		الياس ابي شبكه
١٤٤	في « قطرات ندى »	٦٠	في « القيثارة »
١٥١	سامي صائغ في « النسبات »	٧٠	الياس فرحات

القسم الثاني : مقالات عامة على ادبنا المعاصر

تنبه : قد ذكرنا تحت كل عنوان الادباء الذين ادرجنا شيئاً من مؤلفاتهم .

اجمل انواع شعرنا المعاصر

١٦٣ احمد شوقي ١٦٤ - الياس فرحات ١٦٦ و ١٧٥ - ايليا ابو ماضي
١٦٧ - اسعد رستم ١٦٨ - الياس فياض ١٦٩ - خليل مردم ١٧١ - رشيد

ايوب ١٧١ - نسيب عريضة ١٧٣ - رشيد سليم خوري ١٧٣ و ١٧٦ - فوزي المولف ١٧٤ - ميخائيل نعيمة ١٧٥ - انيس الخوري المقدسي ١٧٥ .

١٧٦ اجمل انواع نثرنا المصري

يوسف غصوب ١٧٧ - سلمى صائغ ١٧٨ - فليكس فارس ١٧٩ - خليل مطران ١٨٠ - فيليب حنّي ١٨٣ - لبينة هاشم ١٨٣ - مصطفى باشا كامل ١٨٥ - سعد باشا زغلول ١٨٦ - الاسقف جرمانوس معقّد ١٨٧ - الاسقف غريغوريوس الحجار ١٨٨ - طه حسين ١٨٩ - قسطنطين الحمصي ١٩٠ .

١٩٢ انحطاط النقد الادبي عندنا

جبر ضومط ١٩٧ - حافظ ابراهيم ٢٠٠ - جرجي زيدان ٢٠٣ .

٢٠٥ واجب ابراز تحف ادبنا المصري للغرب

كمبرفاير (Kampffmeyer) ٢٠٥ و ٢٠٧ - يوايوس جرمانس ٢٠٥ .

الفهرس الثاني

الحاوي بترتيب ابجدي اسماء الادباء الذين نشرنا عليهم مقالات نقد - قد اشرفنا اليها بنجمة - او ادرجنا نموذجات من مؤلفاتهم .

١٨٨	الحجار (الاسقف غريغوريوس)	٢٠٠، ١	* ابراهيم (حافظ)
١٩٠	الحمصي (قسطنطين)	٢٥	* ابو بكر (سميد)
٣٩	* الخوري (بشارة)	٨	* ابو شادي (احمد زكي)
١٤٤	* الراعي (راجي)	١٦٧، ٨٠	* ابو ماضي (ايليا)
١٧	* الرصافي (معروف)	٦٠	* ابي شبكه (الياس)

المعلوف (فوزي)	١٧٤	* صائع (سلمى)	١٧٨، ١٥١
المقدسي (انيس الخوري)	١٧٥	ضومط (جبر)	١٩٧
* الملاط (شبلي)	٤٧	عريضة (نسيب)	١٧٣
ايوب (رشيد)	١٧١	غصوب (يوسف)	١٧٧
* جبران (جبران خليل)	١٢٧	فارس (فليكس)	١٧٩
حتشي (فيليب)	١٨٣	* فرحات (الياس)	١٧٥، ١٦٦، ٧٠
حسين (طه)	١٨٩	فياض (الياس)	١٦٩
* خوري (رشيد سليم)		* قازان (نعمه)	٩٢
٨٥، ١٧٣، ١٧٦		كامل (مصطفى باشا)	١٨٥
* دموس (حليم)	٥٢	مردم (خليل)	١٧١
* رستم (اسعد)	١٦٨، ٩٧	* مطران (خليل)	١٨٠، ٣٠
زغلول (سعد باشا)	١٨٦	معقّد (الاسقف جرمانوس)	١٨٧
زيدان (جرجي)	٢٠٣	* نعيمه (ميخائيل)	١٧٥، ١٠٩، ١٠٣
* شوقي (احمد)	١٦٤، ١١٧	هاشم (لبية)	١٨٣

الفهرس الثالث

الحاوي اهم المواد مرتبة ترتيباً ابجدياً .

العدد الاول التابع لكل مادة يدل على الصفحة ، والثاني على السطر .

لم نعد الخط الواقع بين المقالات سطرأ .

ابتدال ٦ : ٧ - ٥١ : ٣ - ٥٨ :	٤٥ : ١٥ - ٥٧ : ١٢ - ٦٧ : ١٤ -
١٣ - ١٠٢ : ١٠ - ١٢٤ : ١٧ -	٦٨ : ٧ - ٧٨ : ٤ - ٨٩ : ١٩ -
١٩٩ : ٦ .	١١٦ : ١٢ - ١٢٤ : ٧ - ١٤٣ : ٤ -
ابتكار ٣٣ : ٦ الى آخر المقالة -	١٦١ : ٩ - ١٨٠ : ٥٠ -

تجديد العروض ١٦ : ١١ - ٢٦ :
١ - ٦٩ : ١٧ - ٧٨ : ٢١ .

تصنع ٦ : ٨ - ١٤ : ٦ - ١٦ : ٨ -
٢٢ : ٨ - ٢٤ : ٢ - ٤٤ : ١٢ -

٤٦ : ٢٠ - ٥٨ : ١٧ - ٦٩ : ٢ -
٩١ : ١٥ - ١٢٠ : ١١ - ١٢٥ : ١١ -

١٤٣ : ١١ - ١٥٠ : ٦ .
تعظيم السيد المسيح ١٢٢ : ١٠ .

تعظيم الله تعالى ١٥ : ١٨ - ٦٥ :
٢ - ١١١ : ١٦ - ١٢٤ : ٨ - ١٧٠ :

١٧ .
تهذيب الاخلاق ١٩ : ٥ - ٥٤ :

٧ - ٦٦ : ١١ - ٨٧ : ١٦ - ٩٨ :
٩ - ١٢١ : ٦ - ١٤٥ : ١٦ - ١٤٧ :

٣ - ١٥٨ : ٥ .
حب الشرق العربي ٢٨ : ١٢ .

حب اللغة العربية ٥٥ : ٢٠ -
١٥٧ : ٦ .

حب الوطن ٤ : ١٣ - ٥ : ٩ -
١٤ : ١٦ - ٢١ : ١١ - ٢٦ : ٢٠ -

٤٣ : ٩ - ٤٨ : ١٦ - ٥٤ : ٢٠ -
٦٤ : ٦ - ٨٥ : ٢٠ - ٩٤ : ١١ -

٩٦ : ١٧ - ١١٩ : ٢٣ - ١٣٨ :
١٧ - ١٤٨ : ٢٠ - ١٥٥ : ٢ .

ابرار تحف ادبنا العصري للغرب
٢٠٥ .

ايهام ١٢٥ : ٢٢ - ١٤١ : ٢ -
١٤٣ : ١٨ .

اجمل انواع شعرنا العصري ١٦٣ .
اجمل انواع ثرنا العصري ١٧٦ .

ادب اجتماعي ١٥٦ : ١٨ - ١٥٧ :
٢٠ - ١٨٢ : ١ .

ادب تقليدي ١٩٦ : ٢ - ١٩٧ :
٢٤ .

ادب لفظي ٩٣ : ١٦ - ١٠٦ : ٥ -
١٣٩ : ١٤ الى ١٤٣ - ١٩٣ : ١٢ .

اغلاط لغوية ٤٦ : ٥ - ٦٨ : ١ -
٩٧ : ٥ - ١٠١ : ٢٢ - ١١٦ : ٩ -

١٢٦ : ٨ - ١٤٤ : ٣ - ١٦١ : ١٥ .
اقرار الكفار بتعاستهم ١٠ :

٢٤ - ١٧ : ١٦ - ١٨ : ١٦ - ٦٠ :
١٩ - ٧٢ : ١٣ - ٧٤ : ١٣ - ٩٥ :

١٢ - ١١٠ : ١٤ - ١٣٤ : ٤ .
امثال على السنة الحيوانات ١٦٣ :

١٦ .
انكار تطور العربية في جيلنا

١٩٦ : ١٥ .
تأنيس الجمادات ٩٠ : ١٩ .

- حشو ١٤٣ : ٢٢ - ١٩٤ : ٢١ .
- خطابة دينية ١٨٧ : ٧ .
- خطابة وطنية ١١ : ١٨٤ الى ١٨٧ .
- خلاعة ٩ : ١٠ - ٦٢ : ٢٢ -
- ٧٤ : ٨ - ١٢٩ : ٨ - ١٤٦ : ١٧ -
- ١٤٧ : ١٣ .
- خيالات فارغة ١٤١ : ١٩ .
- روايات تمثيلية ١٨١ : ١٧ -
- ١٩٨ : ٢١ .
- روايات قصصية ١٨١ : ١٧ .
- شعر رمزي ٨١ : ١٧ - ٨٨ :
- ١٥ - ١١٤ : ١ - ١٦٧ : ٤ .
- شعر روائي ٣٢ : ١ - ٣٩ : ١٤
- الى ٤٢ - ٤٩ : ١٨ - ١٦٩ : ١٠ .
- شعر غنائي ٥ : ١٥ - ١٧٠ : ١٠ .
- شعر فكاهي ٩٧ : ١٤ الى ١٠٢ -
- ١٦٨ : ٤ .
- شعر وصفي ١٦٥ : ٤ .
- شعر وطني ١٧٤ : ١٦ - ١٩٨ :
- ١٦ . (راجع « حب الوطن »)
- شفقة على آلام البشر ١٥١ : ٢٠ .
- فرط استعمال كلمات مماتة ٧ : ١٥ -
- ٢٣ : ٢١ - ١٢٦ : ٩ - ١٩٤ : ١٣ .
- قواعد الادب الثابتة ١٠٣ : ١٦ -
- ١٠٦ : ١٤ - ١٩٢ : ٢١ .
- كفر ١٠ : ١ - ١٨ : ٣ - ٦٢ :
- ٢٢ - ٦٥ : ٧ - ٧٥ : ٥ - ١٢٧ :
- ١١ الى ١٣٢ .
- مادية ١٢ : ١٣ - ١٧ : ٩ - ٦٣ :
- ٤ - ٨٢ : ١٨ الى آخر المقالة -
- ١٠٩ : ١٧ - ١٢٨ : ٣ .
- مبالغة ٦ : ١٦ - ٢٤ : ١٠ - ٥١ :
- ١٦ - ٥٨ : ٢ - ٩١ : ١٨ - ١٠١ :
- ١٢ - ١١٧ : ١٧ - ١٢٤ : ٢٢ -
- ١٩٥ : ١٢ .
- موسيقى الشرق ١٥٩ : ١٧ .
- نقد الادب ١٠٣ الى ١٠٩ - ١٨٩ :
- ١٢ - انحطاطه عندنا ١٩٢ - نقد
- تجاري ٢٠١ : ٣ الى ٢٠٤ .
- نهضة الشعر العربي في جيلنا ٣٠
- الى ٣٩ - ١٠٧ : ١٨ .
- وصف احوال النفس ٤٢ : ١٨ -
- ٥٣ : ١١ - ٨٩ : ٦ - ١١٣ : ٦ -
- ١٢٣ : ٢٢ - ١٢٤ : ١٢ - ١٣٤ :
- ١٩ - ١٥٢ : ٢ - ١٥٤ : ٦ - ١٥٥ :
- ١٣ - ١٧٢ : ٦ - ١٧٨ : ٤ الى
- ١٨٠ .
- وصف الاخلاق ٣ : ٥ - ١٢٠ :

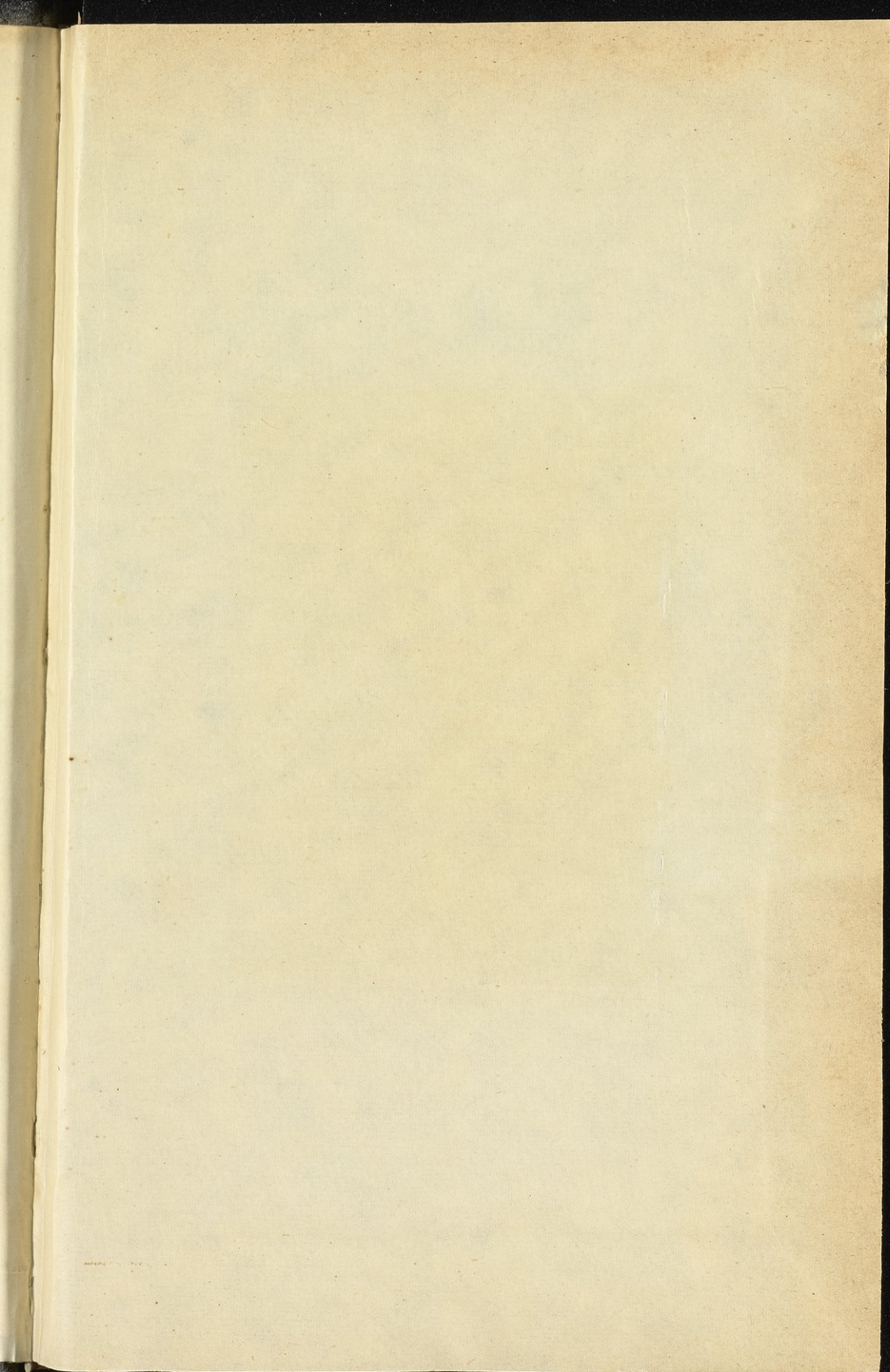
وصف الحوادث ٢ : ١٠ - ٣٢ :	١٧ - ١٣٦ : ٢٢ - ١٤٥ : ٧ -
١٥ - ٤٨ : ١ : ١١٨ - ١٧ :	١٥٢ : ٢٢ - ١٧٧ : ١٣ :
١٥٤ : ١٦ :	وصف الاشخاص ٤٢ : ٨ :
وصف الطبيعة ١٤ : ١ :	وصف الاشياء ٥٣ : ٤ - ١٨٠ : ٣ :

تنبيه للقراء

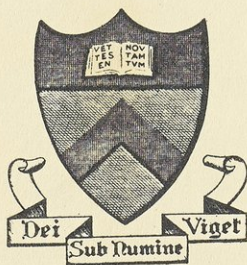
قد وقعت اغلاط قليلة في طبع هذا الكتاب ، لم نُشر الى جميعها لانها لا تخفى عن الادباء الذين الفناه لاجلهم دون سواهم . هاكم بعضها :

- ٦١ : ٥ - « عذاب » خطأ ؛ صوابه « عذاب » .
- ٨١ : ٣ - « الاوران » خطأ ؛ صوابه « الاوزان » .
- ١٨٠ : ١٢ - « بنسفجي » خطأ ؛ صوابه « بنفسجي » .
- ٢٠٧ : ١٨ - « قصدنا زمن » خطأ ؛ صوابه « قصدنا من زمن » .





Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 073825299

32101 073825299